الأطياف الأربعة

دراسة وتقديم

المستشار عبد الله العقيل

مركز الإعلام العربي

التجهيزات الفنية

مركز الإعلام العربي

رسوم

عصام الشرقاوي

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

* الكتاب: الأطياف الأربعة

* المؤلف: محمد قطب، وآخرون

* قياس الصفحة: ١٤ × ٢٠

* رقم الإيداع: ١٦٤٨٧/ ٢٠١٤

* الترقيم الدولي: ٥ - ٤٠٤ - ٣٦٧ - ٩٧٧ - ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بأية طرق الطبع والنقل والتصوير والترجمة والتصوير المرئي والمسموع والحاسوبي.. وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من:

مركز الإعلام العربي

ص.ب ١٩٣ الهرم - الجيزة - مصر

هاتف: ٠٠٢/٣٧٨١٣٠٣٣

فاكس: ٠٠٢٠٢ / ٣٣٨٧٧٧٧٦

التوزيع: ٠٠٢٠٢/٣٧٤٤٥٤٥٥ - ٠٠٢/ ٠١٠٠٠٢٧٠٤٤

* الموقع على شبكة الإنترنت:

www.amc.eg.com

* البريد الإلكتروني:

media-c@ie-eg.com

الأطياف الأربعة/ محمد قطب...(وآخ)
الجيزة: مركز الإعلام العربي للأبحاث والمعلومات والنشر والتوزيع، ٢٠١٤م.
٢٦٠ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: ٥ ٤٠٤ ٣٦٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١- قطب محمد - المذكرات
١- قطب، محمد (مؤلف مشارك)
٢- العنوان ٩٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

أشقاء في الدم والحلم.. الحلم بمدينة فاضلة ومجتمع مثالي وبشر أقرب إلى الملائكة.. جمعتهم الصحبة والغربة.. غربة النفس الحالمة السماوية في دنيا أرضية لا تسمو إلى مطامحهم، ولا يستطيعون هم أن يهبطوا إليها.. خرجوا من ذات الرحم ليتشاركوا نفس الألم.. ألم فراق الوالدين اللذين عاش هؤلاء الأشقاء في كنفهم وتحت مظلة حنانهم قبل أن يجدوا أنفسهم بغتةً وحدهم يصارعون أمواج الحياة، ويواجهون ابتلاءاتها.

هم أربعة إخوة، وحَّدهم اليتم.. واختصرت لوعة الفراق المسافات بينهم، فصاروا وكأنهم شخص واحد، وانصهر وعيهم في أتون التجربة التي حولوها إلى مداد وقلم سطروا بهما مكنونات نفوسهم الحائرة على أوراق العمر..

أربع أرواح هائمة في عالم الخيال.. سابحة في سماوات القلق الإنساني المشروع الذي يستشعره كل أصحاب القلوب الرقيقة حين يكتشفون عمق الهُوَّة بين أحلامهم وواقعهم، ويوقنون بأنهم ليسوا أبناء تلك الحياة المادية القاسية التي يعجزون عن التكيف مع جمودها ووحشيتها - وهم تلك الحمائم الرقيقة التي لا تعرف إلا الخير والفضيلة...

تلك الأرواح اختارت أن تصبح في الدنيا أطيافًا عابرةً، واختارت أيضًا ألا تعبر تلك الدنيا إلا بعد أن تترك فيها آثارها.. وتشهد الله ثم الناس على خبايا صدورهم التي اعتملت وتصارعت فيها مشاعرهم الجياشة، فنسجوا منها إبداعًا راقيًا يلخِّص معاناة الإنسان النوراني في العالم الضبابي المظلم، ويشرح رؤية هذا الإنسان للكون والبشر، وتصوره الخاص للحياة والعلاقات الإنسانية بكل تشابكاتها وتعقيداتها.

هذا الإبداع هو عصارة نفوس الأشقاء- الأطياف، وخلاصة تجربتهم الحياتية.. وهو أيضًا تعبير صادق عن سماتهم الشخصية وتجسيد لمنظومة القيم التي تبنوها وتحركوا بها، وعانوا الكثير وهم يحاولون ترميم الفجوة بين هذه القيم وواقع الحياة والمجتمع في الفترة التي صاغت الأطياف فيها خطراتها، فانعكست في مرآة كل طيف في هذا العمل الأدبي صورة صاحبه وملامح نفسه بصدق شديد منبعه صدق الطيف وعدم افتعاله أو تصنعه وهو يكتب بعض نفسه.

إن «الأطياف الأربعة» ليس مجرد عمل أدبي يصنف تحت شكل إبداعي، وتنطبق عليه معايير النقدية.. إنه معزوفة حزينة هادئة.. شارك في عزفها أربعة من الموهوبين كل بآلته الموسيقية، فتداخلت النغمات وتشابهت واختلفت لتصنع لحنًا واحدًا جميلاً متكاملاً، وإن تشكل من أربع معزوفات منفصلة لكل منها خصوصيتها.. ولكل منها أيضًا خيوطها غير المرئية التي تربطها بباقي المعزوفات.

إنه لحن واحد ومتنوع.. متشابه ومختلف.. ثابت ومتغير، وهذا هو سر جماله، فهو يجمع بين متناقضات، ويؤلف بينها في سلاسة ورفق منبعهما وجود عناصر مشتركة خفية بين تلك المتناقضات تجعلها إلى

التناغم أقرب منها إلى التنافر.. وإلى التآلف أدنى منها إلى التشتت.. إذ هي تناقضات كيانات إنسانية بينها اختلافات فطرية.. وتشابهات مكتسبة مردها البيئة المشتركة والتنشئة الموحدة.. وهذا ما عبَّر عنه بشكل بليغ الطيف الأكبر.. وهو الشهيد «سيد قطب»، في مقدمته القصيرة لكتاب «الأطياف الأربعة» حيث وصف ملامح كل طيف بلغة سلسة بليغة تلخص عناصر تمايزه عن باقي الأطياف، وذلك بعد أن قال: إن «كلهم أصدقاء.. وذلك هو الرباط الأقوى» بين الصبية الناشئة المذعورة من المجهول.. والفتاة الهادئة السارية في الماضي، والفتى الحائر الذي يحلم في اليقظة ويستيقظ في الأحلام، وعاشق المحال الذي يطلب ما لا يجد ويسأم من كل ما ينال.

إن «الأطياف الأربعة» هو أدب الروح، وربما يصلح هذا المصطلح كتصنيف يندرج تحته كل إبداع راق متسام، ملتزم بالقيم والأعراف في مضمونه ولغته معًا، كل إبداع يخاطب النوازع الخيّرة في النفس البشرية ويساعدها على التسامي والاستعلاء على مكوناتها الأرضية لتصبح إلى التقوى أقرب، وعن الفجور أبعد.. هذا التصنيف الذي نقترح اعتماده ونطالب المؤسسات الثقافية في أمتنا بأن تتبناه وتجابه به «أدب الجسد» الذي يزهو بعض المحسوبين على الحركة الأدبية بأن أعمالهم تنتمي إليه ولا يخجلون من مشاركتهم المتعمدة - باسم حرية الإبداع في هدم القيم والهبوط بالإنسان إلى الدرك الأسفل من الانحلال والإباحية..

إن مركز الإعلام العربي حين ينشر «الأطياف الأربعة» لا يفعل ذلك اجترارًا لتاريخ أدبي بل إحياءً وإنصافًا لإبداع كاد أن يندثر ويركم تحت أعمال تحتفي بها الأوساط الثقافية المتآمرة على هوية

الأمة وخصوصيتها الفكرية والأخلاقية.. وقد آن الأوان لنفض الركام وانتشال الدرر الأدبية التي تستحق الانتساب لأمة «اقرأ».. أمة القلم والكلمة المسطورة.. التي لابد أن تكون وسيلةً لتمكين خير أمة لا لدفعها نحو التراجع والانهيار.

إهداء

إليكِ يا أماه نتوجه بهذا الكتاب

لقد عشنا – وأنت معنا – غرباء في القاهرة

بعد ما فقدنا الوالد ونزحنا من الوطن الصغير

فلما مضيتِ عنا تغرَّبنا في الكون والحياة.

لقد مضينا في ذلك الكون العريض

نبتات ضالة ليس لها جذور

وأطيافًا هائمة ليس لها قرار

ما تكاد أقدامنا تلمس الأرض

حتى تتطلع بلهفة إلى السماء.

وما تكاد أجنحتنا تلمس السماء

حتى نتشوق إلى الأرض من جديد

وهذه أصداء حياتنا يا أماه

فإليك هذه الأصداء المتجاوبة

عساها أن تبلغ إليك في عالم الخلود

المؤلفون

دراسة وتقديم

بقلم المستشار/ عبدالله العقيل

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وبعد..

فكثيرة هي الأسرات العربية التي عُنيَت بالأدب، فتواتر اهتمام أفرادها بالأدب في أنواعه المختلفة، إبداعًا (شعرًا ونثرًا)، ودراسة، ونقدًا، فمن قديم انتقلت موهبة الشعر من الأب إلى عَقِبه، وقد قيل قديمًا: «إن الشعر كان في الجاهلية في ربيعة، فكان منهم مهلل بن ربيعة، وإنما سمي مهلهلاً لهلهلة شعره، أي رِقَّته وخِفته» العمدة ١/٧٥.

والمهلهل هذا كان أول من قصَّد القصائد، قال الفرزدق:

ومهلهل الشعراء ذاك الأولُ

وهو خال امرئ القيس بن حجر الكندي الشاعر، وجد عمرو بن كلثوم الشاعر (أبو أمه). ومن ربيعة أيضًا (المرقشان، والأكبر منهما عم الأصغر، والأصغر عم طرفة بن العبد) العمدة ١/٧٦. وكان من نسل عمرو بن كلثوم الشاعر كلثوم بن عمرو العتابي.

وقد اشتهرت بخلاف ربيعة قبائل أخرى بكثرة الشعراء كهذيل وبني عامر وتميم ثم طيّئ، أما هذيل فقد قال فيها حسان بن ثابت: (أشعر الناس حيًّا هذيل) العمدة ١/٧٧. ومن شعرائها: أبو ذؤيب الهذلي، وأبو خراش والمتنخل.

ومن بني عامر اشتهر من الشعراء: أبو حية النميري، والراعي النميري، وتوبة بن الحميِّر، وجران العود، والقتال الكلابي، ويزيد بن الطثرية، وليلى الأخيلية والعامرية.

ومن تميم كان جرير والفرزدق.

ومن طيئ اشتهر الطائيان أبو تمام والبحتري.

وقد قيل قديمًا: «ما اتصل الشعر في ولد بالجاهلية بمثل ما اتصل في ولد زهير؛ إذ من أولاده كعب وبجير الشاعران، ومن نسل كعب كان الشاعر العوام بن عقبة بن كعب بن زهير.. وما اتصل الشعر في ولد من الإسلاميين اتصاله في ولد جرير فكان من ولده بلال أفضل أبنائه وأشعرهم». (ولبلال عقب منهم عمارة بن عقيل بن بلال، وكان شاعرًا مجيدًا فصيحًا عاش في الدولة العباسية، وروى عنه كثير من الأدباء والرواة واللغويين) جرير حياته وشعره للدكتور نعمان طه ١٢٤.

وفي ولد جرير أيضًا نوح وعكرمة وكانا شاعرَين، ومعروف أن حذيفة الملقب بالخطفي جد جرير كان شاعرًا هو الآخر، ومن شعره المستملح:

عجبت لإزراء العيِيِّ بنفسه وصمتِ الذي قد كان بالقول أعلما

وفي الصمت ستر للعيِيِّ وإنما صحيفةُ لُبِّ المرء أن يتكلما

وفي مصر في العصر الحديث، وبفعل الوراثة والتربية والبيئة اشتهرت بعض الأسرات بالاشتغال بالأدب، وربما أضيف إليه الاشتغال بالسياسة أو الصحافة، ومن تلك الأسرات أربع شهيرة هي: الأسرة «التيمورية»، و«البستانية» و«الأباظية» و«الرافعية».

وتعمل الوراثة عملها في تشكيل ملامح شخصية الإنسان، أما البيئة والتربية فـ(تنميان فيه الملكات الموروثة، وتساعدانه على اكتساب خلائق جديدة، فقوى الإنسان الذهنية إذن موهوبة ومكتسبة) أشهر الأسرات الأدبية في مصر لنجيب توفيق.

عرف العرب إذن في القديم والحديث الأسرات الأدبية، لكنا لم نقف في التاريخ قديمه وحديثه على مؤلف أدبي واحد اشترك في تأليفه إخوة إلا ما كان في الخالديَيْن قديمًا، وآل قطب حديثًا.

أما الخالديان «نسبة إلى الخالدية من قرى الموصل بالعراق» وهما

«أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي المتوفى نحو ٣٨٠هـ وأخوه أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدي المتوفي في حدود ٤٠٠هـ، فقد اشتركا في تصنيف كتب منها:

- «الأشباه والنظائر» المعروف «بحماسة الخالديين» أو «حماسة شعر المحدثين».
- «أخبار أبي تمام ومحاسن شعره».
- «أخبار الموصل».
- «أخبار شعر ابن الرومي».
- «اختيار شعر البحتري وكذا شعر مسلم بن الوليد».

ويذكر أنهما كانا يشتركان في نَظْم الأبيات أو القصيدة فتنسب إليهما معًا، وكل ما وصل إلينا من مؤلفاتهما أو ورد عنهما من رواية أو شعر في المجاميع أو الكتب الأدبية كان مشتركًا بينهما، لا يختص واحد منهما بشيء دون أخيه، ولذا لا يمكن لباحث أن يتكلم عنهما إلا مجتمعَيْن.

يراجع في ذلك: الفهرست ١٦٩/١، سير أعلام النبلاء ٢١٥/١٠ «طبقة الصفا بمصر» والأشباه والنظائر (المقدمة) بتحقيق الدكتور السيد محمد يوسف.

الأطياف الأربعة.. أُخوّة النسب والأدب

وفي العصر الحديث لم أعرف فيما وصلني أسرة واحدة وقد اشترك أبناؤها في وضع مؤلف واحد سوى آل قطب، حينما اشتركوا في تأليف «الأطياف الأربعة» وهو كتاب ألفه الإخوة: «حميدة» و«أمينة» و«محمد» و«سيد» قطب، أخرجوه لأول مرة عام ١٩٤٥م ويحوي (٤١) نصًا أدبيًا ونثريًا.

ويُعَرِّف بهذه الأطياف الأربعة سيد قطب فيقول: (صبية وفتاة، وفتى وشاب).

والمجموعة الإبداعية تستمد عنوانها هنا من مبدعيها، لا من إبداعهم، فليس في نصوص المجموعة ما يحمل عنوانها، على عادة الشعراء والقصاصين الغالبة، حين يجعلون عنوان الديوان أو المجموعة القصصية عنوان إحدى القصائد أو أهم القصص تعبيرًا عن رسالة المبدع أو مقصد القاص.

والأربعة هم إخوة في الشعور وإخوة في الدم، ألقت هذه الأخوة الإيمانية والفكرية بظلالها الوارفة على مضمون نصوص المجموعة، ونصوص الأربعة هي أطياف أيضًا، يعرّف بها وبهم سيد فيقول:

(أولئك هم الأطياف الأربعة، وهذه خطراتهم في كتاب. إنها عصارة من نفوسهم، وظلال من حياتهم. إنها أطياف الأطياف!) ص٤٤ من الأطياف الأربعة.

ومع أن «سيد» هو رائد الأسرة وكبيرها الذي أشربها حقيقة الإسلام وألهمها حب الأدب، وفتح لأفراد الأسرة أبواب المجلات التي ترأّس تحريرها ليكتبوا فيها كغيرهم من الموهوبين، فإن نصوصه بالأطياف ترد في النهاية، وتتقدم نصوصُ الصغرى «حميدة»، تليها أختها الكبرى «أمينة».

وفي تقديمهما على الأخوين الكبيرين ما يشير إلى حنو الرجلين على أختيهما، ورعاية رائد الأسرة لأختيه الصُغْرَيَيْن. والحقُّ أن رائدات الأدب النسوي في مصر، ومنهن «حميدة» و«أمينة»، تلكما اللتان تجاهلتهما معًا كل دراسات الأدب النسوي المصري، تجمع جميعهن حقائق ثلاثة هي:

١- (أنه كان وراء كل امرأة عظيمة رجل.. رجل سبق عصره، وآمن بالدور الذي يمكن أن تلعبه ابنته وزوجته، وأؤكد هنا خاصة على دور الأدب..

٢- أما الحقيقة أو الملاحظة الثانية، فهي دور البيئة في بروز هؤلاء الرائدات؛ فقد كن جميعًا ينتمين إلى مستوى اجتماعي رفيع أو على

الأقل فوق المتوسط، وهو ما يسّر لهن اهتضام العلم واحتراف الكتابة.

٣- أما الملاحظة الأخيرة المشتركة بين كاتباتنا، فهي أن الكتابة للصحافة كانت عنصرًا مشتركًا بينهن) رائدات الأدب النسوي في مصر لأميرة خواسك ١٢، ١٣.

والأختان لم تتمتعا فقط بالتقديم الشكلي في هذا الكتاب، وإنما أفسحت الأطياف لهما مساحة الإبداع التي وصلت بنصوص «حميدة» إلى ١٣ نصًا كاملاً، ولئن فاقت عنوانات نصوص «سيد» الجميع فكانت ثمانية عشر عنوانًا كاملة، فإن مدى إبداعه لم يصل إلى نصف مدى «حميدة»، فهي الأطول منه نفسًا والأقدر على السرد والحكي، تشبهها في ذلك وربما تفوقها الأخت «أمينة»، فمداها الإبداعي هو الأطول بالأطياف، إذ يتجاوز بنصوصه الستة فقط مدى «حميدة» بقليل، أما «محمد قطب» فبنصوصه الأربعة يحتل المرتبة الثالثة في التراتب الشكلي، وفي المدى الإبداعي، فهو الأطول من سيد مع كثرة نصوص الرائد صاحب الظلال.

الأطياف الأربعة إذًا إبداع أسري، فيه الذاتي والقصصي، والفلسفي والفكري، وفيه القصة والخاطرة، ويغلب عليه أن يكون أدبًا متميزًا، فالأطياف الأربعة تنتمي إلى الأدب في غالبها، عدا ما كتبه «سيد» فيها، فهو من الأدب الرفيع كالشعر المنثور، ويغلب عليه أدب الخاطرة التي تتميز بالإيجاز والعمق في التعبير عن الفكر والوجدان. ويمتاز «سيد» عن إخوته بأشياء، ويشاركهم في أشياء، واتفاقه معهم وامتيازه عنهم هو اتفاق وامتياز فرضتهما معًا ريادته للأسرة فكريًا واجتماعيًا؛ فهو الأب الروحي والراعي الرسمي الذي مثّل لهم الأسوة في الشدة والرخاء.

إن الأطياف الأربعة تنتمي حين تنتمي إلى الأدب، أدب الطهر والتطهر، وإلى أدب البَوْح الذاتي، وفيها يختفي الحوار إلا قليلاً، ولغتها ساردة متدفقة وأحداثها بسيطة، تكاد تتكرر بين الأطياف

الأربعة، والشخصيات القصصية فيها قليلة لا تتجاوز أفراد الأسرة إلا نادرًا.

الأطياف الأربعة والحب العذري

يقول «محمد قطب» في «في الامتحان» عن قصة حب من طرف واحد، تتصل بأيام المراهقة، وتتكشف عن موهبة أدبية، وواقعية تعبيرية، وكذلك تكشف عن علاقة العاطفة بالأدب عند الأطياف في الأطياف؛ إذ العاطفة الصادقة هي مرتكز الإبداع الأدبي لديهم، وهي قوامه الأساسي كملمح من ملامح رومانسية الأدب عندهم.. يقول:

(ولكنه اليوم يحس بحاجة قوية إلى التعبير عما في نفسه من أحاسيس، فما يطيق أن يحبسها في إطار صورة.

وما جاء وقت الغروب حتى كان في طريقه إلى المنتزه وبيده ورقة وقلم، وجلس إلى شجرة منعزلة يكتب شعرًا في أيام الامتحان).

والأستاذ محمد قطب في (بين السماء والأرض) يحكي عن الحب أيضًا، حب السماء الطاهر وحب الجنس الأرضي، وعن عذابات المحبين بين هذا وذاك.. أما هو فحبه عذري، يراه حافزًا على الإبداع، وحاجة ماسة من حاجات النفس الشاعرة.. التي لا ترى في التعبير عن دخيلة مشاعر النفس عيبًا أو حرجًا، طالما التزم فيها العفة، خلق العربي قديمًا، كما قال عنترة:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مثواها

إن المسلم الأصيل في حبِّه مترفع عن الصغائر، يُعنَى بحركة الوجدان والروح لا بنداءات الجسد وشهوات الرغبة.. يقول محمد قطب ولا يقصد إلا نفسه:

(لقد كانت في نفسه منذ طفولته الأولى صوفية تحتمل الألم وترضى بالقليل! صوفية تتحكم في عواطفه جميعًا حتى الحب.. وكله أنانية واندفاع.

لقد كان حبه كالعابد المتصوف الذي يجد لذته الكبرى في العبادة ذاتها، لا فيما يتلقاه لقاء هذه العبادة من جزاء!)

والحب عنده على هذا النحو تناغم روحين لا نداء جسدين.. والحب مثير إبداعي لا تقدره إلا نفوس المبعدين.. يقول:

(... ولكن لم يدخل في تقديره وهو يتمنى ذلك أي تفكير حقيقي في الزواج، وإنما كانت أمنية فنية كان يتخيل حياته وهي تزامله في العيش خيالا يجلّ عن الزواج، وعن أي رباط يدخله في الجسد من قريب أو بعيد، زمالة روحية جميلة، وهو وهي في دنيا الأحلام، في وادٍ تهمس فيه الأرواح).

الحب بالأطياف إذن خط أصيل جامع، شريطة أن يفهم على حقيقته فيها كونه حبًا طاهرًا عفيفًا، وهو يذكرنا هنا بأديب الإسلام الفذ في العصر الحديث مصطفى صادق الرافعي، حين قال:

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

فالحب حاجة بشرية أساسية، ولئن دنّسهَا التغريبيون في كتاباتهم، فإن للأدباء الإسلاميين نظرتهم الراقية لتلك العاطفة السامية، يقول الرافعي: السحاب الأحمر ٣٢.

(لا سمو للنفس إلا بنوع من الحب مما يشتعل إلى ما يتنسّم، من حب نفسك في حبيب تهواه، إلى حب دمك في قريب تعزه، إلى حب الإنسانية في صديق تبره، إلى حب الفضيلة في إنسان رأيته إنسانًا فأجللته وأكبرته).

وإذا تحدثنا عن دلالة الطيف والأطياف من الوجهة الأدبية فكلاهما لفظ (يوصف بالمدح.. ولمدحه وجوه متشعبة، فمما يمدح به أنه يعلل المشتاق المغرم، ويمسك رمق المعنى المسقم، ويكون الاستمتاع به، والانتفاع به.. وربما يذم بأنه سريع الزوال، وشيك الانتقال، وبأنه يهيج الشوق الساكن، ويضرم الوجد الخامد، ويذكر بغرام كان صاحبه عنه

لاهيًا أو ساهيًا) طيف الخيال للشريف الرضي، ٤ الصيرفي ٥، ٧.

والطيف هكذا حالة تلم بالمحب، وهي بديل عن الرؤية البصرية، يقنع بها المحب من رؤية أحبابه؛ إذ لا سبيل إلى ما فوق ذلك، لبعد ما بين المطيف، والمطيف به، وهي الحيلة التي ربما قنع بها المحبون، ولا يكون ذلك إلا بالانشغال الشديد من قبل المحب (المطيف به) تجاه المحبوب (المطيف). يقول ابن حزم الأندلسي الظاهري في «طوق الحمامة» تحت عنوان «القنوع»:

(إنه لابد للمحب إذا حُرم الوصل، من القنوع بما يجد).

وعن الطيف يقول ابن حزم شعرًا:

زار الخيال فتى طالت صبابته ... على احتفاظ من الحراس والحفظة
فبت في ليلتي جذلان مبتهجًا ... ولذة الطيف تنسي لذة اليقظة

يذهل الطيف أصحابه إذن عن النزعة المادية (اليقظة) ليكونوا روحانيين عذريين، وأظن ذلك لا يكون إلا لنفوس متأملة مفكرة، قليلة الكلام، ذاهلة عن دنيا الناس، متطلعة إلى عالم راق طاهر عف نقي تقي.

إن هذه العفة والتقوى نراها واضحة جدًا عند الأربعة، ومن دلائلها عند «محمد قطب» قوله عن محبوبته في «بين السماء والأرض»:

(تلك الصورة الفاتنة حرم مقدس لا تصل إليه غرائز الأرض ولا تستطيع أن تعيش في عالم الأجساد).

إن أحلام الأطياف جميعها تأتي نقية عفيفة، هكذا يريدها الأربعة، يقول «محمد»: (وأحسَّ بالنفور من التجربة يكاد يخنق أحاسيسه...

ثم حدث ما أفسده عليه نفسه وأمرَّ طعم الإحساس بين جنبيه.

رأى حلمًا يتصل بالجنس من قريب. ورآها فيه، ومع أنها لم تكن هي المقصودة بالحلم، إلا أنه ثار وغضب من نفسه غضبًا شديدًا، لمجرد اقترانها بهذا الحلم، وعَدَّ ذلك جُرمًا لا يعتذر عنه ولا يتسامح فيه.

لقد كان يفخر في نفسه بأنه لم يرها قط في حلم كهذا منذ أحبها حتى اليوم وكان يرى هذا من معجزات هذا الحب المجيد الصاعد في السماء).

الأطياف الأربعة.. توافق واختلاف

والأطياف الأربعة تجمعها متشابهات وتفرقها اختلافات، وذلك لطبيعتها المتفردة؛ إذ هي إبداع أسري لواحدة من عائلات مصر المجاهدة الأدبية التي انشغلت بالإصلاح والفكر بصيغة إسلامية راشدة مستنيرة، وخلفية محافظة جادة وحالمة في آن واحد.

فلئن كانت الأطياف تجمعهم كما يقول «سيد» في التقديم (تعريف)

(إخوة في الدم، إخوة في الشعور

كلهم أصدقاء، وذلك هو الرباط الأقوى

إنهم يقطعون الحياة كأنهم فيها أطياف

هم أنفسهم، كل ما يملكون في الكون العريض!)

فإنهم يفترقون فيها لاختلافات بدا «سيد» خبيرًا بها، التمس حقيقتها على الطريقة العَقَّادية في التحليل النفسي لمن درسهم من الشعراء والمبدعين والقادة، فوقع «سيد» على المفتاح الخاص بكل واحد منهم، يُعرِّف بالأربعة: الصبية الناشئة «حميدة»، والفتاة الهادئة «أمينة»، ثم الفتى الحائر «محمد»، وأخيرًا معرفًا بالشاب الشارد «سيد» يقول: (أحد هذه الأطياف: تلك الصبية الناشئة، إنها موفورة الحس أبدًا،

متفزِّعة من شبح مجهول

إنها تعبد الحياة وتخشاها

إنها تتلفت في ذعر كلما تفرَّست في المجهول

أحد هذه الأطياف تلك الفتاة الهادئة

إنها سارية في الماضي، لا تكاد منه تعود.

وأحد هذه الأطياف، ذلك الفتى الحائر
إنه دائم التجول في نفسه ومنحنياتها .
يفتش فيها ويتأملها، ولا يسأم التأمل والتفتيش
إنه يحلم في اليقظة، ويستيقظ في الأحلام!!
وأحد هذه الأطياف ذلك الشاب الشارد
إنه عاشق المُحال.
إنه يطلب ما لا يجد، ويسأم من كل ما ينال
وإنه بعد ذلك كله – للوالد والأخ والصديق لأولئك الأطياف أولئك هم الأطياف الأربعة).

هذه الفروق الوجدانية ألقت بظلالها على الأطياف، أو هي مظهر الخلاف بين الأطياف، لقد جاءت الأطياف الإبداعية متسمة بالاتساق والانسجام، ومتصفة بالتميز والتفرد في آن معًا، ففي نصوصها من التشابه والممايزة مثل ما بين الإخوة الأشقاء من توافق كبير واختلاف يسير.

حميدة.. الطيف المغترب

أما «حميدة» صغراهم التي أكبروها بتقديم نصوصها على إخوتها فتحتل فاتحة الأطياف، فتبدو في نصوصها الثلاثة عشر، مسافرة في الماضي وإلى المستقبل بسموها ورقتها وحاليتها، تحيا مغتربة عن دنياها، ثائرة،مشغولة بالموت؛ إذ عرفته حائلاً مانعًا بينها وبين من أحبت (أمها)، كما تبدو مشغولة بأفاعيل الأيام في الإنسان، وبفكرة الفناء كما في قصتها (غرور)، وفي قصتها (غربة) حديث عن شيء من الحرمان المعنوي والاغتراب والخوف والقلق، تقول:

(ولأول مرة أحست نفسي الصغيرة الغربة إحساسًا ساذجًا قويًا وانفجرت أبكي من جديد.

وخيل إليَّ أن أبقى هناك، ولكن الظلمة كانت قد بدأت تخيم على المكان،

فتزيد وحشته نفسي الموحشة خوفًا وذعرًا، وانتفض جسمي وخُيِّل إليَّ أن مئات من الأشباح تخرج إليّ من الأركان المنزوية التي غشَّاها الظلام، ومن بعض الغرف المظلمة المتناثرة على السطح والتي كنت أخافها حتى في النهار)

هذه المشاعر التي تنتاب «حميدة» تجعلها لا تطمئن إلى مكان، وكأنها تريد أن تنداح في الوجود الواسع الفسيح لتكشف المجهول أو تهتدي إلى المستور المطمور!!

ويبدو الأمل محورًا رئيسيًا في «عبادة الحياة» وفيها تقول:

(أيها القلب النائم اصحُ فإن الأمل يدعوك)

وتختتمها فتقول:

(وحينما تصحو الحياة كلها تهفو لأمل جديد

يكون ذلك الإنسان جثة هامدة بين التراب

إنه لا يعلم أبدًا أن الحياة ترقص وتهفو وتحنّ

وأن الربيع أعطى سحره لكل شيء في كرم وسخاء

وأن الكون المتعب يحلم بالحب والأمل والسلام)

وفي نصها «في الليل» تبدو حميدة متناغمة مع الكون كله، تحكي عن عناصره حكاية العاشق المستهام المحب لكل ما فيه، ولكل ما يصدر عنه، فتقول:

(إذ هدأ الليل، وغفا الناس، ونام الكون بين ذراعي ذلك الرب الرحيم، الليل كطفل بريء لا تدرس نفسه الصغيرة البريئة ما في الدنيا من قذارات، وكأن الليل يضم ذراعيه الحنونين على طفله الحبيب ليحميه وليشعره بالأمن والسلام، وبدت نسمات الربيع الزاهية الساحرة وكأنها تراتيل النوم للوليد الطاهر ينفثها من مزماره السحري ليبعث بها النوم إلى أجفانه المغمضة.. وظهر القمر ذلك المصباح الخالد الذي يترك أضواءه تنساب في الدنيا وكأنها لحن ساحر من موسيقى خالدة).

وذلك هو عين ما نجده في مفتتح «في ضوء القمر» إذ تقول:

(أيها الجو الحالم البديع، شكرًا لك؛ إن هذه السعة العجيبة التي لا تستطيع أن تحدها النفس لتغريني بأن ألقي إليك بنفسي جميعها وكل ما فيها من هموم).

أمينة.. لغة الحنين

وتحكي «أمينة» عن أزمة سن الأربعين للمرأة.. وتبدو هي الأخرى راحلة إلى الماضي، كما في «رحلة إلى الماضي» وإلى ذكريات الطفولة كاشفة عن فعل الزمن، كما في «خريف وربيع»، تعني خريف الأم التي هي على الراجح أمينة، وربيع الفتاة التي هي ابنتها، وفي «رسول الفناء» يبدو حنين أمينة إلى بيت العائلة الكبير عظيمًا، أما حرمان أهل الريف وبخاصة في الصعيد.. فيبدو ماثلاً وبقوة تستدرُّ دموع العين وأنين القلب كما في قصتها الرومانسية البائسة (ثياب العيد)، وهي القصة الوحيدة بالمجموعة التي تبدو غيرية لا ذاتية، تحكي عن أسرة أخرى فيما نفهم من أحداثها؛ إذ تبدو فيها الشخصية الرئيسية ابنة وحيدة لأسرة يكفلها الوالد «عبد التواب» الفلاح الأجير لدى الإقطاعي البخيل، ولها إخوة ذكور ثلاثة..

تبدأ «أمينة» قصتها بلغة شعرية رومانسية تحكي بؤس الأب الفلاح الذي يدهمه المرض، ويسحقه الفقر، وينهبه صاحب الأرض، فتقول:

(عندما مالت الشمس نحو المغيب، وأرسلت أشعتها الباهتة المتراقصة، رفع «عبد التواب» رأسه وهو يلهث، ثم انتصب قليلاً ووقف ليستريح مستندًا إلى فأسه، وأسبل عينيه لحظة في إعياء، وقد بدا على وجهه ذلك الاصفرار القاتم الذي يلازمه منذ أن نجا من مرضه الخطير، ولم يستطع أن يأخذ قسطًا من الراحة، وعاد إلى عمله المرهِق الذي يتقاضى عنه أجره الضئيل، وبعد أن بقى ما يقرب من أسبوعين وهو يستدين ثمن قوته وقوت أطفاله من زملائه ومعارفه طوال مدة المرض).

وتبدو عقدة القصة في رمزيتها دالة على طبقية بغيضة ألقت بكلكلها

الثقيل على نفوس عموم الشعب المصري إبّان الملكية، أما «عبد التوب» فحائر يتمزق من ضآلة ما يتعاطاه، وضخامة ما تتطلبه كفالة أسرة ذات أطفال أربعة يترقبون العيد لأجل ثياب جديدة.. لطالما وعدهم بها الأب البائس. تقول «أمينة»:

(وإنه لحائر.. لا يدري بماذا سيجيب دائنيه، وبماذا سيجيب أطفاله بعد أن وعدهم كثيرًا بشتى الوعود. لقد أصبح يرهب العودة إلى البيت، ويخاف أطفاله كما يخاف دائنيه. فهو لن يستطيع أن يوفّي لهم بما وعدهم من ثياب جديدة، وهو في هذه الحال من الضيق).

إن صدق «أمينة» في هذه القصة تعبيرًا عن هموم الفلاح المصري من خلال طفولة أبنائه البائسين – ليستدر بحق دمعات الصادقين.. تقول بعد فشل مسعى الأخت الكبرى في تحصيل ثياب جديدة لأخواتها من زوجة البك الإقطاعي:

(ولكنها تمالكت نفسها، وانسلت من وسط الجميع، وأمسكت بيد أصغر أشقائها وتبعها الآخران وراح ثلاثتهم يتساءلون في ضيق ولهفة عما سيفعلون بعد أن لم تعطهم زوجة البك نقودًا ليشتروا بها ثياب العيد؟ ولم تستطع أن تجيبهم على أسئلتهم بغير كلمات قصيرة لم تُهدِّئ من ثورتهم ويأسهم، ثم حولت وجهها بعيدًا عنهم ومسحت بطرف كمها بعض قطرات الدموع).

اما قصة «أختان» فتبدو متناغمة مع نهاية سابقتها؛ إذ تبدأ هكذا:

(لم تكد تمر بضعة أيام من رمضان حتى راحتا تستعدان لاستقبال العيد بكل ما في نفسيهما المتفتحتين من أمل واستبشار، فقد اشترى لهما والدهما ثياب العيد الجديدة الزاهية مع إخوتهما الصغار)

وهي في رأيي القصة الأروع والأصدق، تحكي عن أختين متوافقتين مترافقتين (هكذا هما في كل شيء وفي كل عمل من الأعمال خارج الدار أو داخلها، فهما أختان في الأعمال التي تقومان بها، مثلما هما أختان في اللحم والدم)

فرّق الموت بينهما باختطاف الصغيرة قبل عيد أعدا له معًا كل ما يلزم من ثياب جديدة وآمال عريضة، وتخطيط لقضاء يوم سعيد، فإذا بالوحدة تصطحب الكبرى في العيد، ويلف الحزن كامل الأسرة!

محمد.. فيلسوف الأطياف

أما الطيف الثالث «محمد قطب» فتشغله في نصوصه الأربعة قضايا العلم والحب والفن، ويتَّشِح أسلوبه بكثير من ملامح الفلسفة والتأمل العميق، بحيث بدا ولأول وهلة أسلوبه مختلفًا عن أختيه، وهو في حديثه عن الطفولة التي يراها المرحلة التي تشكلت فيها معالم شخصيته يبدأ طيفه الأول (من ذكريات الطفولة) بالحديث الهائم عن تلك الذكريات فيقول:

(ما أعذب أيام الطفولة!

لعلها أعذب أيام الحياة جميعًا، فما يزال الإنسان يعود إليها بالحنين وبالذكرى كلما مضى به العمر، فيجد في العودة إليها متعة عذبة، ويحس وهو يتسمَّع لهمسات الماضي ويتفرس في صوره الباهتة الغامضة أن هذا أعز ما عنده وأغلى ما يضم جوانحه عليه).

وإذا كان أسلوب الأختين قد صبغته روح حياء وحالمية تناسب جدًا المؤمنات الخَفِرات، فإن أسلوب «محمد» يبدو كأسلوب الفرسان النبلاء القادرين على التحدي ممن يمتلكون جسارة المواجهة والرغبة في الاكتشاف.. يحكي عن عبوره القنطرة التي تربط بين سطحي بيت العائلة الكبير واقتحامه المندرة المظلمة به، كاشفًا عن نفس جبلت على الإقدام والجسارة فيقول:

(ولكن الشوق المتأجج ظل يدفعه مرة حتى اعتلى القنطرة وسار عليها كالقط بيديه ورجليه، حتى وصل سالمًا إلى الضفة الأخرى، وقد كبر في عين نفسه بهذه المخاطرة عدة درجات!

وكان في أسفل المنزل مندرة.. مخيفة.. حيث لا يستطيع الواقف أن

يرى شيئًا مما حوله، ولكن الطفل العنيد دخلها مرة متحديًا، ولبث فيها بضع لحظات يغالب الخوف ويرتعش منه بدنه فلا يصرح به، وخرج بعد ذلك يعلن منتصرًا أنه لا يخاف من الظلام!

وكسب هذه المعركة، وشهد له الشهود).

وفي طيفه الأول كذلك يمكّننا «محمد» من الإمساك ببعض مفاتيح شخصيته، في مواضع تبدو قطعة من سيرة ذاتية تستبطن أغوار النفس، وتقرأ الوضع الحاضر في ضوء بذور أطياف الماضي، ومن ذلك إشارته إلى أمنيته صغيرًا أن يكون مهندسًا كهربائيًا، وكيف آلت رغبته هذه في تحليل الآلات إلى تحليل الشعورات فيقول:

(وكانت كل أمنيته في الحياة أن يصبح مهندسًا كهربائيًا حتى يغرق في هذه الآلات، ويطفئ شوقه الذي لا يرتوي، فلما امتنعت عليه هذه الرغبة تحولت طاقة التحليل الكامنة في دمائه إلى تحليل الأنفس والشعورات وأغرق في ذلك ليعوض بعض ما فاته من تحليل الآلات والكهرباء، وهي الطاقة ذاتها في الحالتين).

والعلم عند «محمد قطب» في طيفة الأول ليس علم الغربيين الماديين الذين يهملون الغيب في التعرف على الحقيقة، لكنه علم مشفوع بالإيمان يتحقق به لصاحبه توازن الفطرة السوية، إذ (كان في نفسه إلى جانب هذا الشغف العنيف بالآلات وعالمها الملموس إيمان ساذج بالقوى الخفية التي تستطيع أن تغير ما تراه الحواس..

ذانك تياران قويان في نفسه يفترقان حينًا ويلتقيان حينًا، ولكنهما موجودان على بعد ما بينهما في الأصل والاتجاه.

فأحدهما إيمان بالواقع المحسوس، وانكباب عليه كأنه بناء الحياة الأوحد الذي ليس وراءه شيء.

والآخر إيمان بما وراء الحياة من قوى خفية، وهي أعظم أثرًا من ذلك المحسوس كله، وإن كانت لا تبين. إيمان بالعلم وإيمان بالخيال.

ومن هنا كانت فيه عقلية عالم دقيق البحث يؤمن بالمنطق ويحكمه في كثير من أفكاره وكانت فيه نفس شاعر، وروح متدين، وانطلاق روحاني لا يؤمن بالحدود والقيود).

أما في (في الامتحان) فقضيته الأولى هي الحب، ولكنه حب الأتقياء من المبدعين، ليس فيه ما يشين. يحكي عن حبه فيقول:

(مضى الترام وبقيت هي.. هي الجميلة الفاتنة.

وهو ليس أحد سواهما على الرصيف.

دعتها تابعتها إلى الركوب، فهمت وتحركت إلى الترام، ثم نظرت إليه فإذا هو واقف لا تبدو عليه نية الركوب، فرجعت وقالت لتابعتها: «روحي أنتي أنا هستنى»!

في قلبه خفوق سريع عنيف، والدم يسري في أوصاله متدفقًا سريعًا، ولا يكاد يضبط أنفاسه، على فمه ابتسامة، وفي عينيه حب.. حب صارخ وصريح).

ثمة ملمح آخر مهم يتمثل في أن الروح العلمية الاستدلالية الغالبة على «محمد» لازمته حتى في حديثه عن الحب، فإذا هو يتساءل ويستدرك ثم يستنتج فإذا هي.. تحبه، يقول:

(لماذا نظرت إليه حين لقيته؟ ولماذا مشت يسار تابعتها، فصارت إلى ناحيته؟ ولماذا لم تكتف بالنظرة الأولى؟ وماذا كان يحملها على اختلاس النظر إليه؟ وأخيرًا - وهو المهم - لماذا لم تركب مع تابعتها مع أنهما دائمًا تركبان معًا؟ ولماذا كانت نظرتها إليه قبل الركوب؟ ثم بقاؤها حين رأته لا يريد الركوب؟..

لأنها تحبه.. ذلك هو الجواب الوحيد!)

وتمتاز أطياف «محمد» عن أطياف إخوته بظهور الحوار كتقنية أسلوبية على نحو أوضح كثيرًا منه عند إخوته. وكذا تنصيصه للشعر عن العقاد في «هدية الكروان» وبحديثه عن أثر الزمن في الفن والفنانين. أما الحوار ففي طيفه الثاني:

(في الامتحان) يتحاور مع صديقه بشأن حبه لفتاة المترو على هذا النحو الممتد:

(قال له صديقه ذات ليلة من ليلات الصيف الحارة الثقيلة تعنو لها النفوس: أتعرف الفتاة ذات الوجه الإنجليزي الأحمر؟!

فخفق قلبه، وأنصت إلى الحديث، وقال يستعجل الصديق، وهو يخفي لهفته بجهد عظيم:

- نعم، أعرفها.. ما بالها؟

- قال: وتعرف فلانًا كذلك؟

- نعم، أعرفه.. ما باله؟

- لقد رأيتهما يسيران معا ويدخلان إلى السينما مصطحبين.

فدرأت نفسه ولم يعد يعي ما يقول.

ثم ضبط نفسه بجهد لم يلحظه زميله في ظلام الليل وسأل:

- متى كان ذلك؟

- أيام الامتحان!!

وذهل فما بقيت في نفسه ذرة واحدة متماسكة تواجه هذا الكلام العجيب!

أيام الامتحان؟!! أيام كان يلتقيان وتحدثه حديثها الفاتن. حديث الغرام؟ كيف؟ أهذا معقول؟).

وهو في طيفة الرابع «الزمن» يحكي عن فلسفة الزمن، وكيف أنه عدو الفنانين (لأنه يمثل التحول الدائم الذي يفضي إلى الفناء).. وينقل عن العقاد قوله من (هدية الكروان):

لحظة تمنح قلبي كل هاتيك الهبات
لحظة ترفع عمري حقبـــًا متـصـلات
لحظة لا بل خلود لاح بين اللحظات

«هدية الكروان ٦٥ وفيه بين البيتين ٢، ٣ بيت نصه:

رب عمر طال بالرفـــعة لا بالسنوات

ويبدو التأثير العقادي على «محمد» في باكر حياته ماثلاً، ربما متسربًا إليه من أخيه القطب.. «سيد»، رائد الأسرة ومرشدها الأدبي.

وعن علاقة الفنانين بالزمن يقول «محمد»:

(والفنانون قوم يصارعون الزمن؛ لأن فيهم هذا الشعور الأصيل في الحياة:

القوة المذخورة الدائبة في التكامل، وحين يعييهم الزمن في صراعه يتصورون لأنفسهم خلودًا لا زمن فيه، فيعيشون فيه لحظاتهم الفتية، ويكونون أقرب إلى ضمير الحياة.

تلك إحدى وسائل الصراع.

وهناك وسيلة أخرى هي ملء اللحظات القصار بألوان شتى من الأحاسيس، فتعوض ضخامةُ الإحساس قِصَرَ الزمن، ويشعر الإنسان في تلك اللحظات القليلة أنه عاش عمرًا كاملاً طويل الآماد) هذه الفكرة هي عين ما نجده عند «سيد» في «لحظة سعيدة».

سيد.. الطيف الشاعري

أما «سيد» فيكتب أطيافه بخلاف إخوته؛ فنصوصه هي الأكثر (١٨ نصًا) ومداه هو الأقصر، وذلك لأنه شاعر يكتب القصة، قبل أن يكون قصاصًا، فأسلوب «سيد» في الأطياف أسلوب شاعر وصَّاف لا قصّاص، ويتميز أسلوبه بالاكتناز والإيجاز، وقلما تجاوزت قصته/ الخاطرة، الصفحتين إلا نادرًا، كما في طيفه الأول «أماه» و«الزمن الساهر»، و«الفاكهة المحرمة»، وبعض أطيافه أسطر ستة فقط، كما في «الحلم الضائع»، «كتاب الحياة».

ومن عنوانات «سيد» تبدو شاعريته حاضرة من مثل: الفاكهة

المحرمة، في التيه، شيطان الحقيقة، الإله الطليق، الانسياب، الحلم الضائع. وهي عنوانات فيها غموض الشعر، وسحر أسلوبه، وقد بدت أطياف سيد كأنها الشعر المنثور - إن كان ثمة شعر منثور - وذلك في قوله في (الحلم الضائع):

(حينما كنت أحلم مغمض العينين، كنت أتسخط على أشواك تؤذيني في هذه الأحلام.

فلما استيقظت وتفتحت عيناي، رحت أتحسر على تلك الرؤى بكل ما فيها من آلام، عندئذ حاولت أن أغمض أجفاني مرة أخرى، وأن أستعيد الحلم الذاهب مع الكرى. هناك سمعت هاتفًا من الأعماق:

هيهات أيها الواهم هيهات

إنه حلم واحد في هذه الحياة!)

و«سيد» بخلاف إخوته يؤرخ لأكثر أطيافه بالنهاية، ومع ما يبدو في هذا التميز من شكلية، ربما لا يُعنى بها كثيرون فإنها دالة على اهتمام «سيد» بالزمن واحتشاده للإمساك به على عادة الفنانين، كما ذهب إلى ذلك «محمد» في طيفه الأخير، فيؤرخ «سيد» لطيفه الأول في (١٩٤٠/١٠/١٢م) أي قبل صدور الطبعة الأولى من الأطياف بخمس سنوات تقريبًا، ويؤرخ للطيف الثاني بعده بأسبوعين في (١٩٤٠/١٠/٢٦م) أما الطيف الأخير من تلك المعنونة (أماه) فيؤرخ له بـ(١٩٤١/١١/١م) أي بعد الأول بسنة وشهر بالتمام، وهي مسافة زمنية تكفي لتقرير الحضور الدائم لذكرى الأم الغالية.

وفي أطياف «سيد» حديث عن الفكر والفلسفة أو فلسفة الفكر، كما في «شيطان الحقيقة» يقول:

(إن قصارى ما تستطيع الحياة أن تهبنا إياه أن تبدي لنا الأشياء جميلة، فلماذا نُصِرُّ نحن على نبذ هذه النعمة بحجة البحث عن الحقيقة؟

ألا ويحَ هؤلاء الفنانين في العالم الأرضي المحدود! إن الشيطان قد نفس عليهم نعمة الوهم التي منحتهم إياها السماء فجعل يوسوس لهم باسم الحقيقة، ليخرجهم من هذا النعيم الجميل، وهم يحسبون أنفسهم الرابحين!)

ومثل ذلك في (جناية المعرفة) يقول:

(إن الشمس لتشرق اليوم، وإن القمر ليطلع، وإن الليل ليرخي سدوله، والملايين بعد الملايين لا يرتاع منهم أحد إلا الأفذاذ القليلين.

تلك جناية المعرفة، وثمرة التجربة!

لقد ظل الإنسان ينفعل وينفعل كلما طالعته الحياه بوجه جديد حتى جرب وجرب وجرب وحتى عرف وعرف.. وهنا فقط أعظم ما يناله الحي من الحياة: التأثر والانفعال).

وفي أطيافه أيضًا توحيد وإيمان يلقي بظلاله على نظرة «سيد» للكون، يقول في (الإله الطليق):

(وأسفاه إنك أيها النور كائن محدود!

وأسفاه! لقد تقصَّيت مظاهر الكون، وحصرت أملي فيك - أيها النور - لأنك أنت الوحيد من بينها الذي كنت تخيل لي أنك طليق!

ثم ماذا؟ ها أنت غير طليق!..

أيهذا الإله العظيم إنني أحبك! أحبك لأنك «غير المحدود» الوحيد في هذا الوجود. أحبك لأنك الأمل الوحيد، حين يضيق بالحدود!)

و«سيد» هنا أقرب إلى استدعاء أسوته من جده «إبراهيم» (عليه السلام) حين سلك إلى التعرف إلى الله في الكون مصادر النور الكبرى، الشمس والقمر والكواكب، وفي أطيافه حديث عن حبه لشعر الحالات النفسية. يقول في «الانسياب»:

(لقد أحببت شعر الحالات النفسية، وآمنت به فترة طويلة، ولقد كان عندي لونًا من ألوان المثل الأعلى للشعر الجديد).

وفي الأطياف كذلك حديث لـ«سيد» عن الحب بما يشير إلى تضحيات قدمها «سيد» رعاية لإخوته «لقد أحب.. لكن لم تسمح له أحداث الحياة بالزواج»

فعاش مترهبًا لفكرته، مؤثرًا على نفسه إخوته، ودعوته ورسالته التي آمن بها واقتنع بجدواها وبذل عمره في سبيلها. يشير «سيد» إلى محبوبته على نهج العذريين، إذ ينظرون إلى المرأة كقيمة لا كجسد، فيقول مشوقًا إلى «الفاكهة المحرمة» وهو عنوان له دلالاته على الرغبة وضبط النفس في آن:

(من هذه التي أتشهاها وهي مني قريبة، وأتمناها وهي على قيد خطوة، وأحلم بها وهي على مرأى ومسمع، وأدنو منها فلا أقترب، وأملأ منها يدي، فإذا يداي منها فارغتان؟

إنها الفاكهة المحرمة!

من هذه التي تلوح كالسراب، تظمئ الحس وتروي الخيال، وتطمع النفس ونيلها مُحال، وتتراءى قريبة مني أبدًا.. بعيدة عني أبدًا، كأنها خارجة من قيود الزمان والمكان؟).

وفي طيفه «الفتى المفقود» حديث ضاف عن علاقة الحب بالإبداع، فـ«سيد» لا يريد أحيانًا من الفتاة إلا أن تكون مصدر إلهام للإبداع، ومفجّر طاقات التعبير الشعري، وهو لا يأسى على شيء أساه على ضياع لحظة الإبداع.. يقول:

(لست أنت التي أريد يا فتاة..

إنما أريد ذلك الفتى... الذي كان الدم يطفر في شرايينه. والبهجة ترقص في خاطره.. نعم أريد ذلك الفتى المغمض العينين الذي كان يراك بخياله حورية ساحرة، فإذا فتحهما مرّة فرآك إنسانة عابرة، عاد فأغمض عينيه فاستطاع أن يلقاك في الفردوس المسحور.

أريد الفتى الذي أفتقده في نفسي فلا ألقاه.

وعليه آسى كل الأسى لا عليك أنت يا فتاة!)

الحب عند «سيد» يعني الإبداع، قبل أن يعني شيئًا آخر، فهو ليس كالناس، أو قل: هؤلاء الأربعة ليسوا كالناس، إنما متسامون متعالون عن نوازع الأرض ونداءات الشهوانية إلى آفاق الروح ومحاريب الإبداع النقي.

وفي أطياف «سيد» ما يقرر ارتقاء أسلوبه عن إخوته إلى آفاق الإبداع الشعري القابض على لحظة الإبداع المتفردة التي يُمسك فيها المبدع بتلابيب حدث عارض عادي أو يومي، ولا يأبه له الآخرون، ولا يلتفتون إليه، أما الشعراء ممن يُحيون شعر الحالات النفسية فيدهشون لهذه الأحداث، وكأنهم يوقفون الزمن.. لالتقاط كافة تفاصيل الحالة.. من ذلك احتشاد «سيد» لتصوير حالته النفسية التي عاشها عندما فتح نافذة حجرته لتدخل الشمس إليها بعد وعكة ألمت به.. يقول في «لحظة سعيدة»:

(كم في هذه الدنيا من أشياء جميلة، نفقدها كل يوم؛ لأننا لا نلقي إليها انتباهنا في اللحظة المناسبة. بالأمس كنت في حجرتي منفردًا. كانت أبوابها مغلقة عليَّ؛ لأنني في أعقاب توعك زال. وفجأة نظرت إلى النافذة المغلقة، فرأيت الشمس من ورائها توصوص لي بأشعتها.

لقد أحسست إحساسًا - غير متوهم - أنها تستأذن عليَّ في لهفة، أنها تود لو أسمح لها بالدخول. كانت كالصبية الغريرة في مطلع الربيع!

وما كدت أفتح لها النافذة حتى أشرق محياها الوضيء بابتسامة عريضة، وراحت تلقي بنفسها في فرح وشوق على أرضية الحجرة المتواضعة. كانت كأنها ملكة تتخفف من التقاليد!).

إن صفاء نفس المعتل بدنيًا.. ربما سُئلت عن هذه المشاعر الحالمة.. الروحانية الصافية، وربما كان التماس الإبداع من هذه الأحداث اليومية نزعة ديوانية، نلمسها عند جماعة الديوان بروادها الثلاثة شكري والعقاد والمازني.

الأطياف.. روح مشتركة وأربعة أقلام

أما مظاهر التشابه والتآخي بين نصوص الأطياف، فإننا مع فارق النوع بين حديث الفتى والفتاة، وفارق الخبرة والموهبة بين حديث الصبية والشاب - إننا نشعر أن الأطياف لمؤلف واحد، تتابعت نصوصه عبر زمان امتدت مراحله، وأماكن تعددت نواحيها، ليس غير، فنصوص الأطياف يجمعها من محاور التلاقي والشبه أكثر مما يفرقها من مظاهر التخالف والتباين.

١- ذكريات مشتركة:

لقد اجتمع للأطياف الأربعة من وحدة الذكرى، وصفاء اليقين، وقوة المحبة، واتفاق الفكر، واتحاد التصورات، ومآسي الأحداث - ما وحد من طريقة التفكير وأسلوب التعبير.. فبدا إبداع أصحابها على اختلاف نوعه الأدبي، قصة كان أو ما يشبهها، خاطرة أو ما يشبهها، سيرة أو ما يشبهها - بدا لواحد لا لمتعدد، وبدت النصوص متعددة الألوان ضمن إطار الوحدة.

لقد جمعت ذكريات مشتركة الأطيافَ فألقت بظلالها على واقعهم.. وامتد تأثيرها في مستقبلهم، يقول «محمد» في (الزمن) عن الطفولة:

(الطفولة كلها حاضر قريب، وآمال واسعة تغمر الزمن المقبل وتفيض عليه فلا يبين). وهم جميعًا لا ينفكون يتحدثون عن طفولتهم كأثر من آثار الحديث عن الأم الحبيبة، في حديث ملؤه التقدير والإكبار والإجلال؛ فالأم عندهم هي حاضنة الطفولة وراعيتها الرسمية. يقول «سيد» في «أماه» الأولى وفي أسى بالغ لفقد أمه، خيط العقد الذي كان يجمع حياته هو وإخوته، فلما ماتت انفرط عقدهم وصاروا شتيتًا:

(لقد شعرت اليوم فقط بثقل العبء، وعلمت أنني لم أكن أنهض به وحدي، وأنني كنت أرعاهم وأرعاك؛ لأنني قوي بك، أما اليوم فالعبء فادح، والحمل ثقيل، وأنا وحدي ضعيف هزيل!

إن الشوط لطويل وإني لوحدي في الطريق، وأخي وحده كذلك، وأختاي وحدهما أيضًا، وإن كنا نقطعه جميعًا).

لقد نزل موت الأم بالأطياف كالصاعقة التي لا تهدأ، فأعقب في أرواحهم الكثير من اللهفة والحنين.. وربما الجنون، كما تقول «أمينة» في «رحلة إلى الماضي»:

(لون من الجنون أو من اللهفة أو من الحنين، سيطر على حياتها ونفسها منذ أن فارقت والدتها الحياة).

إن موتها ليمنعهم من مجرد التردد على أماكن جمعتهم بالأم، فلا يقوى أحدهم على الذهاب إلى القرية أو بيت العائلة أو متنزههم بالقناطر الخيرية.. فها هي «أمينة» تقول في «رسول الفناء»:

(كلهم قد ذهبوا إلى القرية قبل عام واحد، أما هي فلم تذهب منذ سنوات وتحس أنها لن تقوى على الذهاب أبدًا، فقد ذهبت إليها قبل أن ترحل والدتها إلى العالم الآخر.. أما الآن.. فإنها تحس أنها لن تقوى على العودة إلى بيتهم مرة أخرى وهو خالٍ من هذا الوجه المحبوب).

وها هو «سيد» مجددًا لا يقوى على احتمال فراق الأم.. فيتخيلها مازالت بينهم.. يقول في «أماه» الرابعة:

(ولقد فتحت حجرتك وتطلعت إلى سريرك مترقبًا أن أسمع صوتك أو أرى وجهك.. إنني لم أوقن بعد بأن حجرتك خاوية، وستمضي الشهور والسنون، قبل أن تلهمني هذا اليقين:

وكيف وكُلُّ ذرة في حياتنا ممتلئة بوجودك. وكل ذكرى تطل على الماضي، أو أمنية يجنها المستقبل، عليها منك ميسم، وفيها منك معلم؟ وهل تطيق يد الموت العاتية أو عجلة الزمان الطاحنة أن تطمس الماضي والحاضر والمستقبل كله في آن؟).

بيت العائلة الكبير كان كذلك من ذكريات الأطياف المشتركة، تقول «أمينة» في «رسول الفداء»:

(وعلمت فيما سمعت من أخبار القرية أن منزل العائلة الكبير الذي بيع وهي ما تزال طفلة في الثانية والنصف من عمرها إلى أحد أقباط القرية، قد تهدّم جانب كبير منه بعد أن مات صاحبه، أهمله ورثته من بعده.. وأحست بهزة في نفسها لهذا الخبر).

أما «سيد» فإنه يتحاشى زيارة البيت بعد موت الأم، حتى لا يتركها فيه وحدها إذا هموا بالرجوع!! يقول في نهاية «أماه» الثالثة:

(إنه ليخيل إلى لو نزحنا عن هذه الدار أننا سنخلفك هناك. ومنذا يطيق منا يا أماه أن ينزح ويخلفك هناك؟)

وفي «من ذكريات الطفولة» لـ«محمد» ما يؤكد أن الأطياف هي بعض سيرة ذاتية جمعية لأسرة مصرية عاشت للإسلام وأبدعت الأدب؛ إذ يتوافق ما قضته «أمينة» بالبيت «سنتان ونصف» مع ما قضاه «محمد» إذ يقول:

(وقد بقى في هذا المنزل من سن الثالثة إلى ما بعد السادسة بشهور قليلة حين جاء إلى القاهرة؟ فهو يذكره جيدًا ويذكر كل شيء فيه، وهناك بين جدران هذا المنزل كل ذكرياته اليقظة عن حياته في القرية، وهي قليلة في المدى المحسوس، ولكن لعل لها في نفسه أثرًا لا يمحى، أثرًا غير محسوس في اليقظة، وهو عميق في اللاشعور).

المكان إذن له حضوره في الأطياف، وبخاصة بيت العائلة الكبير، ومزارات الأسرة وكذا الريف الذي يرتاح إليه الجميع، لذكرياتهم المشتركة فيه، ولجمال طبيعته، ولذا تذكره «حميدة» في «غربة»، وتذكره «أمينة» في «رحلة إلى الماضي» و«ثياب العيد»، ويذكره «محمد» في «من ذكريات الطفولة».

أما الموت، وربما لفاجعة موت الأب المفاجئ، ولموت الأم بالأساس، فتشيع في الأطياف رائحته، ويبدو وحشًا مخيفًا يختطف الأحباب، ويفرق الجموع المتآلفة. تعلق «حميدة» على موت الأب في (غربة) فتقول:

(إن والدي الذي أحبه وألقي بنفسي بين ذراعيه فيربت عليّ في حنان عميق.. قد مات!!

لم أكن أدري ما الموت؟ ولم أكن رأيت ميتًا قط، ولكني كنت أحس في أعماقي أن الموت شيء هائل مفزع مخيف. واستمررت أبكي ويعلو نشيجي حتى تختنق أنفاسي ولا أقوى على البكاء، فأصمت برهة لأعود إليه من جديد).

وتعبر «أمينة» عن موت الأخت بلسع العقرب، فتقول في (أختان):

(وعندما تراهم يحملون نعش شقيقتها الحبيبة تتشبث به وهي تسألها:

ماذا ستفعل وكيف ستنام في الظلام الذي خافته، وارتعدت منه منذ أيام؟ فلا تجيبها بشيء بل تمضي إلى مقرها المظلم وهي من خلفها تردد النداء..).

تشعر «أمينة» بقسوة الموت وتضاؤل الجميع أمامه، وحتميته على الأحياء، وكيف يخلف وراءه ندوبًا بالوجدان، أو صفاء بالأرواح، لكنه مؤلم مؤلم؛ إذ لا سبيل إلى صده أو مقاومته أو مساومته!!

٢- العفة:

والعفة قاسم مشترك بين الأطياف، جميعهم عفيف: صغراهم والأكبر، كبراهم والأصغر.. أما «حميدة» فتلمس مشاعرها في حياء العذراء الخجول، فتقول في «غربة» ما يشبه مشاعر المراهقة:

(ثم تنبهت من غفلتي فإذا أنا فتاة متيقظة منتبهة لكل همسة تدور في نفسي، ولكل إحساس يتراءى من بعيد.

وحينما كانت يد الزمن الساحرة تنضج بلهيبها الحار كل شيء في كياني وتنميه، كان أيضًا ذلك الشعور ينضج وينمو ويبرز من مكمنه قليلاً، ولكن حياة البيت الهادئة الرتيبة حيث أعيش مع والدتي وإخوتي، هؤلاء الذين تعرفهم نفسي وتألفهم وتأنس بهم، استطاعت أن ترد ذلك

الإحساس إلى مكمنه حيث يقبع في الظلام فلا أراه).

وأما «أمينة» فتحكي عن حياء امرأة الأربعين !! بما يقرر عفة الأسرة على كل حال حين تأجج المشاعر وفوران العاطفة، وحين نضجها واستقرارها.. هي امرأة لا ترى من المروءة إحسان هندامها أو زينتها خارج منزلها بالنظر إلى المرآة، تقول في «المنوال المسحور»:

(ولقد اعتادت منذ زمن بعيد أن تذهب إلى المرآة عقب مجيئها من الخارج مباشرة لترى وجهها، وكيف كان في أثناء الطريق، إذ كانت تستنكف أن تُخرج المرآة من حقيبتها وتنظر فيها وهي جالسة في الترام أو في أثناء المسير).

و«محمد» هو أكثر الأطياف حديثًا عن هذه العفة، ومن ذلك ما ورد كثيرًا في «بين السماء والأرض» ومنها قوله:

(كل ما كان يحس به: هو أنه يحب حبيبته حبًا طاهرًا عفيفًا ساميًا، كما كان يكتب لها في مذكراته، وكان يحس بالزهو، لأنه يستطيع أن يحب مثل هذا الحب العظيم الذي لا تدنسه الأكدار).

٣- الرومانسية:

ويجمع الأطياف رباط آخر مهم جدًا تسري ظلاله بطول الأطياف وعرضها وعمقها: ذلك ما يمكن أن يرد إلى الملامح الرومانسية كمذهب أدبي وافد استنبت لنفسه أرضية بالأدب العربي أوائل القرن الماضي، فتشيعت له جماعات أدبيه وأدباء، ومن معالم هذه الرومانسية بالأطياف تلمح الاتجاه إلى القلب والانشغال بالعواطف والمشاعر والأحاسيس، والقلق، والتعلق بالجمال في بعديه البشري والطبيعي، والتغني بالحب، والحديث عن المحب البائس اليائس، وكذا الترفع عن الغرائز المادية، والحديث عن وحدة الوجود والارتكان إلى الطبيعة والهروب إليها، وبخاصة الجبال والاندهاش لليالي المظلمة والأطلال المتهدمة البائدة كما هي الحال في نظرتهم إلى البيت الكبير.

وتغلب الكآبة ومشاعر الحزن والتشاؤم على الأدب الرومانسي وهو ما نجد ظلاله وارفة بالأطياف التي يعمرها شيء من الانفصام عن المجتمع، وكذا دنو شبح الموت، أما لغتهم فمن رومانسيتها جاءت غير متعالية على المتلقي؛ إذ هي أحاديث وأرواح وخطرات نفوس قبل أن تكون، فيما عدا ما كتبه «سيد»، ومضات فكر أو إشعاعات عقل.

الاغتراب والقلق والرومانسية

ويكفي للحديث عن الملامح الرومانسية بالأطياف التوقف حيال ملمحي الاغتراب والقلق؛ إذ بدت نفوس الأطياف قلقة لا تستقر على حال، مستنفرة لا تطمئن إلا حالما تقلق، هي نفوس حساسة شفافة، يبدو قلقها كأنه المرض، وما ذلك بحق، إنما هي نفوس رقيقة عاشت أجواء عاصفة.. في تقديم «سيد» الأطياف، يناجي أمه كاشفًا عن قلق يسودهم جميعًا فيقول:

(لقد مضينا في ذلك الكون العريض..
نباتات ضالة ليس لها جذور
وأطيافًا هائمة ليس لها قرار
ما تكاد أقدامنا تلمس الأرض
حتى تتطلع بلهفة إلى السماء
حتى نتشوق إلى الأرض من جديد
وهذه أصداء حياتنا يا أماه).

وتقول «حميدة» في مفتتح «إلى المجهول»:

(دائمًا وفي كل لحظة في النهار أو الليل
حينما تنطبق شفتاها عن الكلام
حينما تضمها الوحدة في مكان
تحس في الأعماق شيئًا من القلق والاضطراب)

إنها نفوس طلعة إلى آفاق سامية تستشرف فيها نبلاً وسموًا وتعاليًا على تفاهات الأمور، وكأنهم يهتف بهم هاتف من غيب أن تعالوا من المجيء والعلو!

هذا القلق نلقاه عند «أمينة» في رحلتها إلى القناطر بعد موت الأم، إذ تقول في «رحلة إلى الماضي»:

(وراح القطار ينهب بهم الأرض نهبًا وراحت تنظر إلى الحقول والقرى ونسيت نفسها بين ما يمر أمامها من مناظر سريعة متلاحقة، غير أنها عندما اقترب القطار من محطة البلدة، تنبهت فجأة وتنبه إحساسها، وودت لو يعود بها القطار إلى القاهرة من جديد)

والاغتراب يبدو في الأطياف مظهرًا من مظاهر القلق.. لكنه قلق الريفي بأخلاقه الفطرية النبيلة ساقته الأقدار إلى المدنية.. أو هو قلق اليتيم فارقته أمه الحنون الحبيبة، أو قلق المتسامي في أجواء التهافت والتفاهة.. الاغتراب بالإحساس – الغربة عن دنيا الناس يلف الأطياف من مفتتحها وحتى منتهاها، فأول الأطياف عنوانه (غربة) وفيه تقول «حميدة»:

(آه يا صديقتي لو تدرين ماذا أثارت في نفسي هذه الكلمة الصغيرة، كالغريب، إنها أثارت أشياء كثيرة وجعلت نفسي ترتد إلى الوراء سنوات ،وتتخطى الزمان لتعيش صورًا حية من الماضي لم تكن تذكرها وهي مجروفة إلى الأمام في تيار الحياة السريع).

وتقول أيضًا:

(لأول مرة عرفت أنني لست من هذه المدينة الصاخبة الواسعة، وأن كل شيء فيها على نفسي غريب، وأنني سأظل غريبة فيها مهما عشت فيها من سنوات، وهناك في حنايا قلبي العميقة المتداخلة، حيث يقبع الماضي، حيث يقبع ماضي ذلك الماضي البعيد المتسرب في أغوار الزمن، ماضي الأباء والأجداد! هناك وجدت وطني الذي أحس فيه بالألفة لكل شيء ولكل إنسان).

أما «سيد» فيناجي أمه التي أحسَّ بالغربة المطلقة بعد موتها، فيقول في «أماه» الأولى:

(نحن اليوم غرباء يا أماه

لقد كنا وأنت معنا نستشعر في القاهرة معنى الغربة في بعض اللحظات، وكنا نشبه أنفسنا بالشجرة التي نقلت من تربتها والتي ينبغي لها أن تكثر فروعها لتتقي الاندثار في غربتها.

أما نحن اليوم فغرباء في الحياة كلها، نحن الأفرع القليلة ذَوَى أصلها بعد اغترابها من تربتها، وهيهات أن تثبت أغصان في التربة الغريبة.. بلا أم).

٤- الوفاء:

أما الوفاء فيبدو خلقًا أصيلاً متجذرًا بنفوس الأطياف، وفاء لذكرى الأم. ولقيم الريف المتسامحة، وللدين وقيمه، أما «سيد» فيراه الخالدي (رحمه الله تعالى في مقدمة أعلام المسلمين العلماء الرواد، لما اتصف به من صفات إيجابية، ولما قدمه من علم أصيل متين، ولما وقف به مواقف إيمانية رائعة، نابعة من إيمانه وصدقه وحديثه ووفائه) أعلام المسلمين دار القلم السورية، بعنوان سيد قطب.

وأما «أمينة» فتحاول جاهدة وفاء لذكرى أمها أن تلتمس ظلال أمها في أي مكان.. تقول في «رحلة إلى الماضي»:

(وراحت تفكر بعد مضي عامين على رحيل والدتها في أن تقوم برحلات إلى الماضي، وأن تذهب إلى كل مكان كانت قد ذهبت إليه من قبل، فستجد هناك تلك الظلال الحبيبة، فتجدد بها الذكرى كلما حاولت يد الزمن أن تنسج عليها خيوط النسيان).

وهو عين الوفاء الذي نلقاه عند «أمينة» لزوجها الشهيد «كمال السنانيري» وفيه تقول شعرًا في ديوانها «رسائل إلى شهيد»:

قلبت في صفحات عمرك علّني ألقى من الأخطاء ما ينسيني

إشراقة الوجه الحبيب على المدى منذ التقينا من عديد سنين
فتشت علَّ الذكريات تصدني عنها وتهجرني دموع أنيني
فبحثت في عهد الشباب فلم أجد عملاً معيبًا مخجلاً لجبين
عف اللسان وعن حديث هابط تنأى وتبعد مؤثرًا لسكون

وهؤلاء الأطياف يفون لأبسط الأشياء أو الموجودات، فهذا «محمد» يؤلمه أن يطال البلى خذاءه الصغير.. ويعتبره من ذكريات طفولته العزيزة، فيقول:

(وكان له حذاء أصفر «برقبة» كاملة.. كان عزيزًا لديه جدًا، ليس في طفولته أعز منه، فيما لبس وفيما شعر بملكيته، ويذكر حين كبر قليلاً أنه صعد على السطح مرة فوجد «فردة» منه قد عملت فيها الشمس فحملها ونفسه تتقطع عليها حسرات، وحاول أن يعيد مجدها السالف فلم يستطع أن يعيده، وتركها آسفًا لا حد لأسفه، والدموع تكاد تهبط من عينيه).

وما أظن ذلك الوفاء تأسس على حرمان أو بخل، بل على نبل أخلاق، وطيب نفس، لا تستهين بأتفه الأشياء طالما كانت لها به صلة، وهؤلاء لذلك هم أبعد الناس عن الغدر بالرفاق أو التخلي عن المبادئ والأفكار.

٥- براعة الوصف:

وفي الأطياف يبدو الأربعة وصَّافين على درجة عالية جدًا من البراعة في تصوير المشاهد بالاتكاء على الوصف.. التصويري، الذي لا يغادر ملمحًا وإن كان بسيطًا إلا وله ظل في التعبير بالوصف، يجسد المشهد.. ويقف بالقارئ على التصور الصحيح. وشيوع الوصف بالأطياف على هذا النحو، ربما تأسس على الغاية الدعوية التعليمية التي انْتَدَبَ الأطياف أنفسهم لها، وأوقفوا حياتهم عليها.. بلاغًا بليغًا.. وأدبًا رفيعًا، وهذا الملمح مشترك بين الأربعة، ومن ذلك: تخاطب «حميدة» الليل في «عظمة الليل» فتقول:

(أيها الليل الخالد، إن هذا الجو الناعس الذي أعيش فيه الآن، والذي يجذب نفسي ويدمجها فيه فلا أحس أنني شيء منفصل عنه، بل أنا جزء سابح فيه مع آلاف القرون.. هذا الجو وهذه الصفحة الهادئة قد كانا منذ آلاف القرون يسيران على هذا المنوال الساحر، يختفيان كل يوم مدة ليعودا بعد ساعات يضفيان على السماء والأرض ذلك الجو الفتي البديع).

وتقول «أمينة» في «رسول الفناء» عن العجوز ببيتهم المتهدم الذي باعوه:

(وتبينا بعد قليل ذلك الشيء الذي برز من كوة الجدار، إنها عجوز في نحو الثمانين من عمرها في هيئة رثة غريبة ترتدي جلبابًا أسود فضفاضًا وتعصب رأسها الناصع البياض بخرقة سوداء تبدو مخيفة فوق رأسها الأشعث الشعر ووجهها الغائر العينين، البارز الوجنتين، المملوء بالتجاعيد والكهوف التي تشير إلى سقوط الأسنان من تحتها، وإلى مكانها الخاوي المتداعي، وكانت تمسك بيدها الناحلة البارزة العروق عصًا غليظة خشنة، وقد انحنت عليها فبدا تقوّس ظهرها المنكمش الضامر).

أما «سيد» فيناجي أمه مناجاة الشعراء فيقول:

(وقد يفرح لي الكثيرون وقد يحبني الكثيرون: ولكن فرحك أنت فريد لأنه فرح الزارع الماهر يرى ثمرة غرسه وجهده، وحبك أنت عجيب؛ لأنه حب مزدوج: حبك لي وحب نفسك في نفسي.

أماه...

عندي لك أنباء كثيرة جدًا.. إنك ستسرين ببعضها، وتهتمين ببعضها، وهي مدخرة لك في نفسي يا أماه، ولن تدب فيها الحياة إلا حين أقصها على مسمعك. ولكن هيهات فسيدركها الفناء الأبدي، وستغدو إلى العالم المطلق؛ لأنك لن تنصتي إليها مرة أخرى؟).

خاتمة

وبعد.. فإن الأطياف نص أدبي إسلامي بديع، يغلب عليه الطابع القصصي، وفيه ما يتصل بأدب السيرة الذاتية وأدب الخاطرة، والأطياف أدب في مجمل حديثه عن الحب عذري رومانسي أصيل، والحق أن الأطياف لما تنل بعد حظها المستحق من التقدير والدراسة، ربما اتصل ذلك بواقع أدبي ابتعد عن الأدب الجاد الرصين في زمن غابر لـمَّا تنقشع بعد غيومه انقشاعًا كاملاً.

ومن منطلق رسالة مركز الإعلام العربي وإيمانه بأهمية دور الأدب الملتزم في الارتقاء بوعي الإنسان وروحه ومساعدته على التسامي بأخلاقه والاستعلاء على دنيويته.. يأتي اختيار «الأطياف الأربعة» كنموذج لإبداع يسعى المركز إلى إحيائه، وإزالة التعتيم عنه، وتوظيفه في مدافعة الأعمال التي ينسبها أصحابها إلى الأدب زورًا، وهو منها براء.. فالإبداع الحقيقي قيم راقية تحتضنها لغة أرقى.. لا إسفاف وسطحية يتسترون بحرية الإبداع التي كم ارتُكبت من جرائم باسمها في حق عقول وأخلاق وأذواق أبناء الأمة، وكم من الخطايا الأدبية تم الترويج لها بدعوى الحداثة..وهنا صار على كل مؤسسة ثقافية واجب إحياء الأدب الملتزم، واستنقاذه من التجاهل المتعمد، واختلال موازين النقد والتقييم التي لا تُعنى إلا بالغث والرخيص، وتهمل السمين والنفيس الذي تمثل «الأطياف الأربعة» نموذجًا متفردًا له.

والسلام على آل قطب في الغابرين، ورحمهم الرحمن الرحيم في الأولى والآخرة.

والحمد لله رب العالمين

تعريف

صبية وفتاة، وفتى وشاب..

أولئك هم الأطياف الأربعة!

إخوة في الدم، إخوة في الشعور

كلهم أصدقاء، وذلك هو الرباط الأقوى

إنهم يقطعون الحياة، كأنهم فيها أطياف

هم أنفسهم، كل ما يملكون في الكون العريض!

كل ما يربطهم بالكون أن يتطلعوا إليه هنيهة، ليردوه صورًا

في عالمهم المسحور..

إنهم أبدًا يحلمون.. وقد يتفزعون في الحلم ولكنهم إليه لا يعودون!

***

أحد هذه الأطياف تلك الصبية الناشئة

إنها موفورة الحس أبدًا، متفزعة من شبح مجهول.

إنها تعبد الحياة وتخشاها

إنها تتلفت في ذعر كلما تفرّست في المجهول.

وأحد هذه الأطياف.. تلك الفتاة الهادئة.

إنها سارية في الماضي، لا تكاد منه تعود.

إنها شاعرة، ثروتها من التصورات أجزل من ثروتها في التعبير.

إنها مستغرقة في حلم: بالمستقبل الذي لا تملكه، وبالماضي الذي لن يعود.

***

وأحد هذه الأطياف.. ذلك الفتى الحائر

إنه دائم التجول في دروب نفسه ومنحنياتها

يفتش فيها ويتأملها، ولا يسأم التأمل والتفتيش.

إنه يحلم في اليقظة، ويستيقظ في الأحلام!!

***

وأحد هذه الأطياف ذلك الشاب الشارد

إنه عاشق المُحَال!

إنه يطلب ما لا يجد، ويسأم من كل ما يُنال.

وإنه - بعد ذلك كله - لَلوالد والأخ والصديق لأولئك الأطياف.

***

أولئك هم الأطياف الأربعة.

وهذه خطراتهم في كتاب.

إنها عصارة من نفوسهم، وظلال من حياتهم.

إنها أطياف الأطياف!!!

الطيف الأول

حميدة قطب

قصة:

غربة

أختي الحبيبة سميحة

... وأخيرًا جدًا وصلتني رسالتك. لقد كان يجب أن تصل إليَّ قبل هذا بكثير.. كانت نفسي تنتظرها حتى قبل أن أبعث إليك برسالتي!

قرأت رسالتك مرات.. إن فراغ نفسي الكبير يطالبني بعنف أن أملأه فلا أجد لديَّ غير هذا الخطاب. إنني أكاد أراك الآن وأنت تضربين كفًا بكف، وتعيدين عليَّ هذا السؤال الذي كتبتِه في رسالتك، والذي أثار في نفسي أحاسيس كثيرة وذكريات.

تلومينني يا عزيزتي على هذا الفراغ، وتسألينني عن هذا الخجل الغريب الذي يجعلني أعيش هكذا دائمًا في نفسي بعيدة عن المجتمع وعن الناس؛ وكأنني أرهبهم وأخافهم، وتسألينني كيف يعيش من في مثل سني، حيث الصخب والضجيج والآمال الثائرة والحياة المتفتحة.. كيف يعيش هكذا كالغريب منزويًا عن الناس وعن الحياة؟

آهٍ يا صديقتي لو تدرين ماذا أثارت في نفسي هذه الكلمة الصغيرة، «كالغريب»، إنها أثارت أشياء كثرة، وجعلت نفسي ترتد إلى الوراء سنوات وتتخطى الزمان لتعيش صورًا حية من الماضي لم تكن تذكرها وهي مجروفة إلى الأمام في تيار الحياة السريع.

كنت في الخامسة من عمري حينما أرسلت إلينا الحياة بكارثة من كوارثها الكثيرة حولت حياتنا عن مجراها الأول إلى هذا المجرى الذي نعيش فيه.. كنا قبل هذه الكارثة نعيش في الريف حيث مهد الأجداد والآباء، كنا نعيش في استقرار وهدوء، ننبت في التربة الطبيعية التي

أنبتت من قبل آباءنا ومن سبقهم بأجيال، ثم عنَّ لنا أن نزور شقيقينا وبعض الأقارب في القاهرة، وسافرنا أنا ووالدتي وشقيقتي، وبقيَ والدي في القرية ليشرف على أعماله، وإني لأذكر الآن هذه الفرحة التي ملأت نفسي حينما وقع بصري لأول مرة على أضواء القاهرة المتلألئة، وشوارعها الواسعة النظيفة، وحينما التقيت شقيقيَّ اللذين لم تكن مخيلتي تستطيع أن تحدد لهما صورة. ثم مرت الأيام سراعًا وبدأنا نفكر في العودة، وحينما كنا نعد العدة للسفر، كانت الأقدار التي رسمت لنا طريقًا آخر تضحك بملء فيها، ونحن منهمكون في إعداد العدة للرحيل!

وفي يوم من الأيام كنت جالسة في غرفتي ألهو ببعض اللعب، حينما دخل شقيقي الأكبر عليَّ ساهمًا تنطق تقاسيم وجهه بأنه يكبت في نفسه ألمًا عميقًا كبيرًا، وجريت إليه لألقاه كعادتي، ولكنني ما نظرت إلى وجهه حتى أجفلت، وأخذت أحدِّق فيه في دهشة، ثم وجدته يضمني بين ذراعيه في أسًى، ويبكي!.. لم أدر ماذا جرى، ولكن قلبي أحس أن هناك شيئًا كبيرًا، فأخذ ينقبض وتسرع دقاته، ولم أستطع أن أتكلم ولكني بكيت.. بكيت دون أن أعرف لماذا، ولكن قلبي كان قد عرف!

وما لبثت أن وجدت البيت جميعه يبكي، ووقفت لحظة وكأن رجليَّ قد تسمَّرتَا في الأرض، وبعد قليل وجدت نفسي أجرى على السلم الموصل للسطح في خطوات سريعة متلاحقة. وفي ركن بعيد من أركانه ارتميت على الأرض وصدري يعلو ويهبط، وأنفاسي تتلاحق وتضطرب، ودفنت وجهي في كفيّ، وأخذت أبكي.. أبكي في حرارة مرة لاذعة، إن والدي الذي أحبه وألقي بنفسي بين ذراعيه فيربت عليَّ في حنان عميق.. قد مات!!

لم أكن أدري ما هو الموت، ولم أكن رأيت ميتًا قط؛ ولكني كنت أحس في أعماقي أن الموت شيء هائل مفزع مخيف. واستمررت أبكي ويعلو نشيجي حتى تختنق أنفاسي، ولا أقوى على البكاء؛ فأصمت برهة لأعود إليه من جديد.

وكثيرًا ما رأيت والدتي قبل ذلك تحنو على بعض الأطفال وتداعبهم لأنهم يتامى، ولقد سألت عن معنى هذه الكلمة، وعن سر هذا الحنان على الأطفال، وعرفت أنهم فقدوا والديهم أو والدهم.. تذكرت هذا فأحسست أن الأرض تميد من تحتي، وأن قبضة قوية تعتصر قلبي، أأنا إذن منذ اليوم يتيمة؟!، إيهِ، ما أقسى هذه الكلمة، لقد أحسست أنها تمزق نفسي وتسحقها، فعلا بكائي، وأخذت أخبط على وجهي في حركات عصبية عنيفة، ولا أزال هكذا حتى يخفت صوتي من التعب، فألقي بيديّ إلى الأرض كي أستريح قليلاً، فأعاود البكاء والنشيج، وأخيرًا غلبني التعب، فارتميت على الأرض ورحت في سبات عميق.

وصحوت، فإذا الشمس ترسل بآخر أشعتها إلى الكون لتختفي بعد قليل، وامتلأت نفسي بحسرة مريرة. إن أحدًا لم يسأل عني كل هذه الساعات. أوه. لو كان والدي لجاء إليَّ وحملني وهو يربت عليَّ في حنان؛ وذهب بي إلى فراشي لأنام.

ولأول مرة أحست نفسي الصغيرة الغربة إحساسًا ساذجًا قويًا، وانفجرت أبكي من جديد.

وخيل إليَّ أن أبقى هناك، ولكن الظلمة كانت قد بدأت تخيم على المكان، فتزيد وحشته نفسي الموحشة خوفًا وذعرًا، وانتفض جسمي وخيِّل إليّ أن مئات من الأشباح تخرج إليَّ من الأركان المنزوية التي غشَّاها الظلام، ومن بعض الغرف المظلمة المتناثرة على السطح، والتي كنت أخافها حتى في النهار؛ فانطلقت أجري مسرعة وأنا أحس أن تلك الأشباح تتعقبني وتجري في إثري.. وحينما نزلت وجدت والدتي وشقيقي الأكبر يستعدان للسفر السريع. وددت أن أذهب معهما لأرى

والدي الذي لن أراه بعد الآن؛ ولكن نفسي لم تكن تستطيع، بل إن شفتي لم تستطيعا النطق بكلمة واحدة.

خيّم على البيت صمت رهيب، صمت مظلم، كأنه سارب من أعماق القبور، وانطوى كل منا على نفسه، وجلس في حجرة بعيدًا عن الآخرين. ثلاثة أطفال ينتظرون من الخارج رجلاً كبيرًا لا يأتي المنزل إلا قُبَيل منتصف الليل، هو خالهم الذي يشتغل بالصحافة، ولذا يندر أن يعود إلى المنزل قبل هذا الميعاد. وينتظرونه في لهفة، وكأنه سينقذهم من موقفهم هذا، ويعيد إليهم ما فقدوه!

وظللت أنتظر وأنتظر دون أن يأتي أحد، وأخيرًا لفني النعاس في نفس المكان الذي كنت أنتظر فيه.

***

مرت العاصفة، وبدأت نفسي تنسى تحت وقع ذلك الفيض الكبير من الحنان الذي غمرني به الجميع، أنا وشقيقتي وشقيقي الصغيران، وعاد إليَّ شيء من مرحي المفقود، وكانت والدتي وشقيقي قد عادا من القرية؛ واعتزما تركها والحياة في المدينة، فلم تعد هذه الأسرة الصغيرة المكونة من أم وطفلتين تستطيع أن تعيش في القرية بعد موت الوالد والراعي الوحيد. وفرحت أنا بهذه الحياة الجديدة فلقد أحببت المدينة منذ أول نظرة، ولكن شيئًا ما كان قد اندس في طيات نفسي، فصار ينغص عليَّ بعض فرحتي بهذه الحياة. لقد كنت أحب الريف رغم كل ما فيه من منفِّرات؛ وكان لي هناك صديقات صغيرات آنس إليهن؛ لأنهن يشاركنني في كل شيء.. في اللغة والعادات ونوع اللعب، أما هنا في المدينة فلا أحد خارج الدار يشاركني شيئًا من هذه الأشياء. وحينما كنت أخرج إلى الشارع مع أحد شقيقيَّ، وأتحدث معه بلغتي الريفية، كنت أرى على وجوه المستمعين شيئًا من الدهشة المختلطة بالابتسام، فكرهت الشارع وأشفقت من مخالطة الناس، وحبست نفسي في المنزل.. ألعب وحيدة، أو مع إخوتي الصغار.

ولم أبق طويلاً على هذه الحال فقد اعتزموا أن يرسلوا بي إلى مدرسة من مدارس الأطفال، وفرحت كثيرًا وبتُّ أحلم بالسعادة في عالمي الجديد، وأخذ خيالي يرسم صورًا جميلة لحياة المدرسة التي لم أرها ولم أعرف ماذا تكون.

وانقضت هذه الأيام، وانقضت معها الأحلام الجميلة، وإذا بي في المدرسة صباح يوم، وفوجئت بهذا الموقف وكأنني لم أحلم به في نشوة جميلة، ولم أعد له الأيام والساعات، ووقفت في مكان منزوٍ قليلاً وأنا مشتتة.. لا أستطيع أن أجمع أجزاء نفسي المبعثرة، ومرت بيَ التلميذات عاديَات مهللات في لعبة من لعبهن الجميلة، وحاولت أن أدفع بجسمي إلى الأمام ليجري معهن، ولكن شيئًا ما كان يشدني بعنف إلى الخلف، ويمسك برجليَّ في الأرض، وأحسست أنه يقوم بداخلي صراع هائل بين قوتين كبيرتين: بين ذلك النشاط المتوثب الذي يمتلئ به جسمي ونفسي، وهذا الشيء الغامض الغريب الذي يمسك بي في مكاني، فلا أستطيع الحِراك، ولم يكن هناك شيء جديد يدعو إلى الارتباك، فلقد تخيلت كل هذا، وعشت في خيالي مع زميلاتي الصغيرات حياة كاملة، وتبادلت معهن الأحاديث والضحكات، واشتركت معهن في أنواع شتى من الألعاب، ومع هذا أحسست أني بعيدة عنهن الآن بقدر ما كنت قريبة منهن في الخيال، ووقفت هكذا طيلة الوقت مشتتة تنتابني شتى الأحاسيس، ولكن شعورًا واحدًا برز من أعماق نفسي، ثم ما لبث أن ملأها كلها، وطغى على ما فيها من أحاسيس، أحسست للمرة الثانية بالغربة المريرة في هذا الوسط بكل ما فيه.. أحسست أنني لست من هذا الوسط، ولن أستطيع أن أندمج فيه، وغمرني خجل شديد وارتباك وصمت، ومرت بي تلميذات يحادثنني ويسألنني عن اسمي، فأجبتهن إجابات مقتضبة، وعدت إلى صمتي من جديد، ودق الجرس فأنقذتني دقاته مما أنا فيه من ارتباك.

وحينما دخلت حجرة الدراسة أحسست أن البقية الباقية من خيالي الجميل قد تلاشت؛ فإنني غريبة أيضًا عن هذا المدرس، وعن هذا الجو الجديد الذي وُضِعت فيه، ولكن عندما بدأ الدرس بدأت نفسي تأنس إلى هذا الجو، ويزول ارتباكي قليلاً قليلاً، وأحسست أنني أستطيع أن آلف الدرس وأندمج فيه..

ومضت الأيام، وأحببت الفصل والدرس كثيرًا، وأَنِسَتْ نفسي إليهما، وساعدني على ذلك إعجاب أساتذتي بي، وتفوقي الدائم على زميلاتي، ولكن هذا كله لم يستطع أن يمحو الارتباك والخجل محوًا باتًا، إنني مازلت خجلة منزوية إلى حد كبير، وبخاصة في خارج الفصل، وحتى وأنا في الفصل ومع أشد المعلمين حبًا لي وإعجابًا بي، لم أكن أتحرر من هذا الخجل، فلم أكن أستطيع أن أرفع أصبعي لأطلب شيئًا مهما كنت في حاجة إليه كما تفعل بقية التلميذات اللاتي لا يحظين من معلميهن بمثل هذه الرعاية.

انقضت ثلاث سنوات على هذا النحو الثقيل في الفصل أحس شيئًا من التحرر والإيناس، وفي أوقات الفراغ أجلس في مكان منزوٍ بعيد، وأما في المنزل حيث أكون في بيئتي التي أعرفها وآنس بها فإنني شعلة من الحركة والحياة، وكأنني أعوض ما أكبته في نفسي طيلة النهار.

مرت ثلاث سنوات أتممت فيها دراستي الأولى، وبدأت أستعد لدخول مدرسة ابتدائية، وبدأت أحلم من جديد، وأرسم صورًا جديدة لنفسي في مدرستي المقبلة، ونسيت أنني حلمت من قبل، وأن أحلامي ذهبت هباءً.. حلمت بأشياءَ كثيرةٍ جميلةٍ.. حلمت بكل ما كنت أراه في المدرسة وأحبه وأتمناه ولا أستطيعه.

وهكذا عشت داخل نفسي في كل حياة رغبت في أن أعيشها دون أن أستطيع!

ودخلت المدرسة الجديدة، وتلاشت كل هاتيك الأحلام، وألفيت نفسي مرة أخرى وسط كثير من الناس خجلة مرتبكة منزوية في ركن بعيد. ومرت الأيام تتلوها الشهور والسنوات، ووجدت نفسي محبوبة مدللة من الجميع، ورأيت جميع أساتذتي يستثنونني دائمًا من العقاب، مهما كان خفيفًا، بينما كل زميلاتي يُعَاقَبْن، وإن أخطأ مرة أحدهم فعاقبني ولو ببضع كلمات، فإن هناك من زملائه من يراجعه في هذا العمل الذي لا يجوز، أحسست من كل هذا أنني أفوق جميع زميلاتي وأُفضَّل عليهن، ولكن كل هذه الأشياء لم تستطع أبدًا أن تخرجني من نفسي، ولا أن تدفع بي من ركني المنزوي البعيد لأجري وألعب إلا في قليل من الأيام، ولم تستطع أن تمحو الارتباك والخجل اللذين يغمرانني كلما أحسست أنني في جمع من الناس.

وفي يوم من الأيام كنت وزميلاتي منتظمات في الصف استعدادًا لدخول الفصول، وجاءت الناظرة ممسكة بيدها دفترًا صغيرًا، ونادت على التلميذات اسمًا اسمًا لتسأل كل واحدة عما يشتغل والدها.

أحسست أن نفسي اعتراها لون من الدوار، ثم أفقت بعد قليل، فإذا بي غارقة في خجل مر مضطربة مرتبكة، لا أستطيع أن أفكر أو أنبس بكلمة واحدة، وكأنني أُلقيت بغتة في بحر مضطرب الأمواج.

ماذا أقول؟! إنني قد نسيت تمامًا أنه كان لي في هذا الكون الواسع والد في يوم من الأيام، أب ؟!، أأنا كان لي في يوم من الأيام أب، ثم أب

يشتغل شغلاً معينًا؟!، بماذا أجيب؟.. إنني لم أفكر في هذا منذ أكثر من سبع سنوات.. نعم إن اسمي يرتبط باسم بعده ولا شك في أن هذا هو اسم أبي، ولكن هذا الاسم لم يمثل في نفسي شيئًا معينًا واضحًا منذ أمد غير قصير، ربَّاه أعنِّي.. بماذا أجيب؟

ليتني أستطيع أن أهرب من هنا فلا أعود أبدًا!!

وحينما سمعت اسمي يُنَادى، كنت لا أزال مضطربة غارقة في نفسي لا أدري ماذا سأقول، وتقدمت قدماي في حركة آلية نحو الناظرة، وحينما وصلت إلى هناك كدت أسقط على الأرض، ولمحت الناظرة اصفرار وجهي واضطرابي العنيف فظنت أني مريضة، وكانت تحبني كثيرًا، فأشارت إلى حجرتها، وأمرتني أن أدخل لأستريح، وحينما دخلت أحسست أنني قد انتُشِلْتُ من بحر هائل خضم، واستطعت أن أملك زمام نفسي، وأن أفكر في شيء من الهدوء، نعم إنني أذكر الآن أن لي أبًا كان يعيش في الريف، يشرف على زراعة أراضيه، وأنني كنت أحبه كثيرًا. إذًا، لماذا اضطربت هكذا حينما عرفت أنني سأسأل ذلك السؤال؟، ولم تستطع نفسي أن تجيب عن سؤالي، ولكني أحسست أن الاضطراب يعود إليها من جديد.

وحينما أكملت الناظرة عملها في الخارج، جاءت إليّ وأخذت تربت على كتفي في حنان، وتسألني عن سر اضطرابي واصفرار وجهي، وأخيرًا سألتني ذلك السؤال الرهيب، فحاولت أن أمسك نفسي وألا أضطرب مرة أخرى، وبعد جهد استطعت أن أجيب!!

ولاحظت عليَّ بعض الإعياء، فأشارت إليَّ بالذهاب إلى حجرة الطبيبة لأستريح بقية اليوم. وذهبت إلى هناك، واستلقيت على أول مقعد ودفنت وجهي في كفيّ وانفجرت أبكي..

منذ ذلك اليوم بدأت تتفتح في حنايا نفسي أشياء جديدة، وبدأ شعاع من النور يلوح فيها؛ ليكشف عما يقبع في بعض زواياها المظلمة من أحاسيس.

ومرت الأيام، وأكملت دراستي الابتدائية، وعدت إلى حياة المنزل الراكدة الرتيبة.

وبدأت الطفولة الساذجة تنجلي رويدًا رويدًا، ويحل مكانها عهد جديد، وسارت يد الزمن الرهيبة تنضج بلهيبها القوي كل فج في هذا الوجود، وسرت معها وأنا في غمرة لا أحس فيها بوجودي، ثم تنبهت من غفلتي فإذا أنا فتاة متيقظة منتبهة لكل همسة تدور في نفسي، ولكل إحساس يتراءى من بعيد.

وحينما كانت يد الزمن الساحرة تنضج بلهيبها الحار كل شيء في كياني وتنميه، كان أيضًا ذلك الشعور ينضج وينمو ويبرز من مكمنه

قليلاً، ولكن حياة البيت الهادئة الرتيبة - حيث أعيش مع والدتي وإخوتي، هؤلاء الذين تعرفهم نفسي وتألفهم، وتأنس بهم - استطاعت أن ترد ذلك الإحساس إلى مكمنه، حيث يقبع في الظلام فلا أراه.

ولكن كان لزامًا عليَّ بعد ذلك أن أخرج من عزلتي وأختلط بالناس، وهنا بدأت أواجه مشاكل كثيرة كانت نفسي قد استراحت منها منذ أن تركت حياة المدرسة، وأبيت الخروج، فوجدت أن كل شيء في المجتمع يلح عليَّ في هذا الخروج، وبدأت أسمع من صديقات شقيقتي بعض الانتقادات على هذه العزلة، ورماني بعضهن بالتكبر، والبعض الآخر بكراهيتي للناس، وأحسست أن عليّ أن أخرج من عزلتي، وأن أنفي عن نفسي هذه الاتهامات، فحاولت ذلك، واستطعت بعد قليل، وأصبح لي بعض الصديقات؛ وإن كنّ قليلات! وحينما أحسست أنني بدأت أتحرر من ذلك الشعور المقيت الذي كنت أحسه كالقيد يلازمني دائمًا خارج الدار، وأني استطعت أن أجلس إلى بعض الناس، وأحس أنني لست بغريبة عنهم، وأنني أستطيع أن أبثهم ما في نفسي في ألفة وحرية.. كانت الحياة تدخر لي في طياتها شيئًا جديدًا!

أصبحنا ذات يوم، فإذا نحن أربعة غرباء في هذا الكون الواسع الكبير لا تربطنا بأي شيء فيه صلة ما، لقد اقتلع الموت البقية الباقية لنا من جذور! لقد اختطف منا والدتنا، وقضى علينا أن نصبح هكذا نبتة غريبة بدون جذور. وهنا.. خرج الغول القابع في نفسي في ركن بعيد، وإذا هو قد تضخم ونما، وملأ نفسي، وغشَّى كل ما فيها من أحاسيس.

وبدأت تتصرم العاصفة، وتخفت حدتها قليلاً قليلاً، كما تتصرم وتخفت كل عاصفة تهب في هذا الوجود، وبدأ الجرح الدامي العميق يلتئم ويستوي سطحه رويدًا رويدًا، كما يلتئم كل جرح في هذا الكون الكبير!

ومرت سنتان، وتلاشت العاصفة تقريبًا، فإذا أنا غريبة غريبة عن كل ما في الكون الواسع إلا ما كان في الماضي القريب، وإذا بذلك الغول

الكبير يجثم على نفسي كلها، فلا يترك لها بارقة من نور، وأحسست أنني أكاد أختنق، وأن دائرة حياتي تضيق وتضيق، فأنا مرتبكة مضطربة ما دمت خارج الدار ومع غير هؤلاء الصديقات القليلات، أنا مضطربة مرتبكة أكاد أتعثر في خُطَاي حينما أسير في شارع مزدحم بالمارة، وأنا كذلك حينما أذهب لأحد المحلات الكبيرة لأشتري بعض لوازمي، أسير منكسة الرأس قليلاً، خجلة لا أكاد أعثر على نفسي، أو أجمع شخصيتي المتناثرة، ولا أدري كيف أسأل عما أريد، وكأنني في بلد غريب أطؤه وحيدة لأول مرة، وأعود إلى البيت ثائرة على نفسي، ناقمة على الخجل وهذا الارتباك، أتهم نفسي بالنقص وشخصيتي بالانحلال، ثم ما يلبث جو البيت الهادئ الأليف أن يعيد إليَّ هدوئي وثقتي بنفسي وشخصيتي، ثم يتكرر هذا دائمًا كلما عنَّ لنا أن نخرج من الدار إلى مكان مزدحم بعيد.

وفي يوم من الأيام كنت مع إخوتي وصديقة لنا في حديقة عامة، وقد عزمنا على قضاء اليوم كله وتناول الغداء هناك، وبينما نتمشى جميعًا في الحديقة إذا بهذه الصديقة تلتقي بزميلة لها في المدرسة، وارتبكت نفسي واضطربت حينما اضطررت أن أسلم عليها كعادتي دائمًا حينما ألتقي بأحد غريب، وكان عليَّ أنا أن أدعوها لمرافقتنا مجاملة لصديقتنا، فدعوتها ولكن في خجل وارتباك خُيِّل للصديقة أنه شيء من البرود وعدم الاعتناء، وإذا بشقيقي غاضب ثائر عليَّ وعلى ذلك الخجل الغريب الذي لا مبرر له.

أحسست بالظلام الذي يغمر نفسي، وبأن لا صلة هناك تربطني بهذا العالم ومن فيه، وحينما عدت إلى المنزل ذهبت توًا إلى غرفتي، وأغلقت بابها، وارتميت في فراشي، ودفنت وجهي في الوسادة وطفقت أبكي، ولم أكن أدري لماذا أبكي، ولكنني لأول مرة أحسست أنني غريبة حتى عن هذا البيت ومن فيه.

ثم إذا بي أسأل نفسي في ثورة عنيفة عن سر هذه الغربة، وما يتبعها من خجل وارتباك واضطراب، ولأول مرة وجدت نفسي تجيب!

لأول مرة عرفت أنني لست من هذه المدينة الصاخبة الواسعة، وأن كل شيء فيها على نفسي غريب، وأنني سأظل غريبة فيها مهما عشت فيها من سنوات، وهناك في حنايا قلبي العميقة المتداخلة، حيث يقبع الماضي، ذلك الماضي البعيد المتسرب في أغوار الزمن، ماضي الآباء والأجداد! هناك وجدت وطني الذي أحس فيه بالألفة لكل شيء ولكل إنسان، هناك حيث أستطيع أن أُحدِّثَ كل إنسان، وأن أتجول في كل مكان في غير ما خجل ولا ارتباك، إنه الريف.. ذلك الكنف الحنون الذي ينتظرني في لهفة لأعود فيضمني بين ذراعيه من جديد، إنه الريف الذي خُلق جسمي من ذرات تربته المنثورة، واختلطت ذرات هوائه السابحة بدمي ونفسي منذ الطفولة الأولى، إنه الريف الذي التقت عيناي بصوره حينما رأت النور أول مرة، إنه الريف حيث ينتشر

في ذرات ترابه رفات أجدادي!

استراحت نفسي حينما وجدت ذلك الملجأ الحنون، وأحسست لأول مرة أنني لست غريبة في هذا الكون الكبير، وأخذت نفسي تحلم بالعودة إليه ولو لبضعة أيام، ومرت الأيام والحلم يقوى وتتعدد في نفسي صوره الجميلة حيث ألتقي بأقاربي وصديقات طفولتي اللاتي نسيت كل شيء عنهن حتى أسماءهن.

وأخيرًا.. اقترب اليوم الموعود وبدأت أستعد للسفر وامتلأت نفسي بالبهجة والحياة.. ركبت القطار الذاهب إلى الصعيد، وحينما بدأ يتحرك ببطء تاركًا وراءه محطة العاصمة، أحسست أن شيئًا قويًا قد خطف مني نفسي، وأصبحت كالتائهة في صحراء هائلة لا أستطيع أن ألتقي في نفسي بإحساس واحد واضح، وإذا بي أردد في صوت خافت: «القاهرة!».. القاهرة؟.. كيف اندس هذا الاسم بين طيات نفسي وتغلغل في أعماقها؟!.. إن نفسي لتهفو إليه وترفرف حواليه وتحن له، رفرفة الطائر الغريب وحنينه إلى عشه البعيد!!

وأخذت أنظر إليها، وهي تتوارى قليلاً قليلاً، وتمنيت لو أستطيع أن أقذف بحقائبي، ثم أقذف بنفسي خلفها لأعود إلى القاهرة الحبيبة التي لم يمضِ على رحيلي عنها غير بضع دقائق!!

وحينما غادر القطار الجيزة، وبدا الوادي الفسيح الجميل الممتد إلى آخر ما تستطيع أن ترى العين، وبدا النخيل السامق وظلاله التي تنعكس على الماء في ضوء الشمس الغاربة والقمر الساطع. بدأت أنسى القاهرة قليلاً، وأندمج في هذا الجو البديع، وأهفو إلى وطني الأول، وأستحث القطار على المسير.

وأخيرًا.. وصل القطار إلى المحطة التي أريد، ومن هناك ركبت

السيارة إلى القرية. وقطعت السيارة أكثر من نصف ساعة في الطريق.

وحينما بدأت تلوح القرية من بعيد أحسست أن قلبي يخفق ونفسي تبتهج؛ وأحسست أن أنفي يندفع إليه نسيم جميل.. نسيم جميل لم أشمه منذ أمد بعيد.. وبدت الحقول الواسعة وكأنها غُطيت بذهب رائق، إنه سنابل القمح الصفراء الجميلة، تهزها النسمات.. اخترقت السيارة هذه الحقول ثم بدت بعد ذلك القرية ببيوتها السوداء وشوارعها الضيقة القذرة، وأطراف نخيلها السامقة الطويلة.

وحينما دخلت السيارة في أول شارع أبصرت أطفالاً قذرين مهلهلين يسيرون في الطريق، وبعض النسوة يجلسن بشكل غريب أمام الأبواب ينظرن إلى السيارة ببلاهة ونهم.

أحسست أن غشاوة سوداء قد ألقيت على نفسي.. إنني أيضًا غريبة عن هنا، وعن كل هذه الأشياء! إنني لست من الريف!!!

ووجدت نفسي تمتلئ بالحنين الجارف إلى القاهرة، ووددت أن أعود إليها في أول قطار !!

إنني يا صديقتي نبته حائرة في هذا الوجود، فهل يا تُرى هذه النبتة التي نقلت من تربتها، واجتثت من جذورها، تستطيع أن تثبت مرة أخرى... ؟!

عبادة الحياة

لِمَ لا يعيش الإنسان كل لحظة من الحياة بكل ما في قلبه من حياة؟

ويح له من مسكين يبعثر اللحظات هنا وهناك بغير حساب وكأنه سيعيِّش للأبد، أو يرجع مرة أخرى إلى هذه الحياة، كم من السنوات ستلمس قدماه هذه الأرض الجميلة.. إنها مهما تطل قصيرة قصيرة، ماضية إلى الانتهاء.

***

ويح لهذا المجنون الذي يلقي بنفسه من النافذة فإذا هو هباء..

إنه يظن نفسه كاسبًا بهذا الفناء

كاسبًا بفراق الأرض وما فيها من شقاء

كاسبًا بالراحة الأبدية لا يتخللها عناء

إنه خاسر، خاسر كل شيء بفقدانه ذلك الشقاء!

***

حينما تنبثق في الفجر الخيوط الأولى من الشعاع، ويبدو الكون الغافي كالحالم الوسنان، وتنطلق الطيور ثملة بالنور تحيي الصباح، وتُخرج من أصواتها الرقيقة لحنًا عبقريًا لا تحده الأنغام.. يشيع ويتلاشى في خفقات الكون النشوان.

***

وحينما تصحو الشجيرات تهتز فوق أوراقها قطرات الندى الجميلة ،وحينما يصحو كل شيء ملهوفًا للقاء الشمس الحبيبة.

حينما يكون الكون كله حلمًا ساحرًا فتَّانًا.

يكون ذلك المسكين هناك غائرًا في الظلمات.

إنه لا يدري أبدًا أنه قد انبثقت في الفجر الخيوط الأولى من الشعاع!!

***

وحينما تسحب الشمس خيوطها الصفراء الباهتة إيذانًا بالرحيل ،ويتسرب الليل إلى الكون الذي أضناه النهار.

حينما يغفو كل شيء ويلقي بعنانه إلى الليل السمح.

وحينما يضم الليل أبناء هذه الأرض كالأم الحنون.

ويتسلل القمر الساحر إلى الكون في بطء وهمس.

وكأنما يخاف أن يمزق سكون ذلك الصمت الرحيب.

ويهمس للكون الغافي فيصحو ويجيب.

يكون ذلك المسكين هامدًا في أعماق الثرى.

إنه لا يسمع أبدًا همس القمر الساحر البديع.

ولا يعرف أن الليل الحنون يضم أبناء الأرض في رفق رحيم.

***

وحينما يُقبل الربيع يفيض قوة وأملاً ونشاطًا.

وتهب نسماته الحارة الرقيقة تحمل في طياتها الأمل إلى كل شيء..

الأمل الحالم إلى المجهول الذي لا تقيده حدود الدنيا الضيقة.

حينما توسوس للقلب الغافي في همس ضحوك.

أيها القلب النائم.. اصح فإن الأمل يدعوك.

وحينما ترف إلى الزهرة المقفلة في رفق ساحر.
فتتفتح وتزهر وقد أغمضها الشتاء الطويل.
وتنفث شذاها العبق فيسري مع النسمات.
وحينما تهمس للعصفور الساكن المستجم.
فينطلق يشدو بعبقري الألحان.
ويرسل أغاريده إلى الكون الراقص النشوان.
حينما يصير الكون كله لحنًا واحدًا ورقصة واحدة.
وحينما تصحو الحياة كلها تهفو لأمل جديد.
يكون ذلك الإنسان جثة هامدة بين التراب.
إنه لا يعلم أبدًا أن الحياة ترقص وتهفو وتحن.
وأن الربيع أعطى سحره لكل شيء في كرم وسخاء.
وأن الكون المتعب يحلم بالحب والأمل والسلام!

أيها القبر

أيها القبر، ويحك. كيف تضمني بين طياتك!!

إنني أخافك! أخافك فبربِّك لا تأخذني

أيها القبر، إني أخاف الظلمة وأتحاشاها في هذا العالم المؤنس الرحيب.

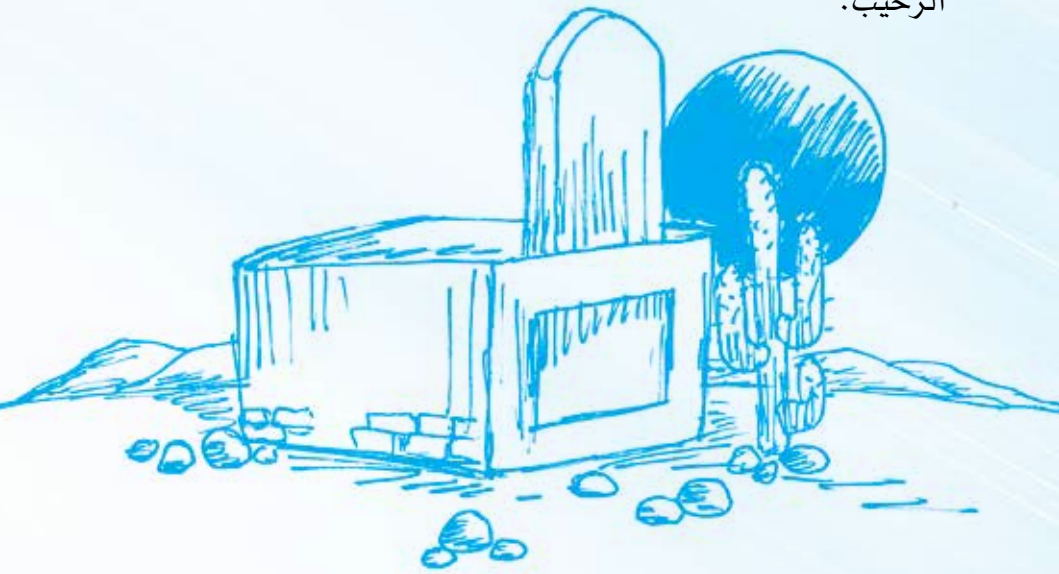

فكيف أقوى على ظلمتك السرمدية في عالمك الموحش الرهيب؟

أيها القبر، إني أكره الصمت ساعة متصلة من الزمان.

فكيف أحب صمتك الطويل الذي لا مبدأ له ولا نهاية؟

أيها القبر، إنني لا أطيق العزلة يومًا ولا البعد عن الأحياء..

فكيف تراني أخلد إليك في وحدة رهيبة؟

أيها القبر، إن جسمي لينتفض رهبة من مكان خرب مهجور.

فكيف أحتمل خرابك الصامت ووحشتك المهجورة؟!

أيها القبر، إن نفسي لترتعش حين أسمع صدى الصمت الرهيب.

فكيف إذن سأسمع صدى صمتك الآتي من المجهول الساري إلى المجهول؟

أيها القبر، إني أضيق أحيانًا بكل هذه الحياة الواسعة المتعددة الجنبات.

فكيف لا أضيق بجوفك الضيق الذي لا تسكنه سوى جثة ليس بها حراك؟

أيها القبر، إنك هناك بعيد في الصحراء حيث لا يتردد نفس إنسان.

أيها القبر، إنني أخاف الصحراء حيث لا يوجد شيء حي.

فبربِّك أيها القبر لا تأخذني إليك، فإني أمقتك وأخشاك!

غرور

كم ذا يغتر الإنسان في هذه الحياة.
إنه ليظن نفسه شيئًا ثابتًا لا تزلزله الأحداث
يظن أنه ثابت الأقدام على هذه الأرض يفعل فيها ما يشاء.
إنه لا يحس أبدًا أنه مجرد خيال يسري على هذه الأرض.
يروح ويجيء ويلتفت ذات اليمين وذات الشمال.
يأكل ويشرب ويأتي شتى الأعمال.
ثم يمضي! يمضي كأن لم يكن قط في هذه الحياة.
يمضي كأن لم تطأ قدمه قط هذه الأرض ولم تلمسها يداه.
يمضي كأن لم تتردد قط في صدره ذرة من ذرات هذا الهواء.
يمضي كأن لم تر عينه مرة زهرة من زهرات الأرض الفيحاء.
يمضي فلا أثر يتركه على الأرض، ولا تحفل بمضيه الحياة.
وإذا كل شيء يسير في مجراه كأن لم يحدث شيء ولم تنطفئ حياة.
يمضي ولا يبقى منه سوى ذكرى في بعض النفوس.
ذكرى تبتعد وتتلاشى بمرور السنوات.

***

هذه الفتاة الممشوقة الهيفاء.
التي تلتفت إلى الوراء بخفة في عُجْب وخُيَلاء.
وهذا الوجه المشرق الجميل.
الذي يُخيّل إليك أنه قطعة من الحياة خالدة لا تموت.
وهذه النفس التي تملؤها الأحاسيس متباينات.

والتي تضيق الدنيا الواسعة عما فيها من آمال.

وهذا الزعيم العظيم الذي يحرّك شفتيه، فإذا ملايين البشر رهن هذه الكلمات.

والذي يهز العالم بخطبه يلقيها أو كلمة في كتاب.

بل هذا الجسم الحي المجرد الذي يتحرك هنا وهناك في خفة ونشاط.

إلى أين يذهب هؤلاء، وإلى أي مصير يؤولون؟

إلى الفناء، الفناء الذي لا رجعة بعده للوجود في هذه الحياة

وكأن الأرض لم تحملهم أبدًا، ولم تعرف ماذا كانوا يعملون أو يريدون.

***

لِمَ لَمْ يقاوموا ويثبتوا في مكانهم على هذه الأرض الواسعة؟!

إنها القوة الخفية الهائلة التي ينحني أمامها رأس هذا الإنسان الجبار.

هذا الإنسان الذي يدعي أنه يملك قطعة من هذه الأرض!

كيف وإلى متى هذا الملك يدوم؟!

ليته يعرف أنه لا يملك شيئًا، وإن ملك الأرض جمعاء!

إنه لا يملك نفسه على هذه الأرض لحظة من اللحظات.

سيقولون إنها لأولاده من بعده!

وإلى أين أولاده يذهبون؟!

إيه. ويحٌ للإنسان من هذا الوهم الغريب!

إنه يتوهم دائمًا أنه يملك شيئًا .. أي شيء!

إنه لا يملك شيئًا أبدًا، لا يملك أنفاسه!

إنه ذاهب، ذاهب إلى الظلام والنسيان!

قلب متمرد

أيها القلب العاق، المتمرد على الحياة! بربِّك، قل لي: ما الذي يرضيك؟! لقد سئمتك وسئمتُ حيرتك الدائمة ووحشتَك الكئيبة، وخفقانك الدائم إلى لا شيء، سئمت فيك ذلك التهويم في كل واد بغير نظام، سئمت فيك كل هذه الأحاسيس المشتتة التي لا تجتمع ولا يستقر لها قرار، سئمت فيك ذلك التمرد على كل شيء وعدم الرضاء بشيء، سئمت فيك حبَّك للسراب، ونفورك من الأماني حين تُجاب، ويحَك أيها القلب، بربِّك ما الذي يرضيك؟!

لقد أعطتك الحياة يومًا جنة الآمال والخيال. تجول فيها حيث تشاء، وتخلق فيها ما تريد، وتبني فيها قصورًا شاهقة من الآمال العذاب، وتنمق صورها كما يحلو لك.

ولكنك ما لبثت أن سئمت ما فيها من عقبات، وسئمت الأشواك والصخور، وخرجت منها هاربًا مذعورًا مشردًا في الحياة.

ولقد زعمت لي حينذاك أنك سعيد بهذا الفرار، زعمت أنك أصبحت طليقًا تذهب حيث تشاء، وسوف تجد جنة جديدة خالية من الأشواك! وزعمت لي أنك سئمت الأسر والسجن داخل تلك الجنة الواسعة الظليلة، وخرجت تهوم في الصحراء تبحث عن واحة جديدة من خيالك الواسع الندي، ولكنك أيضًا سئمت هذه الواحات، وعُدْت تهفو من جديد إلى أطلال جنتك التي حطَّمتها وهمَّت.

ثم ها أنت الآن طليقٌ فأين الجنة الخالية من الأشواك؟!

ولو قد وجدتها أترضيك أيها القلب المتمرد العنيد؟! ها أنت الآن طليق تلك الطلاقة التي كنت تسميها السعادة يومًا ما، فما بالك الآن لست سعيدًا؟! ها أنت الآن خالٍ من كل عمل خاوٍ من كل شعور، ها أنت الآن في الصحراء التي كنت بها سعيدًا، فما هذه الحيرة؟! وما هذا الضيق؟! وما بالها الآن لا ترضيك؟

أيها القلب المجنون، أتستطيع أن تفهمني ألغازك العجيبة؟ إنني لم أعد أفهم شيئًا ولا أدري ماذا تريد.

لِمَ تبني الآمال الحلوة الكبيرة، وتتعذب في المحافظة عليها من كل عاصفة تثور، وتتلهف شوقًا إلى تحقيقها، وتخفق وتنقبض حين تحس أنها لن تكون، أو حين تُنَبِّئُك ضاربةُ الرمل أنها لن تُحقق، ثم إذا تحققت بعد كل هذا العناء تنبذها بعيدًا وتلوذ هاربًا منها مشفقًا أن تكون في الواقع الملموس. ثم تركن إلى فراغ كئيب لتعود تبني آمالاً جديدة، وتعيد الكرّة من جديد. وإذا لم تحقق لك الحياة بعض هذه الأمنيات، فويح للحياة من لعناتك الحارة وسخطك الشديد!

ثم لماذا تَضُجّ بالشكوى حينما تمتلئ بشتى الأحاسيس والشعورات، وتحاول الهرب من هذا الجو الممتلئ الصاخب إلى الهدوء الذي لا يُنَغِّصُه إحساس الحائر أو الراجي أو المقلق المذعور، ويُخَيّل إليك أن السعادة القصوى في ذلك الهدوء المنشود، ثم ما تلبث أن تجد هدوءك أو قل فراغك المنشود، فإذا بك تتمرد عليه وتثور، وإذا بك تقول لي: إنما الحياة الفارغة والموت سواء، ثم تسعى لأحاسيس جديدة ولجو صاخب من جديد!

أيها القلب الثائر المتمرد، أجبني ما الذي يرضيك؟ لقد كرهت الحياة المملوءة بشتى الأحاسيس والآمال، وكرهت الفراغ الموحش الذي لا تلمح فيه إلا خيال آمال متوارية وذكرى أحاسيس غاربة، وكرهت أن ترى آمالك مجسمة في الحياة، بل كرهت حتى أن تتصورها محققة في الوهم والخيال، وكرهت أن يطويها الزمن فلا تخرج إلى العالم المحسوس. كرهت الواحة، وكرهت الصحراء، وكرهت الواقع، وكرهت الخيال. ثم بعد هذا تهفو في حنين مجنون إلى لا شيء، وإلى عوالم مجهولة لا يبين فيها أمل ولا شعور!

أيها القلب، إنك لن تفيق من هذا الجنون. إنك ستبقى ثائرًا متمردًا لا يستقر لك قرار، ولا تستطيع أن ترسو لميناء مدى الحياة؛ فعش هكذا إذن فإنما الموت هو الحياة الخالية من هذا الجنون!

الحلم واليقظة

حينما كنت أعيش في حلم
كنت طيفًا سابحًا لا تحده حدود
كنت أرى الدنيا أطيافًا ساحرة تضطرب وتتراقص
وكانت الأشياء تبدو كخيال مجسم يضطرب هنا وهناك
كما تبدو للحالم المستغرق في نوم عميق
كل شيء كان له طعم خاص ورائحة خاصة
هذه الزهرة، لم تكن هكذا! لقد كانت خلقًا آخر

لم تكن وريقات نضرة جميلة تحملها كأس
بل كانت رمزًا ناطقًا في صمت عن شتى الأحاسيس والآمال
كانت دنيا حافلة تلمسها اليد فتسري الروح في عوالم ساحرة من الأماني والخيالات
هذا القمر، لم يكن كما يبدو في هذه الأيام!
لم يكن كوكبًا جميلاً منيرًا يظهر بميعاد ويختفي بميعاد
كان طيفًا حيًا من أطياف الخلد لا تحده نظم ولا تقيده أيام
كان ساحرًا يلتقط الروح في رفق؛ فتجول معه في نشوة حالمة
في السماء سماء الروح حيث لا زمان ولا مكان
هذه الشجرة، شجرة الكافور ذات الأوراق التي تكاد تلمس الأرض
لم تكن ساقًا جافة ثم أغصانًا تحمل فوقها الأوراق
كانت راهبًا يرنو إلى السماء في خشوع، في ضوء القمر الناعس النشوان
كانت حلمًا من أحلام الأرض الجميلة، كان ظلها مأوى للقلب الساهر الظامئ للجمال
والليل، إنه لم يكن كما هو الليلة
لم يكن فترة مظلمة داخلة في حساب الزمن والساعات
لقد كان حلمًا ساحرًا من أحلام الطبيعة الفنانة
كان لحنًا عبقريًا ساحرًا من معزف الطبيعة العبقرية الساحرة
كان فتنة للروح لا تقاوم
كان قطعة من الجنة حيث كل شيء يهمس لكل شيء في رفق لطيف
حيث العالم طيوف هانئة رقيقة الملامح والقسمات
حيث الروح هائمة نشوى تلتقي بكل شيء كأنها تعرفه منذ بعيد

ثم نفسي لم تكن كاليوم تزن كل شيء بميزان
كانت تحلم دائمًا في اليقظة أو حين تنام
كانت تحلم، فلا تعبأ بالواقع ولا بالقيود
بل، لم تكن ترى هذا الواقع ولا هذه القيود
كانت تعيش الحياة، وهمًا يعيش في أوهام
كانت تؤمن بالأحلام وتضطرب لكلمة من ضاربة الرمل أو بخت في أغنية
كانت مغمضة العينين حالمة لا تفيق
ثم مضى الحلم وتفتحت عيناي
فإذا كل شيء قد حال
وإذا كل شيء في الواقع تراه العين قبل أن تراه الروح!
وإذا الزهرة وريقات جميلة نضرة تحملها كأس!
وإذا القمر كوكب جميل منير يظهر بميعاد ويختفي بميعاد !
وإذا الشجرة ساق جافة ثم أغصان فوقها أوراق!
وإذا الليل فترة للعمل أو للراحة، داخلة في حساب الزمن والساعات!
وإذا الدنيا حيز للعمل لا سماء للتجوال!

إلى المجهول

دائمًا وفي كل لحظة في النهار أو الليل.
حينما تنطبق شفتاها عن الكلام.
حينما تضمها الوحدة في مكان.
تحس في الأعماق شيئًا من القلق والاضطراب.
تحس أنها تريد أن تقول شيئًا .

شيئًا قويًا في قرارة النفس لا تبين سيماه.
تحس أنها تريد أن تعمل شيئًا.
شيئًا جميلاً ذاصدًى أخّاذ يخطف لُبَّها ولا تدريه.
بل تحس أنها تريد أن تأكل شيئًا.
شيئًا غامضًا ذا طعم خاص، لا تجده أبدًا في واقع الحياة.
تحس أنها تريد شيئًا.
شيئًا كبيرًا تومض له نفسها في بهجة وإشراق،
ثم تبحث وتنقب في دقة وهمس عما تريد.
فإذا بها لا تريد شيئًا مما تستطيع أن تعرفه من أمنيات.
تحس أن هناك في الأغوار أمنيات تتراقص في خفة النشوان.
أمنيات كبيرة مجهولة ترف كالطير السعيد.
ثم تحاول أو تقتنص واحدة من هذه الأمنيات.
فإذا بها تومض وترقص ثم تغيب.
كالشبح تراه العين لا تلمسه اليدان.
وتحاول أن تعرف في أي اتجاه تسير.
فإذا بها خيال أشباح ترقص في غير اتجاه.
وهنا يغمر نفسها القلق والضيق.
فتعود إلى الناس لتتحدث في توافه الأمور.

الزمن الساحر

ما أقساك أيتها اليد الجبارة العجيبة! إنك لتزحفين في بطء وخفة فتسحقين في بطء أيضًا كل عزيز إلى النفس محبب إليها.

حدثيني أيتها اليد العدوة المحبوبة، أيتها اليد التي نكرهها لأنها تفقدنا كل عزيز، ونحبها لأنها تأتينا بالمستقبل الذي نتصوره في خيالنا، وتتلهف لتحقيقه نفوسنا. إيهٍ، ما أبلهنا أيتها اليد الخبيثة حينما نستعجلك لنحقق أمنية، ونحنُ نخسر حاضرنا الذي نعيشه والذي لن تعطينا الحياة مثله! ما أبلهنا ونحن ننتظر زحفك المقيت على حاضرنا بكل جميل فيه وحبيب، ونحن مفتوحو الأعين كالمذاهيل، ننتظر المستقبل ولا ندري ما هو هذا المستقبل الذي ننتظره؟!

إنما هو رمز يظل أمنية في نفوسنا إلى القبر، بل يخيل إليَّ أن لو أحسسنا داخل القبر لكان أول إحساس هو استعجالك أيتها اليد المقيتة حتى نصل إلى المستقبل!! ما أبلهنا ونحن نستعجلك، وكل يوم يمر يزيد في أعمارنا ويقربنا من الموت، أشد أعدائنا، وكل يوم يزيد الهُوة بيننا وبين كل ماضٍ عزيز.

حدثيني أيتها اليد الساحرة الفنانة، أين هذه الفتاة التي تكتب هذا الكلام من تلك الوليدة الصغيرة المدثرة باللفائف والتي لا تدري من هذا العالم الجديد عليها شيئًا؟ ثم أين هذه من تلك التي تحبو وكل همها في الحياة أن تقف على قدميها، فتحاول الوقوف، فإذا وقفت ومشت بضع خطوات صفّق لها الجميع وفرحوا بها؟ ما لهم لا يفرحون لها الآن حين تمشي مستقيمة الخطوات؟ إنك أنت أيتها الساحرة الرهيبة قد تسللت خفية إلى نفوسهم فأخذت تغيرين آمالهم فيها وإحساسهم بها كلما لمست بأصابعك جسمها وعقلها ومشيت بها في الطريق إلى الشباب خطوة خطوة.

وأين هذه النفس التي تملؤها الأحاسيس والذكريات من تلك النفس الصغيرة البريئة الساذجة التي لا تطلب من الحياة إلا الحنان وبعض المطالب المادية التافهة؟ وأين هذا العقل الصلد الذي يقف في وجه كل عمل لا يجوز، والذي يضع نصب عينيه مطالب المجتمع وأحكامه، من ذلك العقل الصغير الذي لا يدري معنى لكلمة المجتمع ولا يأبه لمطالبه ولا لأحكامه والذي لا يعرف غير اللعب والمرح طول يومه؟ وأين هذه اليد التي تمسك بالقلم لتكتب هذا من تلك التي لا تعرف غير الكرة واللعب والتي لم تكنٍ تمسك بهذا القلم إلا لتصنع به بضعة خطوط متشابكة لا تعني شيئًا ولا تعبر عن شيء؟

أين هذه الفتاة التي تنظر للحياة ولكل شيء فيها هذه النظرة الجدية العميقة، وتعرف وتفهم من أسرارها وظواهرها كل هذا؛ من تلك الطفلة الساذجة التي تطير فرحًا ونشوة لأنها استطاعت أن تتعلم

في مدرستها وتكتب بضعة من حروف الهجاء، واستطاعت أن تعد أصابعها جميعًا؟ من علَّم تلك الساذجة كل هذا حتى صارت هذه الفتاة التي تستطيع أن تفكر مثل هذا التفكير، وأن تذكر تلك الطفلة الجاهلة في عطف وسخرية؟

إنك أنت أيتها اليد القوية الهائلة قد اندسست في كل ذرة فيها تدفعينها إلى الأمام دون أن تشعر بك أو بسيرها البطيء المطرد، حتى إذا وَقَفَت لحظة لتنظر إلى الوراء وَجَدَت الفرق الشاسع بينها الآن وبينها منذ بضع سنين، لقد كانت تظن في كل يوم منها أنها واقفة كما هي لم تتقدم عما كانت بالأمس شيئًا!

أين هذا القلب الذي يعرف هموم الحياة وآلامها، والذي يستقبل كل عيد بالبكاء من ذلك القلب المرح البريء الذي لا يرى في الحياة إلا بهجة وسرورًا ومراحًا، والذي يبيت ليلة العيد يحلم بملابسه الجديدة ولعبه وعيده المشرق السعيد. أيتها اليد القاسية لو غفرت لك كل شيء فلن أغفر لك ما علمته من الهموم لذلك القلب السعيد المنطلق في الحياة بلا قيود.

كم تمنيت أن يعود إلى هذا القلب إشراقه الساذج ومرحه البريء، ولكن هيهات، فإنك تسيرين بنا دائمًا إلى الأمام، ولن تسمحي لنا بالعودة إلى الماضي يومًا.

إيه، أيتها اليد الجبارة العاتية لو كنت أستطيع أن أمسك بك هاهنا لئلا تدفعي بي إلى ما لا أريد.

أنا لا أريد المستقبل مهما تحقق لي فيه من آمال، فإني سأفقد شيئًا أعز من الآمال أو هو منبع الآمال، سأفقد الشباب، ولكن لن أستطيع ولن تستطيع أي قوة أن تمسك بأصابعك المندسة في كل شيء وفي كل مكان وفي كل ذرة في كل جسم حي لتوقفها عن الحركة، بل إني لبلهاء ككل حي على هذه الأرض أستحثك في السير دائمًا لِأَصِلَ إلى المستقبل الجميل لأنه المجهول!

في الليل

إذا هدأ الليل، وغفا الناس، ونام الكون بين ذراعي ذلك الأب الرحيم، الليل كطفل بريء لا تدري نفسه الصغيرة البريئة ما في الدنيا من قذارات، وكأن الليل يضم ذراعيه الحنونين على طفله الحبيب ليحميه وليشعره بالأمن والسلام وبدت نسمات الربيع الرهيبة الساحرة وكأنها تراتيل النوم للوليد الطاهر ينفثها من مزماره السحري ليبعث بها النوم إلى أجفانه المغمضة ويدخل بها الهدوء والسكينة إلى نفسه الطاهرة الوديعة.

وظهر القمر؛ ذلك المصباح الخالد الذي يترك أضواءه تنساب في الدنيا وكأنها لحن ساحر من موسيقى خالدة أو كأنه إحساس راضٍ صادر من أعماق قلب سعيد.

إذا صفت الدنيا وامتلأ الجو حنانًا وتآخيًا شعرت بالوحدة والأسى الراضي الهادئ، شعرت بالحرمان والفقدان بأعمق ما تستطيع أن تحسهما نفسي، شعرت بالأسى، ولكنه أسًى هادئ، فإن نفسي لا تستطيع أن تتمرد أو تثور وهي غارقة في هذا الجو الهادئ الرقيق.

وهممت أن أُخْرِجَ من أعماق قلبي الشقي المشرد في الحياة آهة طويلة تخرج في طياتها بعض ما فيه من ألم وشقاء، ولكني أشفقت أن تكدّر أحلام ذلك الطفل الغافي الهادئ، وتبعث الرعب إلى قلبه الصغير.

أشفقت أن يسمعها الليل فيوحي إلى مزماره الساحر بلحن حزين.

أشفقت على كل جزء في الكون، على الشجيرات الصغيرة على

النباتات المستسلمة على الطيور في أعشاشها .

أشفقت عليهم جميعًا فأرجعت هذه الآهة إلى أعماق قلبي من جديد، وعدت إلى الداخل على أطراف أصابعي، فإني أخاف أن أوقظ بنفسي القلقة الحائرة هذا الهدوء الحالم في ضمير الوجود .

في ضوء القمر

أيها الجو الحالم البديع، شكرًا لك.. إن هذه السعة العجيبة التي لا تستطيع أن تحدها النفس لتغريني بأن ألقي إليك بنفسي جميعها وكل ما فيها من هموم، فتصفيها بنقائك السمح، ثم تعيدها إليّ فإذا هي نقية مثلك كأن لم يكن قط فيها هموم، وإذا هي شفافة كضيائك تمر فيها أحلامها الجميلة الماضية أسرابًا إثر أسراب، تمر في هدوء فلا تترك ألم الذكرى للماضي الذي انقضى ولن يعود.

أيهذا المكان، كم فيك لنفسي من أسرار. وكم وُلِدَ فيك من أحلام نَمَت في جوّك الوادع في بضع ثوان، كم شهدت جدرانك وذرات رمالك المنثورة نفسي وهي تحلم بالسعادة الكبرى التي لا يمكن أن تكون في هذا الوجود، وكم تسمعت إليها وهي تناغي هذه الأحلام بعذب الأهازيج والأغنيات. كم وعى هواؤك من آمال حلوة رقيقة وكم ضم بين طياتك من الصور المسحورة التي رسمها الخيال للجنة الفيحاء الساحرة.

ثم مضى كل هذا أيها المكان الحبيب وتغير كل شيء، واجتاح الفردوسَ لهبٌ من الجحيم، وانقضى الحلم الساحر بالسعادة العظمى، ومُحِيَت الصور الحبيبة، وغشّاها السواد. ولكني أراك الآن كما كنت في الماضي وكأن لم يتغير شيء أو كأنك لم تشعر بأن شيئًا قد تغير. وإذا بك تقابلني بصفائك الواسع الرحيب وكأنني مازلت كالأمس أنثر أحلامي في جوك الهادئ الرفيق. لقيتك بعد غيبة طويلة فإذا بك كما كنت توحي لنفسي بأن تحلم من جديد. ولكن أيها المكان الحبيب، لقد انقضى الحلم ولم أعد أستطيع أن أحلم مرة أخرى. حينما غبت عنك وعن جوك الساحر غير المحدود كنت أبحث في الحياة وأريد أن أعرفها، ولقد عرفتها، فلم أعد أستطيع أن أحلم بالفردوس مرة أخرى! عفوًا أيها المكان الحبيب لقد تركتك لأنني سئمت الحلم في الخيال وأردت أن يكون في واقع الحياة، فذهبت أبحث عنه في الحياة. ولقد بحثت طويلاً فلم أجد له ظلاً، وعرفت أنه لا يكون إلا حلمًا.

وها أنذا أعود إليك فألقي بنفسي المهمومة المكدودة علك تقبلني في رحابك الظليلة مرة أخرى، وعلّك تعيد إليَّ حلمي الذي انقضى، ولكن هيهات فلقد امتلأت نفسي بصور شتى من الحياة.

اليد الخفية

تمر الأيام فالشهور والسنوات
تدب دبيبها الخافت الرفيق
على الأرض وكل ما فيها من قلوب
حيث تنسرب في بطء وئيد هامس
إلى حيث لا ندري ولا نحن نستبين
إلى العوالم المجهولة التي لا نراها أبدًا
حيث تتراءى في نفوسنا من بعيد
خيالاً وذكرى تومض ثم تغيب
فنحس أنها انقضت، وأنها ولَّت، وأنها لن تعود
نحس أنها انقضت في غير ما همس ولا دبيب
نحس أنها ولَّت فلم تترك شيئًا في النفوس
غير ذكريات مختفية تكشفها ومضات من النور.
ثم ينتبه الإنسان بعد قليل أو كثير
فيحس أن نفسه قد تغير فيها كثير
وأنه قد انقلبت فيها الموازين والمقاييس
وإذا هي تحب ما كانت تكره بالأمس
وتكره ما كانت تحبه
وتحترم ما كنت تحتقره في الماضي
وتحتقر ما كانت تحترمه
فيعجب لنفسه على ما انتابها من التغيير والتبديل

ويحاول أن يعرف السر في ذلك التبديل
حينئذ يقف لحظة ليلتفت إلى الوراء
فإذا بتلك الأيام والسنين
كانت تخفي بين طياتها أشياء
أشياء كبيرة كثيرة لا تَبين
وإذا هي تدسُّها في النفس في خفة وهمس
ثم تنسحب في خطوات خفيفة رشيقة
وتمضي كوسوسة خافتة بعيدة
ثم ما تلبث أن تختفي في الظلمات
وهنا يود الإنسان لو يعدو مسرعًا في إثرها
لتعيد إليه نفسه التي كانت قبل أن تجيء.
ولكنه يعدو ويعدو فلا يمسكها أبدًا
فإنها تكون قد توارت في غياهب الذكريات.

عظمة الليل

يا لها من عظمة رهيبة، عظمتك أيها الليل الصامت، ذلك الصمت الذي ينطوي على أروع الفنون الحية الناطقة، كم بين طياتك أيها الصمت الشامل الوديع من قصائد رائعات ومن فن حالم ساحر، إنها قصائد ناطقة صامتة صاغها الخالق الأعظم في صمتك الساحر أيها الليل العجيب.

أيها الليل، إنك في صمتك الناطق لأروع من كل ما صاغته يد الإنسان من الفن منذ الخليقة الأولى.

أيها الليل في صفحتك الساكنة من ذكريات تهمس في رفق فتسري في النفوس توقظها فتحن إلى الماضي وإلى الذكريات، كم فيك من ذكريات القرون ترتسم في صفحتك الباهتة فتحيل النفس إلى جزء من تلك القرون الغابرة تسبح معها في جوّك الهادئ.

أيها الليل، إنني أحب صفحتك الساكنة الرائعة، التي تستطيع أن تضم القرون الغابرة والحاضر والمستقبل دون أن يدخل بينها الزمن فيفصل جزءًا فيها عن جزء.

أيها الليل الخالد، إن هذا الجو الناعس الذي أعيش فيه الآن والذي يجذب نفسي ويدمجها فيه فلا أحس أنني شيء منفصل عنه، بل أنا جزء سابح فيه مع آلاف القرون.. هذا الجو وهذه الصفحة الهادئة قد كانا منذ آلاف القرون يسيران على هذا المنوال الساحر، يختفيان كل يوم مدة ليعودا بعد ساعات يضفيان على السماء والأرض ذلك الجو الفني البديع، فيا عجبًا لهذا، إنهما ليبدوان جديدين، رغم أنهما حافلان بالذكريات، وأنهما ليسيران على هذا المنوال إلى ما شاء لهما الخالق العظيم، وما نحن وما ملايين غيرنا من الغابرين والآتين إلا ذرات تسبح فيهما، ثم ما تلبث أن تختفي وتبقى ذكراها هامسة في هذه الصفحة الخالدة.

أيها الخالق العظيم، إنني أحبك ولا أملك إلا أن أنحني إجلالاً لعظمتك الواسعة.. ويح للملحدين، إن نفوسهم الضيقة التي أفسدها ذلك العقل التافه، الصَّغير بأوهامه وشكوكه وبحثه المقيت، إنها لن تستطيع أن تنحني إجلالاً لخالق تلك العظمة الرهيبة الساحرة.

السماء الزرقاء الحالمة، الأرض الجرداء المنصتة في هدوء، النخلات الساكنة التي تحلم في هدوء منساب فتان، الشجيرات التي تبدو ساجدة لله العظيم. كل ذلك الكون المختلف المتناسق.. إنك أنتَ خالقُه.. أيها الخالق العظيم. فلتنحنِ لك النفوس، وويحُ للملحدين!

أرنب يستغيث

كفاك صراخًا أيها الأرنب العزيز، فما يجديك شيئًا كل هذا الصراخ، لن تنقذك يا أخ هذه الاستغاثة الحارة من هاتين اليدين اللتين أمسَكَتَا بك في نشوة وانتصار بعد طول الترقب والانتظار، لن ينقذك ارتياعك ودقات قلبك المتواصلة ولهفتك العنيفة على الإفلات من مصيرك المقدور الذي هُيِّئَ لك قبل أن ترى العالم وما فيه.

لمَ تحاول الإفلات، ولِمَ تبقَى في جحرك الساعات جوعان لا تستطيع الخروج؟ لِمَ كل هذا، وذلك المصير محتوم عليك قبل أن ترى النور عيناك؟ لا فائدة من هذا يا أخ، فلن ينقذك شيء أبدًا من هذا المصير، وإن بقيت في جحرك عشرات الأيام.

لقد كنت تظن أنك باقٍ للأبد تأكل وتشرب وتنام وتنعم بالحياة، نعم.. نحن كذلك قد ظننا هذا وسرعان ما عرفنا الحقيقة حينما عرفنا الحياة.

لا تُجنّ أيها الأخ؛ فإن هاتين اليدين اللتين تمسكان بك فلا تستطيع منهما الفكاك، إنهما وصاحبتهما وكل من على الأرض مثلك في قبضة الأقدار لا يستطيعون منها الهرب أو الفكاك. إنهم يولدون وينمون ويجاهدون الحياة بكل سلاح، ثم يمضون إلى مصيرهم المقدور الذي لم يضعوه لأنفسهم، ولم يروا كيف وضع ولا متى، يمضون فلا تنقذهم منه استغاثة ولا بكاء.

اطمئن أيها الأخ، فإننا نحن وأنت سواء، لُعَبٌ في يد الأقدار تنفخها حينما تريد، فإذا هي ذرات تتلاشى في الهواء!

الطيف الثاني

أمينة قطب

قصة:

المنوال المسحور

صعدت الدرج وراءها ابنتُها، وفي نفسها أسًى واستسلام وهبوط ، غير أنها عندما دخلت إلى حجرتها قصدت مسرعة إلى المرآة، وأخذت تتفرس في وجهها وكأن بها مسًا من الجنون.

ولقد اعتادت منذ زمن بعيد أن تذهب إلى المرآة عقب مجيئها من الخارج مباشرة لترى وجهها وكيف كان في أثناء الطريق؛ إذ كانت تستنكف أن تخرج المرآة من حقيبتها وتنظر فيها وهي جالسة في الترام أو في أثناء المسير، ولكنها في هذه المرة لم تسرع إلى المرآة بدافع الاطمئنان على شكلها وهيأتها، بل كان هناك دافع آخر أقوى وأعمق في نفسها ولم يطل تحديقها في وجهها أكثر من بضع ثوان، واستدارت بعدها إلى ناحية أخرى وهي تغمغم في تمرد وعنف: «أوه! هذا محال».

لقد فوجئت بهذه الغضون الخفيفة التي بدأت تظهر على جبينها وحول عينيها ولم تكن المفاجأة لأنها رأتها لأول مرة، بل لأن غيرها قد انتبه لها ونبهها إليها..

وجلست لتخلع حذاءها، ولكنها وضعت ساقًا فوق الأخرى في إهمال، وراحت تحدق في ركن من أركان الغرفة بنظرات ذاهلة غائبة.. وكان صوت ولديها الصغيرين اللذين يتنازعان لعبة من ألعابهما في الحجرة المجاورة، كان يلمس أذنيها وكأنه يأتي من مكان بعيد فلا يؤثر في حسها ولا تنتبه إليه. ودخلت ابنتها التي أتمت الثامنة عشرة من عمرها، ومرت أمامها فلم تشعر بها إلا كما يشعر الإنسان بخيال عابر سريع ولكنها انتبهت إليها فجأة عندما رأتها تقف أمام المرآة وتدير جسمها يمينًا وشمالاً وتتملى تقاسيمه في فستانها الجديد وشخصت إليها ببصرها لحظة وبغير تفكير.

ولكن صورة بعيدة ما لبثت أن قفزت إلى ذهنها فجأة وتخطت كل ما مر بعدها من صور، كأن حركات ابنتها أمام المرآة كانت مفتاحًا خفيًا لذلك الركن المغلق الذي انطوت فيه تلك الصورة البعيدة.

لقد كانت تقف أمام المرآة وتتأمل أوضاع جسمها عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها، عندما كانت الآمال تملأ نفسها والدنيا تشع نورًا من حولها، فترى صورًا لعوالم شتى لم تعد تمر بذهنها الآن أو تشغل جزءًا من مخيلتها.

والتفتت إليها الفتاة وهي تبتسم في إشراق وتباهٍ بقوامها الجميل في شيء من الطفولة المحبوبة، وأجابتها هي بابتسامة باهتة تنم عما في نفسها من أسًى وشجونٍ..

وخرجت الفتاة وهي تتبعها بنظرات وكأنها تراها لأول مرة وتحس بوجودها.. أجل، إنها تراها لأول مرة بهذا الشعور المضطرب الذي يملأ نفسها.. إنه شعور ذو ألوان كثيرة متباينة، فهو في لحظة زهو وسرور، ثم ضيق وتمرد، ثم حنق وقسوة، ثم لا يلبث أن ينقلب إلى حنو

وعطف شديد.

وبقيت جالسة ما يقرب من ساعتين، ونفسها مسرح لشتى الأحاسيس والصور. لقد عادت بذهنها إلى ما قبل عشرين عامًا مضت، فعندما كانت في العشرين لم تتزوج بعد.. لقد ذهبت ذات يوم لزيارة صديقتها «بدرية» وجلست وإياها في حديقة الدار الصغيرة، بين الزهور المتفتحة التي تُمثل تفتح نفسيهما للحياة والآمال؛ وراحت كل منهما تتحدث عن مستقبلها وآمالها في الحياة؛ وكم كان يبدو لهما هذا المستقبل جميلاً ساحرًا.. ولم يدر بخلد إحداهما وقتذاك أن الحياة تجمّل لهما ذلك المستقبل وتنمقه في أعينهما، لكي تدخلا طائعتين إلى مذبح التضحية الكبير. إنهما لو علمتا وقتذاك أنهما ستصيران إلى هذا المصير الراكد المتبلد لمّا فكرتا في المستقبل وأطالتا التفكير.

في ذلك اليوم، جلست كل منهما تتحدث في أمل واستبشار، وقد نسيت كل منهما نفسها في ثنايا هذا الحديث؛ وإذا بجدَّة صديقتها ،تلك العجوز الوقور الطاهرة القلب، تأتي لتحييها وتجلس معها ومع «بدرية» بعض الوقت، وأحستا بشيء من الضيق لمجيء العجوز.. إنها ستفسد عليهما جوهما الشاب الطليق.

ولكن آدابهما لم تكن تسمح لهما بإبداء هذا الضيق فتكلفتا شيئًا من الرياء، ورحبتا بالجدة العجوز، وما لبثت هذه الجدة الطيبة أن شغلتهما بحديثها الشائق عن عالمهما ومستقبلهما، وراحت تقص عليهما شيئًا من ذكريات طفولتها وشبابها. وراحت هي تنصت لحديث العجوز، وتنظر إلى وجهها في شيء من الدهشة والذهول، فقد كانت صورة العجوز وهي طفلة شابة لا تستطيع أن تمر بخيالها أبدًا، وانتهت الجدة من حديثها ثم تركتهما وذهبت للصلاة، وأخذت هي تتبعها ببصرها وهي تنتقل في بطء إلى الباب، وقد انحنى ظهرها وتقوست ساقاها، وبقيت صامتة هي وصديقتها لحظات، وراحت تُسائِل نفسها

في شيء من التعجب والذهول: أوَ حقًّا كانت هذه العجوز في يوم من الأيام تجري وتقفز، كما تقول؟! وتعاكس جدتها في صلاتها ونومها؟، ثم هل كانت حقًا شابة جميلة مملوءة بالحياة والأمل، ثم عروسًا في ليلة زفافها، وقد وضعت فوق رأسها تاجًا من الفل الأبيض الجميل؟! وهل يجرؤ الزمن الجبار على أن يحيل ذلك كله إلى هذا العدم؟، وهل يستطيع مهما قسا أن يذهب بشبابها هي وصديقتها ويحيله إلى مثل هذا الفناء؟، هذا محال ولن يكون.. إنهما لن تصيرا هكذا مهما فعل بهما الزمن، لن تستطيع الشيخوخة بل الكهولة أن تقترب من شبابهما الغض الوثاب، إنهما ستتقدمان في السن ولا شك، ولكنهما لن تذبلا ولن يختفي بريق الشباب من أعينهما، ولن تحل محله مثل هذه النظرات الذابلة الرزينة التي تنطق بعبء السنين المرهق الثقيل.. إنهما ستحاولان بكل ما أوتيتا من قوة وعزم أن تقاوما الهرم والشيخوخة حتى تنقضي حياتهما على الأرض.

لقد حدثت صديقتها يوم ذاك في هذه الخواطر جميعًا، ثم ما لبثت كلتاهما أن راحت تقلد نفسها لو أن الزمن استطاع في المستقبل أن يقضي على شبابهما ويحيلهما إلى ذلك الهرَم، ثم راحتا تضحكان في سخرية وكأنهما تستبعدان ذلك اليوم وتظنان أنه من المستحيل...

***

ومضت الأيام بعد ذلك مسرعة، وجدَّت في حياتها وحياة صديقتها أشياء وانتقلت كل منهما إلى الدنيا التي طالما تخيلتها في شتى الصور، وانكشف القناع الذي ظلت الحياة تضعه على أعينهما مدة من الزمن، فإذا بالصور الجميلة التي كانت تملأ مخيلتهما صور زائفة بعيدة عن واقع الحياة، ولكن آمالهما ما لبثت أن تغيرت وأصبحت تتفق مع الطور الجديد الذي بدأتاه في عالمهما الجديد...

وسارت كل منهما في غمرة الحياة لا تحس بشيء بينما الأيام تمضي والسنون، والعمر يولِّي إلى غير رجعة، والزمن يقترب بهما رويدًا رويدًا

من ذلك المصير الذي سخرتا منه في يوم من الأيام..

ولقد حاولت بضع مرات أن تلتفت إلى الوراء قليلاً وتتأمل تلك السنين التي مرت من عمرها، ولكن الحياة كانت تدفعها بعنف إلى الأمام، فلا تلبث أن تسير وهي مغمضة العينين لا ترى شيئًا ولا تحس بشيء.. واليوم فقط تنبهت إلى أنها قد صارت في الأربعين، عندما ذهبت إلى صديقتها وجلست تتحدث مع والدة هذه الصديقة فنصحتها هذه الوالدة بأن تستعمل أحد (الكريمات) التي تساعد على إزالة هذه الغضون، وقد بدأت تظهر حول عينيها..

ما أقسى هذا وما أمره على نفسها! أوَ حقًّا هي الآن امرأة في الأربعين، ولها ابنة في الثامنة عشرة؟! هي فتاة العشرين والثانية والعشرين، قد زحفت بها السنون حتى وصلت إلى الأربعين؟ وذلك الوجه النضر الباسم المملوء بالحركة والحياة.. هذا الوجه قد ظهرت عليه الغضون؟ ولكن كيف ظهرت ومتى؟! وفي أي يوم من الأيام؟! وهل ستظل الأيام تمضي مسرعة دون توقف أو إبطاء؟ وتصل هي إلى الخمسين ثم إلى الستين، وتصير جدة هرمة كوالدة صديقتها؟ لا.. هذا محال. إن هذا قاس ومؤلم لا يطاق، ولن يكون هذا أبدًا.. لن تبدو في يوم من الأيام هرمة جافة النظرات كجميع من ترى من العجائز.. العجائز؟ يا إلهي! هل ستصير هي من هؤلاء العجائز في يوم ما؟ لا.. إن الموت سيدركها ولا شك قبل ذلك.. لكن، أليس هذا الموت الذي تهرب إليه هو الفناء الأكبر الذي تختفي فيه وتتلاشى من الحياة كلها بكل ما فيها من شباب وشيخوخة وهرم؟ ليتها تجد ملجأ آخر غير الموت..!!!

وفي وسط هذا الصراع الدامي طَرَقَ سَمْعَها صوت أحد ولديها وهو يحلم حلمًا مزعجًا، فإذا بها تنتفض واقفة تسرع إلى هناك حيث ينام. وعندما وصلت كان الطفل قد كفَّ عن إحداث ذلك الصوت الذي سمعته وعاد إليه نومه الهادئ العميق، ووقفت تتأملهم جميعًا. إنهم نائمون كالملائكة.. إنهم أبناؤها جميعًا لا يشاركها فيهم أحد.. إنها

هي التي صنعتهم في تلك السنين الطوال.. وتمنت لو ترى ابنتها زوجة سعيدة، ولو ترى ولديها شابين ناهضين قد نالا أرقى شهاداتهما وصار لهما مستقبل زاهر سعيد. ونسيت في هذه اللحظة أنها عندما تتحقق لها أمانيها ستكون هي امرأة هرمة تستعد للرحيل!

في الصباح.. كانت لا تزال مهمومة تائهة، وقد بقيت بضعة أيام وهي مشغولة عن كل شيء بالتفكير في تلك الغضون والشعيرات البيضاء التي ظهرت في مقدمة رأسها، ولكن هذا التفكير المهموم لم يدم طويلاً.. إن تغييرًا عجيبًا قد طرأ على نفسها وكيانها. لقد راحت تضحك كثيرًا وتتحرك في خفة ونشاط عجيبين، بل راحت تغني في كثير من الأحيان وهي تقوم بأعمالها المنزلية، تُرى دفعتها الحياة للسير في غمرتها من جديد، وغيَّرت نظرتها وإحساسها نحو الأربعين؟ أم أنها تريد أن توهم نفسها بأنها مازالت شابة وأن الزمن لن يجرؤ على أن يحيلها إلى الشيخوخة والهِرَم؟ لقد قررت في مساء أحد الأيام أن تذهب إلى أحد الأفلام المضحكة. ولم تكن تميل من قبل إلى هذا النوع من الأفلام، ولكنها اليوم تريد أن تضحك، وأن ترى كل مباهج الحياة التي حرمت نفسها منها منذ زمن طويل.. وجلست تضحك ملء شدقيها وهي تشاهد مناظر الفيلم وقد نسيت كل شيء في حياتها. بينما كان الزمن ذلك الساحر الجبار يجلس هناك، في مجاهل الغيب، إلى منواله الأبدي المسحور، وينسج عليه في ثقة واطمئنان، فيسحب من حياتها خيوط الشباب الحية النابضة، ويضع في مكانها خيوطًا من الكهولة الذابلة والهِرَم الكئيب..

قصة:

رحلة إلى الماضي

لون من الجنون أو من اللهفة أو من الحنين سيطر على حياتها ونفسها منذ أن فارقت والدتها الحياة.. الماضي.. وهذا هو اللفظ الذي كانت ترده في كل يوم وفي كل ساعة، بل في كل عمل من الأعمال التي تقوم بها أثناء فترة النهار، لقد بقيت شهرين كاملين بعد رحيل والدتها وهي لا تستطيع الصلاة؛ لأن صور الماضي لم تكن لتترك لها لحظة واحدة من لحظات حياتها الحاضرة، فقد كانت تصلي في الماضي في حجرة والدتها، وكان وجه أمها هو أول ما يقع عليه بصرها بعد انتهائها من الصلاة، فكيف تقوى على الصلاة في حجرة خالية من ذلك الوجه الحبيب، ومن ذلك الصوت الرقيق الذي يطلب لها من الله الهُدى ويدعو لها بالسعادة والهناء في الحياة؟

كانت تنظر إلى سجادة الصلاة وكأنها شيء مقدس يدفن بين طياته صورًا كثيرة من الماضي لا يجوز أن تمس أو يخلط بينها وبين حاضر بغيض جاف.

ولكن يد الزمن الساحرة الساخرة ما لبثت أن لعبت بأناملها الخفية في حياتها فإذا هي تستطيع من جديد أن تصلي، وأن تباشر تلك الأعمال التي كانت تقوم بها في الماضي. غير أن هذه اليد العابثة لم تستطع أن تنسيها لفظ الماضي، ولا أن تمحو من ذاكرتها تلك الصور الحبيبة التي تتدافع إلى مخيلتها عندما تنطق بهذا اللفظ الخالد المحبوب. وعندما أيقنت بأنها قد فقدت ذلك الماضي إلى الأبد وأنه قد ولّى ولن يعود؛ امتلأت نفسها باللهفة والحنين لأن تعيش في جوه وذكراه ولو بضع لحظات، فلربما تخفف الذكرى من حنينها القاتل وشوقها الملهوف.

وراحت تفكر بعد مضي عامين على رحيل والدتها في أن تقوم برحلات إلى الماضي، وأن تذهب إلى كل مكان كانت قد ذهبت إليه من قبل، فستجد هناك تلك الظلال الحبيبة، فتجدد بها الذكرى كلما حاولت يد الزمن أن تنسج عليها خيوط النسيان.

لقد ذهبت منذ بضع سنوات إلى «القناطر الخيرية» هي ووالدتها وإخوتها لقضاء عدة أيام هناك بين هدوء الطبيعة وجمالها المنساب. وهناك بعيدًا عن المدينة وضوضائها أحسوا أنهم طليقون من كثير من القيود، فألقوا عن كواهلهم بهمومهم، وراحوا يمرحون في جو من الطلاقة والاطمئنان الحبيب.. كانت هي صغيرة في أول عهدها بالشباب والحياة، وكانت همومها صغيرة بمقدار سنها وتجاربها في الحياة، ولم تكن هذه الهموم الصغيرة لتقوى على الوقوف أمام سيل أمانيها وآمالها المشرقة؛ فراحت تمرح في جو طليق.

كانت تقف في مرح جارف بين إخوتها لتشاركهم في صيد الأسماك الصغيرة، وفي قلبها أمانٍ كثيرة وآمال قد اقترن تحقيقها في نفسها

بخروج سمكة صغيرة في الشص الذي تحمله، فإذا ما جذبت الشص وبه صيد قفزت وهللت كالأطفال، فقد ربحت صيدين في آن؛ صيد أمانيها الكبيرة وصيد ذلك الحيوان الصغير الجميل، بينما والدتها تنظر إليها وهي تبتسم في سخرية حبيبة لهذه الطفولة وهذا الفرح الكبير، أما إذا خرج الشص خاليًا من الصيد، فإن نفسها لتضيق بالدنيا لحظات، ويملؤها اليأس حينًا. وإن أمانيها التي قرنت تحقيقها بخروج سمكة صغيرة لن تتحقق، ولكن الآمال ما تلبث أن تتجدد في نفسها، فتعود إلى الصيد من جديد.

وكانوا يخرجون في المساء بعد مغيب الشمس للتمشي فوق «الكوبري» الطويل الذي يفصل بين البلدة والحدائق. وهناك يجلسون على حافة الشرفات الصغيرة المطلة على النيل، يتمتعون بالهواء اللين الندِيِّ، ويستمعون إلى أناشيد المياه الساحرة من تحتهم.. لقد كانت تجلس وتتصور رغم صغر سنها وقلة تعمق إحساسها أن الزمن الجبار قد وقف مسترخيًا صامتًا، يتسمع لأناشيد المياه الخالدة المتدفقة من العيون الصغيرة، وقد سَها عن كل شيء وترك الناس يمرحون ويتمتعون بالحياة دون أن يمد إليهم يده القاسية، ويطمس بها أنوار سعادتهم وآمالهم.. وعندما كانت تمتلئ نفسها بالسرور والسعادة كانت ترفع وجهها إلى السماء، وتتمتم بدعاء لا يسمعه غير قلبها، وتتمنى في ضراعة أن يسهو الزمن عنها فلا يمد يده ويطفئ نورًا من أنوار حياتها، وكانت سذاجتها وغرورها يوحيان لها بأن هذا الدعاء مستجاب. فماذا يضير الحياة لو أسعدتها وحققت لها ما تريد من آمال؟!

إنها لتضحك الآن ساخرة من نفسها عندما تتذكر ذلك الدعاء وذلك الغرور.. لقد أراها الزمن الآن أنه لم يكن لاهيًا عنها وعن الكون، كما كان يُخَيّل لها إحساسُها وفلسفتها، بل كان يمهلها إلى حين حتى يعمق إحساسها بكل شيء فيضربها ضربته القاسية، ويعلمها الحزن والهموم فتلك سنة الحياة ولا محيد عنها لإنسان.

لو أنها كانت تعلم هذا من قبل لسعدت وتمتعت وأحست بالسعادة أكثر مما كانت تحس.. ولكن ما فائدة كل هذا الآن؟!

لقد مضى كل ما كان ولم يترك لها غير هذه الذكريات، فلتعد إلى جوها الحبيب، ولتعش فيه أياما أخر، فربما خفف هذا من همومها وأحزانها الكثيرة.

وفاتحت الجميع في أمر هذه الرحلة ولم تكن تتوقع موافقتهم جميعًا على ما انتوت، ولكنها رأتهم يوافقون ويرحبون. وكان ذلك الشوق والحنين الذي ملأ نفسها هي لذلك الماضي قد ملأ نفوسهم أيضًا،

فرحبوا بفكرتها وراحوا يعملون على تنفيذها في سرعة غريبة وهم لا يشعرون..

***

وركبوا القطار فرحين، وقد اندس في شعورهم الباطن أنهم ذاهبون إلى الماضي بكل من فيه وكل ما فيه، ونسوا بين لغط المسافرين وازدحامهم أنهم في هذه المرة يذهبون وقد اختفى من بينهم وجه حبيب كان في المرة السابقة يرعاهم وينظر إلى كل منهم في شيء من اللهفة والحنان المتسائل ليستوثق من أن ليس بينهم متعب ولا مكدود.

وراح القطار ينهب بهم الأرض نهبًا، وراحت تنظر إلى الحقول والقرى وقد نسيت نفسها بين ما يمر أمامها من مناظر سريعة متلاحقة، غير أنها عندما اقترب القطار من محطة البلدة تنبهت فجأة وتنبه إحساسها، وودت لو يعود بها القطار إلى القاهرة من جديد. إن في نفسها من الرهبة والقلق ما يجعلها تتهيب النزول إلى البلدة والسير في طرقاتها وحدائقها. ولقد تنبهت الآن فقط إلى أن أمها ليست معهم في هذه المرة، بل ليست في عالمهم هذا، وإنما هي منذ عامين في عالم آخر بعيد لا تحس بهم الآن، ولا تشاركهم خطواتهم، ولن تشاركهم بعد اليوم في شيء. ولكن ما أبعد هذه الحقيقة المرة عن النفس وعن الخيال وعن عالم اللاشعور!

ونزلوا من القطار وساروا بضع خطوات. ونظرت إلى وجوههم وإلى أقدامهم وهي تسير فإذا هم ساهمون لا يتكلمون، بل يتحاشى كل منهم النظر إلى وجه أخيه، وهم يودون السير سريعًا ولكن أقدامهم لا تطيعهم، وكأنها تجوس خلال معبد لا تجوز الحركة فيه ولا الضوضاء ،واتجهوا إلى المنزل الذي اعتزموا الإقامة فيه، وعندما وصلت إلى الباب نظرت إليه في شيء من الاستغراب والامتعاض، وقالت بغير تفكير: «أهذا هو المنزل؟!» ولم يكن المنزل رديئًا ولا شائهًا ولكن صورة أخرى لمنزل آخر كانت تملأ ذهنها.. المنزل الذي قضت فيه أيامها في

المرة السابقة، ولم يكن خيرًا من هذا المنزل بل كان أقل منه في النظافة والنظام، ولكنها تريده هو وتحن إليه، ولا تريد هذا الذي لا تعرفه ولا يحفظ لها شيئًا من الذكريات.

وتناولوا الغداء والسكون يخيم على المكان، وفي نفوسهم شعور واحد يحرص كل منهم على أن يخفيه عن الآخرين. لقد كان كل واحد منهم يردد في نفسه جملة واحدة: «ليتنا لم نجئ»..

وفي المساء قبل أن يذهبوا إلى الحدائق ذهبوا لرؤية المنزل القديم، وكأنما هو كعبة يحجون إليها بعد غيبة طويلة وعهد بعيد، وعندما وصلوا إليه وقفوا أمامه برهة واجمين، وفي نفوسهم فجيعة، وفي نظرتهم ذهول.. لقد تغير المنزل وزيد في بنائه فأصبح وكأنه كائن جديد.

ونظرت إلى بعض نوافذه، وحاولت أن تستعيد في خيالها صورتها منذ بضع سنوات، وهي تنظر من هذه النوافذ إلى الطريق وعلى وجهها تلك السذاجة وذلك البِشْر والسرور، بينما والدتها جالسة داخل الغرفة أو منصرفة لشأن من الشؤون. ولكن خيالها قد قصر عن جمع أشتات هذه الصورة وغيرها من الصور. ولم تستطع أن تدرك السبب في هذا القصور: أهو تغير معالم المنزل أم طول العهد بها جعلها غامضة لا تكاد تبين. لقد ندمت على المجيء، وتمنت أن تعود؛ فقد شوشت صورة المنزل الجديد تلك الصورة السابقة التي ظلت تملأ خيالها طوال تلك السنوات. وألقت عليها ظلاً جديدًا لا تريد هي أن تراه، أو تسمح له بأن يتراقص أمام عينيها كلما تذكرت ذلك العهد المحبوب.

وفي اليوم التالي، عندما ذهبوا إلى الحدائق وطافوا بها كانت هناك أماكن قد تغيرت أيضًا، وكان لهذا التغيير وقع في نفوسهم وكأنهم كانوا ينتظرون أن تبقى كما تركوها تنتظر عودتهم إليها بعد غياب طويل! وخطر لهم أن يذهبوا إلى مكان هناك بعيد كانوا يذهبون إليه في الماضي، في مرات متباعدة عندما كانوا يريدون الابتعاد عن الجَلَبة والضجيج، فقد كان بعيدًا منزويًا لا يذهب إليه الناس إلا نادرًا لسكونه وصمته. وكان الطريق إليه طويلاً. وكانت على أحد جانبي هذا الطريق أشجار كثيرة من الصَّفصَاف، طويلة متداخلة تخالها المار لأول وهلة غابة كثيرة الأشجار، وكثيرًا ما كانوا يحسون برهبة وهم يسيرون فيه فقد كان يبدو كالمنقطع عن الحياة وعن عالم الناس.. ساروا إليه مسرعين، وكأنهم معه على ميعاد.

ولكن عندما لاح لهم الطريق بأشجاره وصمته وجدوا أنفسهم يبطئون ويصمتون، وسار كل منهم وراء الآخر؛ إذ كان الطريق ضيقًا لا يتسع لغير واحد أو اثنين. وكلما توغلوا إلى الداخل أحسوا أنهم ينقطعون عن العالم شيئًا فشيئًا. وعندما اقتربوا من نهاية الطريق توقفت هي عن السير لحظة وتلفتت حولها في ذهول، فقد خيل إليها أنها تكاد

ترى طيف والدتها هنا يسير بجانبها كما كانت من قبل تسير. وبدلاً من أن تستريح لهذا الخاطر انتفض جسمها، وأسرعت في السير حتى لحقت بالجمع، وعندما بلغوا المكان وقفوا جميعًا خاشعين، يجيلون أنظارهم فيه قبل أن يجلسوا وكأنهم يلقون إليه بتحية صامتة، إنه المكان الوحيد الذي بقيت فيه أطياف الماضي حية وكأن لم يطأه بعدهم إنسان ولم يلبثوا فيه غير دقائق معدودات، لم يتكلموا خلالها سوى كلمات قصيرة مقتضبة، ثم دلفوا إلى الطريق مسرعين في نفوسهم رهبة وخوف غامض، وكأنهم في عالم مسحور. وعجبت لهذا الشعور، وراحت تتساءل في نفسها: ما بالهم يشعرون بهذه الرهبة وهذا الخوف الغامض القَلِق؟، أو لم يكن مطلبهم أن يجدوا ظلال الماضي في مكان من الأماكن الَتي مروا بها من قبل؟!

أتراها رهبة المكان أم بُعد عهدهم به هو الذي ملأ نفوسهم بهذا الشعور؟ أم تراها روح والدتها كانت ترفرف حولهم وتسير معهم في هذا المكان الصامت المنعزل فتملؤه رهبة وخوفًا لأنها آتية من عالم بعيد؟ ربما كان هذا أو ذاك، وكل ما تستطيع أن تعرفه أنها ترهب العودة إلى هذا المكان!

***

وعندما عادوا إلى المنزل كان يخيم على نفسها شيء من الأسى ومن الخيبة والهمود.. وراحت تردد بين الحين والحين وهي تقوم ببعض الشؤون: «أوه! ما أبعد الماضي عنا وما أبلهنا حين جئنا نعيد أيامه ونعيش في ظلاله وذكراه. هيهات أن ترد الحياة إلى العدم والفناء».

ومرت أيام خاملة متشابهة وخيَّم على وجوههم لون من الكآبة والوجوم. لقد جاؤوا إلى هنا وفي خيالهم ونفوسهم صور حية من الماضي، فإذا هي الآن بعيدة، بعيدة عن عالمهم ودنياهم الحاضرة، وإذا حياتهم خالية مُجَدَّبة، خاملة متشابهة، يبرق فيها شعاع من نور الماضي في قليل من الأحيان ثم يتلاشى ويخلف وراءه الظلام الحالك البغيض.

غير أن نفوسهم ما لبثت أن تمردت على هذا الجو الكئيب، وخيل إليهم أنهم يستطيعون التخلص من ظلال الماضي إلى حين، وأنهم قادرون على أن يعيشوا أيامًا في جو نابض بالحياة سعيد، وقد نجحوا جميعًا في هذا إلى حد كبير ما عدا هي، فقد كانت ظلال الماضي تلاحقها أينما سارت وفي كل عمل من الأعمال.

لقد خطر لها في أحد الأيام أن تغني قطعة فرحة من تلك التي كانت تغنيها فيما مضى، وفي نبرات صوتها رنات من الإشراق والسعادة.

ولكنها أحسّت وهي تردد الأغنية أن في صوتها لونًا آخر غير ذلك اللون، لم تكن تقصد أن تضفيه على الأغنية الفرحة الطروب.. إن فيه أسًى ولهفةً وحنينًا. إنه يعبر عن نفسها وأحاسيسها الآن ولا يدخل في حسابه تلك المعاني التي تضمنتها الكلمات.

وعندما اقترحوا أن يذهبوا في الغداة للتسلي بصيد الأسماك الصغيرة وجدت نفسها ترحب باقتراحهم في شيء من اللهفة والسرور، وأشارت إليهم أن يذهبوا إلى مكانهم السابق الذي كانوا يذهبون إليه، وقد اندس في نفسها بغير تفكير أنها عندما تذهب إلى هناك ستتبدل نفسها وتفكيرها، وستعود مَرِحة طليقة وكأنها قد تخلصت من أعلال حزنها وهمومها، وحينما أمسَكت بالشص وألقت بطرفه في الماء لم تلبث الابتسامة أن فارقت شفتيها، وتساءلت في ذهول، وكأنما عادت من غيبوبة طويلة: أين أمي بوجهها الحبيب ترعاني وتتبسم لي؟ وأين أمانيَّ التي كانت تملأ نفسي وأقرن تحقيقها بصيد هذا السمك الصغير، لقد مضى كل هذا وانطوى في صحائف الزمن وهيهات أن يعود. وأخرجت الشص من الماء وعلى فمها ابتسامة ساخرة، وجلست على الحشائش وراحت تنظر إلى الأمواج البعيدة وكأنها تسألها: أين أمي، وأين نفسي، وأين أماني العذبة الجميلة؟!

وأحست بعد هذا اليوم أنها كانت تقوم بتجارب فاشلة، وأن الزمن والفناء كانا يسخران منها طوال هذه الأيام، وأنه يجب عليها الآن أن تعود.

وفي القطار جلست صامتة وأخذت تجيل بصرها في كل مكان وكأنها تودعه الوداع الأخير.. لقد كانت تنوي ألا تعود!

قصة:

خريف وربيع

وقفت في محطة الترام ما يقرب من نصف الساعة دون أن يأتي الترام الذي تريد، وتململت في وقفتها، ثم استندت بذراعها إلى كتف ابنها فقد آلمتها ساقها التي أصيبت بالروماتيزم، ولمّا يتم شفاؤها بعد.

وجاء الترام أخيرًا، ولكنه كان مزدحمًا لا تستطيع مَن في مثل سنها وبطء حركتها أن تصعد إليه، إلا أن ابنتها دفعتها بسرعة إليه، وكأنها لا تريد أن تعترف بما يفعله الزمن القاسي بكل مخلوق على الأرض من

ضعف ووهن، وما كادت تضع قدميها على السلم حتى تحرك الترام بسرعة فمالت يمينًا ويسارًا وكادت تسقط لولا مساعدة ابنتها الشابة. وأحدث هذا في نفسها هزة عنيفة فراحت تسب الدنيا بما فيها، وتلوم نفسها على مجيئها، وتحملها هذه المتاعب التي لا تستطيع احتمالها من أجل زيارة صديقة لها. وراحت ابنتها تهدئها في لهجة الآمر؛ كي لا يلتفت الناس إليهما من هنا ومن هناك. ولكنها تحولت إليها تلومها وتعنفها، فهي السبب في تحملها هذا الجهد وهذا العناء؛ إذ أجبرتها اليوم على هذا الذهاب لكي تقضي هي وقتًا سعيدًا مع صديقتها سعاد، وأخذت تهددها بأنها لن تطيعها مرة أخرى ما دامت متعبة لا تستطيع الذهاب..

وسكتت الابنة في ضيق وتركتها لكي تهدأ ثورتها الضعيفة التي تشبه البكاء...

وهدأت ثورتها بعد مضي فترة من الوقت، وتلاشت عندما استراحت في مكانها وجلستها.. وراحت تراجع في نفسها ما تفوهت به منذ قليل: لن تذهب إلى مثل هذه الزيارة مرة أخرى مادامت ستلقى فيها شيئًا من العناء؟ كيف يهون الماضي الطويل الذي قضته مع صديقتها الوحيدة، صديقة العمر، فلا تعود تتحمل شيئًا من الجهد في سبيل رؤيتها ،والحياة معها بضع ساعات في ظل الماضي البعيد؟ إن نفسها مهما هرمت وشاخت يجب ألا ينضب فيها هذا الجانب الحي الجميل.. إنه الجانب الذي يجب أن يدفن معها حيًا عندما تموت، إنه الشعاع الذي يستطيع أن يبدد بنوره الكثير من ظلام الشيخوخة في نفسها بعد أن أشرفت من عمرها على الستين.

إنه الجانب الذي يجب أن يبقى شابًا في نفسها ليذكرها بشباب قلبها الحي النابض المملوء بالآمال.. لقد محا الزمن ذلك العهد كما محا غيره من العهود، ولكنه لم يقوَ على محو ذكراه من نفسها..

ونسيت نفسها ومن حولها جميعًا عندما عادت بذاكرتها إلى الوراء

سنين طويلة، ومرت في مخيلتها بعض صور من ذلك الماضي البعيد الغابر الذي مر في حياتها كخيال عابر، وخلّف وراءه هذا الحطام من الجسم والروح..

كانت في مقتبل الشباب، وكانت التقاليد صارمة من حولها لا تسمح لها حتى باتخاذ صديقة لها تشاركها ميولها وشعورها الذي بدأ يتفتح، وكانت تضيق ذرعًا بهذه التقاليد في كثير من الأحيان، فقلبها النابض للحياة الممتلئ بالعواطف والأحاسيس، والذي ينطوي على عوالم شتى جميلة من الآمال والأحلام، كيف لا يضيق ذرعًا بهذا العالم الضيق المكبل بالقيود؟!

لقد كان من ضمن أمانيها الكبرى أن يسمحوا لها بمصادقة فتاة في مثل سنها، وأن يتنازلوا عن بعض ذلك الغلو وبعض تلك القيود.. كانت تتمنى لو تقطن تلك الصديقة المجهولة بجوارهم أو معهم في طابق من المنزل، ولقد ظلت هذه الأمنية تداعب خيالها ما يقرب من عام كلما قست التقاليد وازدادت على قلبها أثقال القيود.. وإنها لتذكر الآن كالحلم فرحتها الكبرى عندما جاء شقيقها من الخارج وأراها عقد إيجار المنزل الآخر الذي أزمعوا الانتقال إليه؛ إذ كانت قد علمت من قبل أن به فتاة تكبرها ببضع سنوات، ولكنها تستطيع أن تتخذها صديقة لها، وكان شقيقها قد وعدها من قبل بأنه سيساعدها في مهمتها، ويسهل لها الطريق لو حاولت الأسرة أن تعترض على قيام هذه الصداقة بينها وبين الفتاة..

وراحت تعد الأثاث للنقل إلى المنزل الجديد وهي تستعجل الأيام والساعات.. وجاء اليوم الموعود، يوم انتقالهم إلى المنزل الجديد..

وركبت السيارة إليه غير آسفة على فراق ذلك المنزل الذي قضت فيه ثلاث سنوات من حياتها، وهمت والسيارة تقطع الطريق بها إليه أن تدعو السائق إلى الإسراع ولكن خوفها من الآخرين حال بينها وبين ما تريد..

ووصلت بعد وقت طويل كما خُيِّل لها، وهناك رأت صديقتها تطل من النافذة لحظة، ثم تتوارى خلف الزجاج حياء من شقيقها.

ومرت الأيام عقب المقابلة الأولى، وراحت الصداقة تتوثق بينهما وكأن كلاً منهما كانت تنتظر الأخرى منذ زمن بعيد..

لقد اطمأنت كل منهما إلى صديقتها، وباحت لها بكل ما تفيض به نفسها الشابة المتوثبة من أحاسيس وما تحتفظ به في صدرها من أسرار.. إن ذكريات أيامها الحلوة الناضرة لتطوف اليوم بنفسها التي جفت وأجدبت بفعل الزمن، فتندي بعضًا من جوانبها، كما كانت تبلل قطرات الماء رمال الصحراء الجافة المتعطشة.. إنها لتذكر جلساتهما

معًا فوق سطح المنزل بعيدًا عن كل من فيه، تلك الجلسات التي كانت تطول في المساء، والتي كان الليل المقمر الساكن يزيد من جمالها وروعتها، عندما ينسرب نور القمر إلى نفسيهما فينير كل جانب من جوانبهما، فتبدو كلتاهما للأخرى بكل ما فيها من أحاسيس وآمال وأحلام، وتحدث كل منهما الأخرى وكأنهما في حلم ساحر طويل. وكم كان يسخطهما أن يفرق بينهما أحد أو يقطع عليهما تلك الجلسات الحالمة، مهما كانت الأحوال والأعذار..

يا الله! كيف رضخت نفساهما إذن لتقلبات الزمن وتغير الأحوال؟، كيف رضخت كل منهما للزمن وللأقدار عندما طوَّحت بأمانيها العذبة الجميلة؟ ليخيل إليها اليوم أنها قد خلقت هكذا، هذه العجوز المريضة الفانية التي تئن وتتألم كلما جلست أو سارت إلى مكان، وأنها لم تكن في يوم من الأيام تلك الفتاة النشيطة المملوءة بالحركة والحياة، الثائرة العواطف والأحاسيس.. وإلا فكيف استطاعت السنون أن تطفئ الجذوة المشتعلة، وتحيلها إلى هذا الركود والذبول؟! ليتها تعود تلك الأيام ولو مرة واحدة قبل أن يقضي الموت على هذا الهيكل الفاني الذي يضم كل هاتيك الذكريات..

***

ولم يوقظها ويردها من عالم الأحلام والأطياف غير صوت ابنتها تنبهها إلى مكان النزول. وقد كانت طوال الوقت تنظر إليها باستغراب وهي غائبة في ذلك الوادي الحافل بالذكريات، ولعلها قد ظنت أن ما رأت هو علامة من علامات الهِرَم والذبول!!

ووصلتا إلى المنزل المقصود، ذلك المنزل الذي عادت إليه صديقتها بعد أن مات زوجها وتزوج أبناؤها جميعًا، ما عدا «سعاد» التي تكبر ابنتها بنحو العامين.. عادت إليه لتقضي فيه ما بقي من أيامها بين ذكريات الماضي وأطيافه، وعندما تخطتا عتبته راحت ابنتها تقفز الدرج قفزًا وهي متهللة الوجه، لملاقاة صديقتها. بينما راحت هي

تستند إلى الحائط كلما صعدت إحدى الدرجات، وقد وقفت صديقتها الهرمة عند نهاية السلم تنتظرها وعلى فمها ابتسامة متلكئة يضيؤها نور من الذكريات البعيدة..

والتقت الفتاتان على قبلات وضحكات عذبة شابة تفيض بالمرح والحياة، والتقت هي وصديقتها على قبلات لاهثة منهوكة مجهدة!

وجلسوا جميعًا في شرفة حجرة الجلوس. وراحت الابنتان تتحدثان عما حاكتا من ثياب جديدة حسب «موضات» العام وعما رأت كل منهما من أفلام جديدة في الموسم الجديد، وعن تلك الثياب التي رأتها كلتاهما على بطلة الفيلم الذي شهدته. وراحت هي وصاحبتها تتحدثان عما قاستا من أحزان وعما جد عليهما من أمراض وعلل يئستا من شفائها.. ونهضت الفتاتان بعد قليل إلى (البيانو) توقعان لحنًا جديدًا سمعته كل منهما في إحدى الروايات الغنائية الجديدة.. وبقيتا هما وحدهما في الشرفة تتحدثان. ومرت لحظات، وطرق سمعهما صوت ناي يعزف نغمات شجية حنونًا، وكان العازف شحاذًا يقف أمام باب المنزل ينتظر ثمن ما سيعزفه من ألحان. وخُيِّل إليهما أنهما قد سمعتا هذا اللحن من قبل أو سمعتا لحنًا يشبهه. وغابت كل منهما لحظات في ثنايا الماضي.. ومضت لحظات سريعة وعادت وهي تقول وعلى وجهها ومضات سريعة من نور الشباب:

«أوه! لقد سمعناه ها هنا مرات وفي نفس هذا المكان، وكأن لم يتغير شيء.. اللَّهم إلا حافات هذه الشرفة التي كانت تشبه الجدران؛ لعُلُوِّها الذي كان يحجب وراءها الأنظار، فيا للماضي الحبيب يعود بعد هاتيك السنين الطوال.. أو لا تذكرين هذا الشحاذ.. أقصد ذلك الشحاذ الذي كان يأتي إلى هنا كل أسبوع ومعه ذلك الصبي الصغير الذي كان يبلغ العاشرة من عمره فيعزف هذا اللحن بعينه، بينما الصبي يغني على نغماته في نَفَسٍ منقطع وحركات مضطربة كانت تضحكنا كثيرًا وتبعث في نفسينا الشفقة والعطف عليه، فنعطيه أضعاف ما كان الناس يعطونه

من الصدقات؟»..

جاءت الفتاتان في هذه اللحظة لتريا ذلك العازف على الناي، وراحت هي تقول بعد أن صمتت برهة وكأنها كانت تستعيد بعض الصور: «ألا تذكرين يوم جاء ذلك الرجل هو وطفله وكنا نجلس ها هنا أنا وأنت وكان «عاصم» يجلس في شرفتنا نحن في الطابق الآخر، هو وإخوتي وبعض الأصدقاء، وقد راحوا يضحكون من الصبي ويشجعونه على ملاحقة اللحن ومواصلة الغناء، ورحنا نحن ننظر إليهم من وراء فتحات الشرفة الصغيرة لنراهم ونسمع أحاديثهم وضحكاتهم دون أن يرونا؟، ثم ألا تذكرين كيف انتبه «عاصم» يوم ذلك إلى حركتنا وسدد نظرة إلينا وعلى وجهه تلك الابتسامة الجميلة الطبيعية التي لم تكن تفارقه أبدًا؟، ثم كيف تراجعنا إلى الداخل ونحن نضحك في خوف وسرور بينما دقات قلبينا تسرع وتكاد تُسمع، وأنفاسنا تضطرب وفي نفسينا دنيا من الأمل والأحاسيس؟، هل كنا نظن وقتذاك أننا سنصير هكذا، وأن آمالنا الحلوة سوف تتحطم ويتحطم شبابنا معها وتسحقنا السنون؟».

واستخفتهما الذكريات فنادتا الرجل الشحاذ الذي كان لا يزال واقفًا ينتظر الأجر، وقد راح ينظر إلى البيت وإلى الطريق وإلى كل شيء هناك، وكأنما يقارن بينه وبين صورة ما في خياله..

وأخذتا تسألانه عن حياته وأحواله وكيف نشأ وكيف يعيش؟ وكأنما قد أنس إلى حديثهما وإلى لهجتهما العطوف، فراح يسرد قصته في تمهل واطمئنان وكأنه يعرفهما منذ زمن بعيد..

ومضت برهة بعد أن سرد قصته بين الدهشة والاستغراب العميق. فإن آذانهما لم تستطع أن تُصدق ما سمعتا من حديث الرجل، وإن كانت نفساهما قد صدقتاه وعاشتا في ثناياه لحظات خاطفات، وإلا كيف يصدق عقلاهما أن هذا الرجل الذي ملأت التجاعيد وجهه وملأ الشيب رأسه، هو ذلك الصبي ابن العاشرة كما يقول؟! وكيف يصدق أنه عاد إلى هذا الحي بعد تلك الغيبة الطويلة وبعد أن جاب القرى والمدن البعيدة النائية؟.

لقد خُيِّل إليهما أنهما تحلمان حلمًا غريبًا عن واقع الحياة!

وراحت كل منهما بعد انصراف الرجل تستعيد في خيالها بعض ما مر بها من ذكريات وتعيدها على مسامع الأخرى..

ولم تلتفتا إلى الفتاتين اللتين وقفتا بالقرب منهما تستمعان إلى حديثهما في ذهول واستغراب لا يخلو من السخرية لهذه الذكريات العجيبة في نظريهما بالنسبة للعجوزين، وكأن خيالهما الشاب لا يستطيع أن يتصور أن هاتين العجوزين المثقلتين بالأمراض والهموم قد كانتا في يوم ما فتاتين صغيرتين تحسان أحاسيس الشباب وتحلمان أحلامه الجميلة الناضرة.. وإلا فهل يمكن أن تبدِّل الأيام تلك الوجوه المشرقة الضاحكة وتملؤها بهذه التجاعيد والكهوف؟!

***

وانتهتا من حديث الماضي، وانطفأ ذلك الشعاع الخافت الذي بعثه

إلى وجهيهما نور الذكريات البعيدة.. وعادتا تتحدثان من جديد عن العلل والأمراض والهموم.. ولم تطق الفتاتان صبرًا فعادتا إلى (البيانو) من جديد، وراحت كل منهما تعزف لحنًا من تلك الألحان التي سمعتها أخيرًا، أو لها في نفسها صدًى، أو أوحت إليها بحلم ساحر من أحلام المستقبل القريب..

قصة:

رسول الفناء

جلست تستمع وتنصت في اهتمام وشوق إلى زوج شقيقتها الذي جاء لزيارتهم حديثًا، وهو يقص عليهم بعض أخبار القرية التي كانوا جميعًا يتشوقون لسماعها، وينتظرون مجيئه كل عام أو عامين بفارغ الصبر ليقص عليهم بعض ما حدث في خلال غيبتهم عنها، وكانت هي أكثر الجميع شوقًا لسماع هذه الأخبار.

فكلهم قد ذهبوا إلى القرية قبل عام واحد، أما هي فلم تذهب منذ سنوات، وتحس أنها لن تقوى على الذهاب أبدًا، فقد ذهبت إليها قبل أن ترحل والدتها إلى العالم الآخر، وقضت هناك شهرين سعيدين بين أهلها وصديقات طفولتها. أما الآن فإنها كلما فكرت في السفر إلى هناك تراءت لها صورة والدتها وصورة الأيام التي انقضت فإذا بنفسها تزهد في الذهاب، وإذا بها تحس أنها لن تقوى على العودة إلى بيتهم مرة أخرى وهو خالٍ من الوجه المحبوب الذي كان يضفي كلَّ شيء فيه ألوانًا من السعادة والحياة.. كل هذا كان يجعلها تصغي إلى أخبار البلدة في شوق وحنين وكأنها آتية من عالم بعيد لا سبيل للوصول إليه أبدًا.

وعلمت فيما سمعت من أخبار القرية أن منزل العائلة الكبير الذي بيع وهي ما تزال طفلة في الثانية والنصف من عمرها إلى أحد أقباط القرية، قد تهدم جانب كبير منه بعد أن مات صاحبه، وأهمله ورثته من بعده.. وأحست بهزة في نفسها لهذا الخبر، وبقيت بضع لحظات ساهمة كما لو كان هذا المنزل مازال ملكًا لهم. ثم ما لبثت أن عادت إلى الجمع تستمع إلى الأحاديث من جديد.

غير أنها عندما أوت إلى فراشها ألفت نفسها تفكر في البيت وما حدث له وتطيل التفكير، وراحت تحاول أن تتذكر بعض معالمه التي أوشكت أن تنزوي في عالم النسيان لطول العهد بها، وعجبت من نفسها لهذا الجهد في التذكر والاهتمام بالبيت وقد مضى على انتقاله من يد أهلها زمن طويل، ولكنها سرعان ما تبينت أن نفسها أو عقلها الباطن لم يعترف بعدُ بأن هذا البيت لم يعد لهم، ولم يعودوا يمتلكون منه شيئًا.. إنه مازال لهم ومازال يحمل طابعهم حتى لو عاش فيه أصحابه الجدد إلى نهاية الزمان، ولم تكن قد عاشت فيه غير عامين ونصف العام من عمرها، ولكن كثيرًا من صوره قد علقت بذهنها وهي لا تزال في هذه السن المبكرة. ولم تكن واضحة تمامًا في ذهنها

وقتذاك. غير أن الحديث عنها فيما بعد قد أوضحها في مخيلتها حتى لكأنما قد رأتها وهي فتاة يافعة، فقد كانت تسمع والدتها وهي تقص كثيرًا من الحوادث التي وقعت بين جدرانه، وكانت تسمع إخوتها الكبار وهم يذكرون الكثير من حوادث لعبهم ومرحهم به، وتلمح على وجوههم ألوانًا من الألم والحنين، فقد بيع هذا البيت على الرغم منهم لظروف قاهرة في حياتهم. وقد بيعت من قبله بيوت أخرى وأطيان ، فلم يكن لبيعها وقع في نفوسهم كما كان له؛ إذ كان بيت العائلة الكبير

الذي نشأ فيه جدها وأبوها وكثير من أفراد العائلة، ثم إخوتها الذين سبقوها وكانت للجميع به ذكريات وأحلام... وإنها لتذكر الآن كالحلم أنها وهي في السادسة من عمرها كانت تذهب إليه كلما سمعت شيئًا من الحديث عنه. وتمر من أمامه بضع مرات رائحة غادية، علها تراه مفتوحًا فتلمح بخيالها كيف كانت والدتها ووالدها وإخوتها يعيشون بين جدران هذا الهيكل المقدس، كما تحس من خلال الكلمات التي تسمعها. ولم تستطع أن ترى منه غير الجزء الخارجي من فنائه الذي يفصله عن الداخل باب كبير في الوسط. وقد بقى هذا الباب مغلقًا في هاتيك المرات، فلم يفصح ولم يُبن عما وراءه من أسرار، وتبقى ما وراءه عالمًا بعيدًا مجهولاً يحوطه السحر والأوهام، واندست في نفسها تلك الأمنية التي كانت تسمع ترديدها من الجميع وهي أن يستطيعوا في يوم من الأيام أن يستردوا بيتهم المحبوب. وجاءت إلى المدينة بعد ذلك، وتغيرت أمانيها وأحلامها، وتلاشت تلك الأمنية القديمة تحت أقدام السنين، ولكنها تركت مكانها حنينًا ورغبة خفية في أن ترى المنزل من الداخل وتتفقد كل جزء فيه. وقد ازدادت هذه الأمنية في نفسها منذ فارقت والدتها الحياة، وكثيرًا ما كانت تحس بحنين غائر عميق لأن ترى ذلك المكان الذي قضت فيه والدتها جزءًا من شبابها.. وها هو هذا الحنين يزداد الآن قوة ووضوحًا لأن ترى البيت بعد أن تهدمت فيه بعض أجزائه وكأنما قد يئس ومل البقاء وحيدًا بعد أن فارقه بُناته ومن عاشوا فيه أطوارًا من الزمان. وأحست أن عزمها على عدم الذهاب إلى البلدة يتلاشى أمام هذا الحنين الذي ملأ نفسها لرؤية المنزل، فإذا هي تقرر الذهاب في العطلة الصيفية التي لم يبقَ على حلولها غير شهرين.. وانتزعها النوم من بين صور عديدة من عهد طفولتها اللاهية البريئة التي كانت تلتقط الأماني من الأفواه التقاطًا، دون أن تعرف مبعثها ولا ما يحيط بها من ظروف قاسية وأحوال.

***

ومضى شهران وحلت العطلة الصيفية التي باتت تنتظرها وتحسب ما قبلها من أيام.. واستعدت هي وإخوتها للسفر وفي نفسها أشجان مكبوتة وأسى.. وعندما ركبت القطار كان شعوران قويان يتنازعان نفسها وتفكيرها: شعور بالفرح لأنها سترى شقيقتها بعد غيبة طويلة وسترى كثيرين من أهلها الذين تحبهم وتشتاق إليهم، وسترى رفيقات طفولتها اللاتي ما يزال لهن في نفسها مكان غائر عميق لم يستطع البعد ولا تقلبات الزمن وتغير الأطوال أن تفعل فيه شيئًا، وستمر بالبيت وترى حجراته وكل ما فيه من أماكن مجهولة غامضة. ثم يتلوه شعور بالأسى العميق لأن وجوهًا كثيرة قد اختفت في خلال غيبتها وستترك هذه الوجوه مكانها خاليًا في كل جزء هناك، ثم المنزل الذي تنتظر أن تراه، كيف ستراه متهدمًا ولم تكن تحسب في يوم من الأيام أن تراه على هذه الصورة التي تمثل العدم والفناء؟ إنها لا تريد أن تراه وهو على هذه الحال لكي تبقى صورته السابقة في خيالها ونفسها إلى نهاية الحياة.. ولكن القطار مضى في طريقه المرسوم كالقضاء، لا يعبأ

بالأحاسيس المرهفة ولا بالخيال والأوهام!

***

ومضى على وجودها في البلدة أسبوعان، وهي في كل يوم تنوي أن تقوم برحلتها إلى البيت، ولكن شعورًا بالرهبة كان يمنعها ويحول بينها وبين الذهاب.. وأخيرًا استطاعت أن تتغلب على هذا الشعور، وأن تسير هي وشقيقتها إليه ذات يوم بعد المغيب.

كان منظر القرية قابضًا، والظلام يمشي إلى طرقاتها الضيقة حثيثًا حثيثًا. ولم يكن يسير في هذه الطرقات غير بعض المارة القليلين، فقد كان ميعاد تناول العشاء، وقد أقفل الناس أبواب منازلهم وذهبوا يتناولونه، وبقيت الطرقات ساكنة خالية من الأصوات حتى لقد خيل إليهما أنهما ذاهبتان إلى وادٍ بعيدٍ عن عالم الأحياء..

ووقفتا أمام الربع المتهدم صامتتين بضع لحظات، ثم تنهدت شقيقتها في أسًى، وراحت تشير إلى بعض الأماكن الظاهرة وتقول:

«كم صحونا في الفجر أنا وأخي والكل نيام، ونزلنا على هذه الدرجات المتهدمة، ثم جئنا إلى ذلك المكان المظلم قليلاً في آخر الفناء، وحللنا البهائم من مرابطها وجئنا بها إلى ذلك الحوض بجانب البئر لكي نسقيها قبل أن يصحو أحد ويرانا، فقد كان محرمًا علينا مثل هذا العمل، وكنا نرى فيه شيئًا جميلاً نتمنى لو نقوم به نحن بدل الخادم المكلف به. وكم وقفت أنا وأخي نحاول أن نملأ الحوض من البئر كما نراهم يفعلون غير مبالين بخطر سقوطنا في البئر دون أن يشعر بنا أحد فيستطيع إنقاذنا، وكم خرجنا إلى الشارع الساكن قبل شروق الشمس وجرينا فرحين، وقد خُيِّل إلينا أن الكون كله مازال نائمًا ونحن وحدنا أيقاظ، وهذا المكان الواسع من السطح الذي تهدم جزء كبير منه كم فرش في ليالي الصيف الحارة والمقمرة وجلس والدي ووالدتي وبعض الأقارب الذين يأتون لزيارتنا وراحوا يتكلمون في شتى الأحاديث، بينما نحن ننتهز فرصة وجود أطفال مثلنا فنملأ الدنيا

بألعابنا المختلفة وضجيجنا. وكم كنا نختبئ في تلك الأماكن المتوازية هناك في كثير من ألعابنا. وكم كنا نستيقظ في ليالي رمضان الصيفية المقمرة، عندما كانت تأتي إحدى قريباتنا للمبيت عندنا وننتهز فرصة ذهاب الجميع لإعداد السحور، وننطلق من كل قيد لنملأ سكون الليل ضجة وصياحًا وضحكًا. وكثيرًا ما كان والدي يأتي إلينا وقد سمع ضجيجنا وينهرنا، فنجري ونختبئ في الفراش بينما الضحك المكتوم يكاد يخنقنا؛ ثم ما يكاد يتركنا حتى نتحرك من أماكننا جميعًا ونعود شيئًا فشيئًا إلى الضجيج، وقد نسينا عقابنا الذي لم يمضِ عليه غير لحظات!!.

وهل كان يظن أحد منا وقتذاك - كبارًا وصغارًا - أن كل هذا سيمضي وأن البيت سيخلو منا ومن كل آثارنا، ثم تنهدم هذه الأماكن العزيزة على مرور الزمن؟!

وغَمَر الأسى العميق صوتها؛ فتهدّج في هذه الكلمات الأخيرة وخنقته الدموع، وسالت دموعها هي أيضًا، وراحت تتمثل في خيالها تلك الصور البعيدة الماضية التي وصفتها شقيقتها وكأنها تعيش في حلم غامض مسحور، وراحت تقول لنفسها وهي تنقل بصرها من مكان إلى مكان: «أَوَحقًا.. قد شهد هذا السطح الصامت المتداعي تلك الليلات الجميلة السعيدة؟ ما باله إذًا لا ينطق عنها الآن ولا يبين؟ وهذا الفناء، وهذه الحجرات، هل تنقل في أرجائها والداها في يوم من الأيام، وقضيا في هذه الأماكن فترة شبابهما وحياتهما؟! يا إلهي.

وهل كان لهما شباب وحياة؟! إذن أين ذهب كل هذا؛ وكيف انمحى ولم يعد لهما ظل على الأرض في عالم الأحياء؟ ترى كان كل ذلك خيالاً ولم يكن حقيقة واقعة؟ وهل ستمضي هي أيضًا وشقيقتاها وشقيقاها ويصيرون جميعًا إلى هذا العدم كما صار والداها؟!

وأحست صوابها يكاد يطير لهذه الخواطر، وأنها توشك أن تصرخ في وجه الفناء، وتقول له: لن يكون هذا أبدًا.. ولكن شيئًا ما حوّل

فكرها سريعًا إليه. فقد برز فجأة شبح من كُوَّة كبيرة في أحد جدران الفناء الداخلي للمنزل، وبُهتت هي وشقيقتها، وتملكتهما رعدة قوية، وهمتا أن تتراجعا إلى الوراء سريعًا.

ولكن شيئًا ما قد أمسك بهما في مكانهما لعله الخوف الشديد أو حب الاستطلاع.

وتبينتا بعد قليل ذلك الشيء الذي برز من كُوَّة الجدار.. إنها عجوز في نحو الثمانين من عمرها في هيئة رثة غريبة، ترتدي جلبابًا أسود فضفاضًا، وتعصب رأسها الناصع البياض بخرقة سوداء تبدو مخيفة فوق رأسها الأشعث الشعر، ووجهها الغائر العينين، البارز الوجنتين، المملوء بالتجاعيد والكهوف التي تشير إلى سقوط الأسنان من تحتها، وإلى مكانها الخاوي المتداعي. وكانت تمسك بيدها الناحلة البارزة

العروق عصا غليظة خشنة، وقد انحنت عليها فبدا تقوس ظهرها المنكمش الضامر، وأخذت تنتقل وهي تتوكأ على عصاها من مكان إلى مكان بين الأكوام والتراب، وتتلفت يمينًا ويسارًا في اهتمام شديد وتخرج بين الفينة والفينة صوتًا ضعيفًا يشبه الحشرجة، وتتكون بين ثناياه لفظة «هش» واستطاعتا في وسط الذعر الذي استولى عليهما أن تفهما كل شَيء.. إنها عجوز تقطن بيتًا مجاورًا، وقد تهدم الجزء من الجدار الذي يفصل بين البيتين، وإنها قد برزت من وسط الجدار وراحت تبحث عن بعض الدجاج الذي تظن أنه قد اختبأ بين الجدران المتهدمة.. غير أنها سرعان ما تخيلت للعجوز صورة أخرى لم تلبث أن ملأت نفسها رعبًا. فقد خُيِّل إليها أنها «رسول الفناء» قد برز من عالم مجهول، وراح يتفقد كل جزء في البيت ليثق من أن كل شيء فيه قد انمحى وزال. وخُيِّل إليها أن بقية الجدران مازالت قائمة ستنهار الآن بعد أن يختفي «رسول الفناء»، فيكون قد أتم رسالته في جزء من عالم الأحياء....

واختفت العجوز بعد قليل في الكوُّة التي برزت منها، وكان الظلام قد خيم على المكان، فبدت العجوز كالشبح وهي تتوارى خلف الجدار، وتملّكهما خوف وفزع شديدان، وخُيِّل إليهما أنها قد سُمِّرتا في مكانهما فلن تستطيعا الحراك من هذا المكان المسحور.

ولكن شقيقتها ما لبثت أن تمالكت نفسها وسحبتها من يدها بسرعة إلى الشارع العام، وقد أخذت كل منهما تلتفت إلى الوراء في رهبة وفي غير تفكير. وعندما خرجتا إلى الطريق العام أحسَّتا أنهما كانتا مسحورتين في عالم بعيد مملوء بالخيالات والأشباح، ولم تستطيعا أن تذهبا مرة أخرى إلى الربع المتهدم طوال المدة التي بقيتها هي في القرية، فإن صورة العجوز الفانية المتداعية وهي تنتقل وقت الغلس قد ملأت خيالهما رهبة وفزعًا..

وعادت إلى المدينة وقد رسخ في خيالها أن العجوز التي رأتها بين

الجدران ليست من البشر، وأنها قد خلقت منذ الأزل هكذا كما رأتها، وأنها ستبقى حتى نهاية الحياة تؤدي رسالة الفناء حتى تنقضي حياة البشر، ويفنى كل الفناء في لا نهائية الوجود الأعظم الذي لا يدركه الفناء ولا يزول...

***

وفي زيارة لإحدى صديقاتها مرت ببيت متهدم خرب وتوقفت لحظة بغير تفكير، وخيل إليها أنها سترى تلك العجوز التي رأتها هناك في القرية، تدب بعصاها بين الأكوام كما فعلت هناك. فهي لن يحدها زمان ولا مكان مادامت هي الرسول الذي يختتم أعمال الفناء في أي مكان على الأرض، وملأت جسمها قشعريرة شديدة، وبقيت لحظة تحدِّق في زويا المنزل البعيدة المتوارية التي يكتنفها الظلام، وامتلأ خيالها بصورة العجوز وهي تبرز من كوَّة بعيدة ثم تأتي إليها وتكتم أنفاسها دون أن يراها أحد أو يشعر بها إنسان. وارتعش جسمها وازدادت دقات قلبها، وأسرعت أنفاسها، وأدركتها شجاعة الخائف فتحركت وجرت مسرعة وهي تنظر إلى الخلف وكأن شيئًا يتبعها حقًّا.. وعندما بعدت عن البيت نظرت وراءها في اطمئنان المنتصر بعد معركة طويلة.. وقد خُيِّل إليها أنها نجحت وأفلتت من «شبح الفناء!!

قصة:

ثياب العيد

عندما مالت الشمس نحو المغيب وأرسلت أشعتها الباهتة المتراقصة، رفع عبد التواب رأسه وهو يلهث، ثم انتصب قليلاً ووقف ليستريح مستندًا إلى فأسه وأسبل عينيه لحظة في إعياء وقد بدا على وجهه ذلك الاصفرار القاتم الذي يلازمه منذ أن نجا من مرضه الخطير، ولم يستطع أن يأخذ قسطًا من الراحة، وعاد إلى عمله المرهق الذي يتقاضى عنه أجره الضئيل، وبعد أن بقي ما يقرب من أسبوعين وهو يستدين ثمن قوته وقوت أطفاله من زملائه ومعارفه طوال مدة المرض...

ورأى من بعيد ذلك الرجل القاسي الذي يشرف عليهم ويراقبهم في عملهم طوال اليوم.. رآه آتيًا من بعيد وفي يده تلك العصا الغليظة التي لا تفارقه، وكأنه يسوق قطيعًا من الغنم.

فانكفأ في الأرض من جديد، وراح يعمل بينما كل ذرة في جسمه الواهي تتوق إلى الراحة والنوم وكأنهما شيء بعيد المنال. وكأن السماء الرحيمة قد أبت إلا أن تجيب رغبته وترحم جسمه المنهك ولو إلى حين، فحجبت ما بقي من أشعة الشمس بسحابة كثيفة سوداء، وما لبثت أن اتسعت وازدادت كثافتهما وأنذرت الأرض بمطر غزير.. ولم يجد الرقيب بدًّا من أن يأذن لهم بالرواح لكي يذهب هو ويقي نفسه ذلك الصقيع.

وحمل الجميع فؤوسهم وساروا صامتين، وكأنما هم قطيع من البهم لا يتكلمون، ولكنهم ما لبثوا أن راحوا يتحادثون في شؤونهم، بعد أن ابتعد عنهم سائقهم الجبار.. تلك الشؤون التي تنم عن ألوان من الحياة الشاقة المضنية.

وعندما أوشك الطريق الزراعي على الانتهاء وبدا ذلك القصر الفخم الذي أقامه صاحب الضيعة وسط تلك الحديقة الجميلة، ليكون مقرًا له في الأيام التي يعن له قضاؤها هناك.. عندما بدا لأعينهم أخذوا يلتفتون إليه الواحد تلو الآخر، وقد توقف بعضهم عن الكلام وفي نفوسهم من الأحاسيس ما تعبر عنه نظراتهم الزائغة المتمنية. ومع أنهم يمرون بهذا القصر في الصباح وفي المساء إلا أنهم لم يملُّوا النظر إليه والتطلع إلى كل جزء فيه، وكأنه حرم مقدس تهفو نفوسهم لأن يلمسوا أرضه بأقدامهم ولو مرة في الحياة!..

وعادوا إلى أحاديثهم بعد أن تجاوزوا هذا الحرم بقليل.. وانتهت الطريق وظهرت أكواخهم القصيرة السوداء، وراحوا يتفرقون إليها وهم يحيون بعضهم بعضًا تحيات المساء المعتادة بعد طول العناء.

وسار عبد التواب وحيدًا فقد كان بيته في نهاية الطريق.

سار متهالكًا وقد عادت إليه همومه الكثيرة بعد أن فارقته قليلاً وهو يسير مع الرفاق.. فمنذ أن قاوم مرضه وعاد إلى عمله وهو يفكر في الطريقة التي يسد بها دينه الذي اقترضه وهو مريض.

فهو يتقاضي خمسة قروش في اليوم، لا تكاد تكفيه ثمنًا للخبز والملبس له لزوجته وأطفاله الثلاثة وابنته التي تبلغ الرابعة عشرة والتي تقوم ببعض الأعمال فتساعد أهلها على الحياة، فكيف يستطيع أن يوفر ذلك المبلغ وهذه حاله وحال أولاده؟ ثم إن العيد قد قرب، وأطفاله الثلاثة يسألونه كل يوم: متى سيحضر لهم ثيابًا جديدة بعد أن بليت ثيابهم وأصبحت لا تقيهم برد الشتاء.. وإنه لحائر بين كل هذا ولا يدري بماذا سيجيب دائنيه، وبماذا سيجيب أطفاله بعد أن وعدهم كثيرًا بشتى الوعود. لقد أصبح يرهب العودة إلى البيت ويخاف أطفاله كما يخاف دائنيه. فهو لن يستطيع أن يوفي لهم بما وعدهم من ثياب جديدة، وهو في هذه الحال من الضيق.

وعندما اقترب من البيت وجد أطفاله يلعبون مع بعض رفاقهم، وقد ظهر بعض من أجسامهم من خلال الثقوب التي تملأ ملابسهم.. ونظر إليهم في حسرة ومرارة ولكنه لم يحاول أن يشعرهم بمجيئه وكأنما يتهرب إلى حين من أسئلتهم ومطالبهم، غير أن أحدهم لمحه وهو يدخل فجرى وراءه مهللاً وما لبث أخواه أن لحقا به، وفي هذه المرة لم يبدؤوه بالسؤال عن ثياب العيد بل راحوا يخبرونه بأن أمهم قد أحضرت شيئًا من اللحم وأنها تطهيه الآن هي وأختهم الكبيرة.

وعجب هو لهذا الخبر، فما يعرف أن لدى زوجته نقودًا تستطيع أن تشتري بها لحمًا كما يقول أطفاله.. ولكنه عندما دخل ورأى زوجه منهمكة في إعداد الطعام أبرقت أساريره وغمر نفسه شيء من السرور والرضا، وعرف أن زوجه قد اقتصدت بعضًا من النقود لتهيئ بها هذه المفاجأة السارة..

وعاد أطفاله إلى سؤالهم اليومي عن الثياب الجديدة التي وعدهم

بها، ولكنه في هذه المرة لم يضق بهم، بل راح يعدهم وفي نفسه شيء من الأمل والرجاء.

وتناولوا طعامهم الشهي الذي طالما تاقت نفوسهم إليه منذ زمن بعيد، وانتهوا من العشاء وجلسوا يتسامرون وكأنما هذه الليلة من ليالي العيد التي يلقون فيها بهمومهم ومتاعبهم. وأقبل عليه ضيفان من زملائه فاستقبلهما في بشاشة وترحيب وجلسوا يتحدثون في شؤونهم وحياتهم ومطالبهم. ذلك الحديث الذي يتذاكرونه كلما اجتمع اثنان منهم في مكان دون أن يملوا أو يدركهم التعب، وتطرق الحديث إلى صاحب الضيعة وناظرها ووكيله الذي يسوقهم في أعمالهم كما

تساق السائمة.. وراح كل منهم يفضي بما في نفسه من غيظ وحنق. وفيما هم على هذه الحال من الشكوى والتذمر؛ إذ بهم يسمعون طرقًا غليظًا على الباب وصوتًا عاليًا عرفوا فيه صوت ذلك المخلوق القاسي الذي يراقبهم وهم يعملون، ودب في قلوبهم الذعر خوفًا من أن يكون قد سمعهم وهم يتحدثون فيشي بهم، ويصيبهم غضب الناظر وصاحب الضيعة ومن بيدهم الأمر. ولكنهم لم يلحظوا عليه ما يدل على أنه قد سمع شيئًا، ودعوه للجلوس تملقًا وزلفى، واشتركوا في إحضار بعض الشاي والسكر من الخارج ليصنعوه تكريمًا له وحفاوة به وعرفوا منه أنه قد أتى لينبه على بعضهم لكي يخبروا الجميع بأن «البك» سيأتي قبل حلول العيد بيومين ليقضي العيد في الضيعة هو وزوجته الجديدة، وأنهم يجب أن يضاعفوا جهودهم لكي يُسر «البك» ويرضى عن أعمالهم.

وما إن تركهم وذهب حتى عادوا إلى أحاديثهم التي تفيض بالمرارة والأشجان، وراحوا يتساءلون: كيف يستطيعون مضاعفة جهودهم؟ وهل لديهم من الجهد ما يبذلونه من جديد؟

لقد أضناهم التعب ولم تعد أجسامهم تحتمل شيئًا غير ما تحملت حتى الآن.

***

وتفرقوا بعد مضي وقت من الليل، وبقى عبد التواب وحده لحظات.. وراح يفكر كيف يستطيع أن يضاعف جهده وهو ما يكاد يحتمل هذا الجهد؟ إنه لو جاهر بهذا الضعف الذي يحس به فسوف يطرد بغير شك. إذن يجب أن يرضخ ويبذل من الجهد فوق ما يطيق حتى ينقذه الله من هذا العذاب..

ومضى إلى النوم وهو منهوك الجسم، خائر الأعصاب. وعلى ضوء المصباح الضئيل، ألقى نظرة حائرة على أطفاله في أسمالهم وقد افترشوا قطعًا من الخيش على سطح «الفرن» وتغطوا بمثلها وراحوا

يَغطُّون في نوم عميق، وأخذ يفكر من جديد في ملابسهم وقد قرب العيد، وظل مؤرقًا بضع ساعات من الليل.. وأخيرًا خطر له خاطر غريب ما لبث أن استراح له واطمأن. لقد سمع من زملائه أن زوجة «البك» الجديدة سيدة طيبة راقية لأنها ابنة أحد الباشوات، فلابدَّ أن تكون رحيمة بهم ولن تحتقرهم كما كانت تفعل زوجه السابقة، فلمَ لا تذهب ابنته وأطفاله يوم مجيئها ليسلموا عليها، فإذا ما رأت ملابسهم فربما تعطيهم نقودًا ليشتروا غيرها، بل إنه لا شك سوف تعطيهم نقودًا بمثابة زكاة العيد.

وطرق النوم جفنيه بعد أن تخيل أطفاله يرفلون في ملابسهم الجديدة فرحين!

وفي الصباح كاشف زوجه وأطفاله بما انتوى ففرحوا بما سمعوا وهللوا، وراحوا ينتظرون ذلك اليوم السعيد، وفي اليوم الموعود

استيقظوا منذ الصباح الباكر وهم فرحون، وكأنهم قد ضمنوا كل ما يطلبون. وهناك بجانب سور القصر الفخم وقفوا مع غيرهم ممن أتوا ليروا زوجة البك الجديدة وقد طمعوا في عطفها ومِنَحها التي يتمنونها لطول العهد بهم في الشظف والحرمان. ولم يمضِ وقت طويل حتى سمعوا صوت سيارة قادمة من بعيد، فاختلطت جموعهم وتداخلت في بعضها البعض وهرعت الفتاة هي وإخوتها إلى الأمام، ووقفت هناك حيث تكون قريبة من الباب.

ووصلت السيارة ووقفت أمام باب القصر، وفتح بابها وبرزت منه زوجة «البك» في ثيابها الثمينة الفاخرة، وقد لفحت حول عنقها فراءً ناصعًا جميلاً.. وتقدم منها الأطفال والفتاة فرحين يهنئونها بالوصول، وأرادت الفتاة التقرب منها أكثر من الآخرين، فمدت يدها مسلِّمة وهي تبتسم في حياء بريء ولكن الهانم نظرت إليها في شيء من الاستغراب والسخرية، ثم تركتها وغابت في حديقة الدار الجميلة، والتفتت إلى زوجها في ضيق، وهي تقول: «ألم أقل لك أن نذهب إلى مكان آخر لنقضي به العيد بعيدًا عن هذه الحشرات القذرة، التي تنغص علينا الحياة هنا، وتفقدنا بهجة العيد؟». فأجابها مطيبًا خاطرها، طالبًا منها أن تدعهم، ولا تشغل بالها بمنظرهم الكريه القذر، ثم سارا جنبًا إلى جنب في الحديقة وغابا وسط الزهور والأشجار، بينما وقفت الفتاة لحظة مشدوهة لهول المفاجأة، وكأنها لا تصدق أن أحلامها وأحلام الصغار قد انهارت بهذه السرعة الخاطفة، وأحست بأنها تكاد تسقط بجانب الجدار، ولكنها تمالكت نفسها، وانسلت من وسط الجميع، وأمسكت بيد أصغر أشقائها وتبعها الآخران، وراح ثلاثتهم يتساءلون في ضيق ولهفة عما سيفعلون بعد أن لم تعطهم زوجة «البك «نقودًا ليشتروا بها ثياب العيد؟.. ولم تستطع أن تجيبهم على أسئلتهم بغير كلمات قصيرة لم تهدئ من ثورتهم ويأسهم، ثم حوّلت وجهها بعيدًا عنهم ومسحت بطرف كمها بعض قطرات الدموع..

قصة:

أختان

لم تكد تمر بضعة أيام من رمضان حتى راحتا تستعدان لاستقبال العيد بكل ما في نفسيهما المتفتحتين من أمل واستبشار، فقد اشترى لهما والدهما ثياب العيد الجديدة الزاهية مع إخوتهما الصغار. وذهبتا معًا إلى الحائكة لتفصيلها كعادتهما في كل عيد، بل كلما أحضرت لهما

ثيابًا جديدة. وفي الطريق دارت بينهما الأحاديث عما ستقومان به من أعمال قبل العيد وفي خلال أيامه.

فعلى الرغم من أنها لم تتعد الرابعة عشرة من عمرها ولم تتعد شقيقتها الثانية عشرة والنصف، فإنهما تشتركان في أعمال المنزل الكثيرة التي تتطلبها حياة القرى ولم تكن إحداهما لتستطيع أن تنفصل عن الأخرى في الأعمال المنزلية. ففي الليل عندما يصعد والدهما وجدتهما وأعمامهما إلى سطح المنزل كعادتهم في كل مساء بعد تناول الإفطار لكي يتمتعوا بالهواء النقي من دخان المواقد والأفران. عندما يصعدون ثم يحتاجون إلى شيء ما من الطابق الأسفل تذهبان معًا لإحضاره، فإحداهما تحمل مصباح البترول والأخرى تقوم بالعمل المطلوب، وفي أثناء صعودهما السلم تخيف كل منهما الأخرى بما يختبئ في زوايا الدار من (عفاريت) فتقفزان الدرج قفزًا وهما تضحكان في جلبة لطيفة محبوبة.

هكذا هما في كل شيء وفي كل عمل من الأعمال خارج الدار أو داخلها. فهما أختان في الأعمال التي تقومان بها مثلما هما أختان في اللَّحم والدم.

سارتا تتحدثان عما ستفعلانه في العيد، بعد أن يذهب والداهما وأعمامهما وجدتهما إلى المقابر لزيارة قبر جدها الذي مات منذ سنوات كثيرة، ومازال الجميع يذهبون إلى قبره بالهدايا والهبات في كل عيد. وراحتا تذكران أسماء صديقاتهما اللاتي سيأتين للعب معهما يوم العيد. بعد أن يذهب الجميع ويخلو لهما الجو.

إنهما ستصحوان عند بزوغ الفجر، وتتناولان طعام الإفطار مع الجميع، وما إن يركب والداهما ومن معهما الإبل ويتجهوا نحو المقابر

حتى ترتديا ثيابهما هما وإخوتهما الصغار، ثم تقبل صديقاتهما اللاتي تواعدن معهما من قبل، فيخرجن جميعًا إلى حيث الرحبة الواسعة في طرف القرية الغربي، حيث نصبت الزينات والأعلام الصغيرة، وامتلأت الساحة بالطبول والمزامير، ومختلف أنواع اللعب والحلوى، وهناك سيقضين بضع ساعات، ويبتعن ما حلا لهن من لعب وحلوى بأصنافها الجميلة المتعددة.

وعندما يقبل المساء سيجتمعن أيضًا أمام الدار، وسيلعبن كل ما يحلو لهن من الألعاب التي يحفظنها، وسيغنين أيضًا كل ما يحفظن من أغاني العيد والحج والأعراس، وأخيرًا سيجلسن على المصطبة، وتروي كل منهن ما لديها من أحاديث ممتعة، حتى يتأخر الليل ويوشك المصباح الذي ينير لهن المكان أن يحرق آخر ما في جوفه من البترول. وعندئذ سيتفرقن كل إلى بيتها بعد أن يتواعدن على اللقاء في الليلة التالية..

هذا ما تنتويان أن تفعلاه في العيد، فهو آخر عيد تستطيع أن تحتفل به هي وشقيقتها على هذا المنوال. فقد علمت من والدها أنها ستحجز في المنزل قريبًا فلا تخرج للعب ولا إلى الطريق العام، كعادة بنات العائلات في الريف عندما يبلغن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرهن.

وعادتا من منزل حائكة الثياب فرحتين مستبشرتين، فقد قالت لهما: إنها ستزين ثيابهما (بالخرز والترتر) الجميل، وأخذتا تصفان لوالدتهما ما ستكون عليه الثياب الجديدة من جمال وزخرفة بديعة، وراحت أمها تستمع إليهما في سرور وزهو. فقد صارتا فتاتين جميلتين كاملتين، وهي أمهما التي أنجبتهما وربتهما حتى الآن! ولقد بدأت الأنظار تتجه إليهما على الرغم من أنهما مازالتا صغيرتين.

وانقضى النهار وجاء الغروب، وتناولوا الإفطار، وصعدوا إلى سطح المنزل كعادتهم يستريحون ويتسامرون. وانتهت هي وشقيقتها من أعمالهما المنزلية، وجلستا في الجانب الشرقي من السطح الذي يفصل بين شرقه وغربه ممشىً طويل تظلله بضع نخلات قد نبتت في جانب من فناء البيت، وراحتا تعيدان ما قالتاه عن العيد واللعب والصديقات، وراح إخوتهما الصغار وأبناء عمهما يجرون ويلعبون في الممشى الذي يفصل بين جزئي السطح، ويجلسون معهما تارة ويذهبون إلى باقي أفراد العائلة تارة أخرى بين الضجيج والصياح بأصواتهم الصغيرة الرقيقة...

وانقضت من الليل ساعات، وبدأ السكون يقترب رويدًا رويدًا من المكان، فقد خفت حركة الأطفال شيئًا فشيئًا حتى تلاشت، إذ ناموا

جميعًا الواحد بعد الآخر، ولم يعد يسمع من أصواتهم إلا غطيط نومهم الآتي من بعيد ..

وابتدأ القمر يتراءى من خلال سعف النخيل، ويلقي بضوئه الضئيل على الجانب الآخر من السطح، فتبدو ظلال النخيل من بعيد كأشباح الموتى، تتحرك في بطء في هالات من النور الخافت المخيف. وإذا بشقيقتها تحدق قليلاً في الفضاء والظلال ثم تنتفض في ذعر، وتلتصق بها، وتدفن رأسها في صدرها خوفًا وتقول لها: إنها تخاف من ظلال النخيل، وتتخيلها أشباحًا تقترب منها وتبتعد. فإذا بها تضمها في حنان

كحنان الأم، على الرغم من أنها لا تصغرها إلا بعام ونصف عام، ثم تهدئ من خوفها ورعشتها، بالرغم مما بعثه هذا الخوف في نفسها هي من قلق ورهبة. وما أن هدأت قليلاً حتى أخذت تسألها ورأسها ما يزال مسندًا إليها، أسئلة غريبة مخيفة، لقد سألتها: أما يخاف الموتى في القبور من الظلام الحالك من حولهم، وعندما يختفي نصف القمر الآخر ويبدو نورًا ضئيلاً مخيفًا هكذا فلا يدخل إليهم من بين الرمال؟ ولم تردَّ هي على هذه الأسئلة إلا بكلمة واحدة: لا أدري. فقد ملأ الخوف والذعر نفسها، فنهضت وسحبتها من ذراعها، وأسرعت إلى حيث يجلس الجميع.

ولم تبارح أسئلة شقيقتها خيالها، بل راحت تبعث إليها بشتى الصور المخيفة المفزعة. ونامتا في هذه الليلة وكلتاهما تتوسد ذراع الأخرى، من الخوف الذي استولى على نفسيهما معًا.

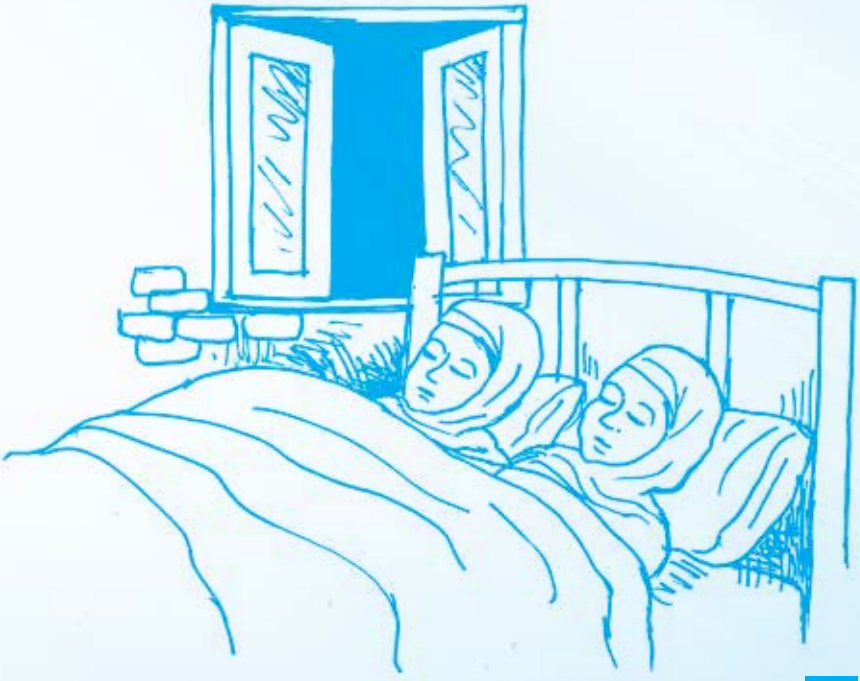

وعندما أقبل الصباح بدَّد بنوره تلك الهواجس التي استولت عليهما بالأمس ولكنها عندما أقبل المساء عادت إليها تلك الصور التي بعثتها إلى نفسها شقيقتها الغريبة غير أنها كانت أقل رهبة في نفسها من الأمس..

ومضت ثلاثة أيام ازداد تعلق كل منهما بالأخرى، وأضحى ثقيلاً على نفسيهما أن تفترقا في عمل من الأعمال، فهما دائمًا تتحدثان عن المستقبل القريب الذي تستعدان له، وعن المستقبل البعيد وما سيكون فيه بعد سنوات.. وفي الليلة الرابعة نامتا متأخرتين عن ميعاد نومهما بساعات. فقد كان بالمنزل بعض أقاربهما وكانتا مشغولتين، وقالت هي إنهما ستنامان حتى الضحى، وقالت الصغيرة إنها ستنام كثيرًا في الغد، وستتركهم ينادونها حتى يضيقوا بها فيتركوها تنام. وتوسدت كلتاهما ذراع الأخرى، وهوَّم على وجهيهما النعاس، ثم راحتا تغطان في النوم العميق. غير أن الصغيرة ما لبثت أن استيقظت مذعورة صارخة وقد أمسكت بجانبها الأيمن، واستيقظ الجميع على صوتها، وأخذوا يفتشون الفراش في مكانها، وما لبثوا أن عرفوا السبب في صراخ الصغيرة وبكائها وتغيرها، إنها عقرب قد اندست في فراشها ولدغتها بضع لدغات، وامتلأ جسمها بالسم..

وراحوا يُجرون لها الإسعافات المعتادة في الريف، ولكنها لم تفد شيئًا، فاعتزموا أن يذهبوا بها إلى المدينة في الصباح لكي تعرض على طبيب من أطبائها. وما إن بزغ النور حتى ذهب والدها إلى مكان وقوف السيارات لكي يحضر لها إحداها سريعًا. ولكنه عندما عاد كانت الصغيرة الحبيبة تنام ومن حولها الجميع ينادونها في جنون وهي لا تسمع لهم ولا تلبي النداء..

وراحوا يعدون العدة لرحيلها من بينهم حيث لا تعود..

وراحت الشقيقة تنظر إليها بين الحين والحين وهي تصرخ وتسائلها: ماذا ستفعل وحدها في العيد؟ وماذا ستفعل بالثياب الجديدة وباللعب

وبكل ما كانتا تعدان؟ ثم تكشف وجه الصغيرة وتدني رأسها منه، علَّها تسمع جوابًا على أسئلتها ونحيبها، ولكن عيني الصغيرة تظلان مسبلتين، ويظل فمها مطبقًا لا يتحرك ولا يجيب؛ فتضمها إليها وتروح تلثم وجهها البارد في لوعة وجنون..

وعندما تراهم يحملون نعش شقيقتها الحبيبة تتشبث به وهي تسألها: ماذا ستفعل، وكيف ستنام في الظلام الذي خافته وارتعدت منه منذ أيام؟ فلا تجيبها بشيء، بل تمضي إلى مقرها المظلم وهي من خلفها تردد النداء..

لقد مرت الأيام عليها وهي لا تدري كيف مرت وكيف ستمر. لقد تركتها الصغيرة ونامت هناك وسط الظلام الموحش والسكون الرهيب. تركتها تذهب وحدها إلى الفراش خلسة، وهي تبكي وتمد يدها بجانبها باحثة عنها فلا تجدها، فتمسك بوسادتها وتضمها إليها، وتروح تقبل مكان رأسها بينما الظلام يخيم على المكان، ويغمر العالم والحياة، وتظل تبكي وهي مغمورة في الفراش، ثم يعلو نشيجها حتى يسمعها مَن في البيت فيأتون مسرعين ويأخذونها إلى مكان بعيد. وتركتها تذهب إلى مرافق البيت وحدها وتقوم بأعماله صامتة حينًا وباكية أحيانًا. وكثيرًا ما تسهو وتناديها لتشترك معها في شيء فلا يجيبها غير الصدى بين الجدران..

إنها لتكاد تُجن كلما تذكرت تلك الكلمات التي قالتها لها الصغيرة وهي تمسك بيدها وقد أفاقت ساعة من الإغماء ورأتها تبكي. لقد قالت لها وهي تضم يدها: عندما أموت يا فتحية لا تدعيني وحدي، بل تعالي إليَّ كل يوم واجلسي معي لأني أخاف الظلام والوحدة والسكون.. ولم تذهب إليها حتى الآن فهي تنتظرها حتى تعود إليها قريبًا، في العيد أو بعده بأيام، فكلتاهما لن تستطيع البعد عن الأخرى إلا أيامًا معدودات.. إنها شقيقتها وقد اقترن اسماهما في كل شيء منذ الطفولة، فليس من المعقول أن تفترقا طويلاً، ومدى الحياة!

ومضت الأيام الباقية من رمضانَ ولم يبقَ على العيد غير يومين والصغيرة العزيزة لم تعد، فلعلها غاضبة منها؛ لأنها لم تذهب إليها كما أوصتها، وتركتها تنام وحيدة وتخاف من الصمت والظلام، إذن لتذهب إليها في العيد فلربما تغفر لها تقصيرها وتعود إليها وتستأنفان الحياة من جديد!!..

وفي صباح العيد نهضت من فراشها قبيل الفجر بقليل وارتدت ملابسها السوداء في عجلة، وكأنها ذاهبة لتلقاها بعد هذه الغيبة الطويلة الثقيلة..

وركبت الإبل مع الجميع، وأغلقوا الباب، وساروا إلى حيث تنام صغيرتهم المحبوبة بين الرمال.. ولو عاد أحدهم إلى البيت لأحس بالأبواب والجدران وهي تبكي بكاءها الصامت الموحش في هذه الساعة المبكرة من الصباح، فهذه هي المرة الأولى التي يتركها فيها الجميع في يوم العيد، لا يتردد في أرجائها صوت ولا همس، اللَّهمَّ إلا صوت البهم الذي ينطق في أرجائها من ركن قصي بين الحين والحين، ثم تطبق عليها الرهبة والحزن والسكون..

وعندما أشرفوا على الوادي الصامت من بعيد كان الظلام يتوارى شيئًا فشيئًا فتبدو القبور من بعيد كأشباح بيضاء تنتقص كلما اهتزت الإبل واقتربت من مكانها البعيد ونظرت إلى والدتها فرأت الدموع تترقرق في عينيها وهي شاخصة إلى الوادي الساكن المقفر من الأحياء. غير أنها لم تبكِ كما كانت تظن، بل ظلت صامتة تنتظر شيئًا..ووصلوا إلى مدافن العائلة، وجلسوا حول قبر صغيرتهم العزيزة يستمعون إلى «القرآن» وهو يُتلى، لعله يبعث إلى قلوبهم ببعض الصبر والعزاء.. وذهب الصغار بعيدًا يلعبون ويحتفلون بالعيد فوق القبور! ولم تستطع هي أن تعي من «القرآن» شيئًا كانت شاخصة إلى الرمال التي تغطي قبر الشقيقة في ذهول. كانت تنفذ بخيالها إلى ما وراء الرمال، إلى شقيقتها النائمة وسط التراب.. وتخيلتها تتململ ثم تنبش

الرمال بيدها لكي تفتح القبر، ثم تخرج رأسها من فتحته الصغيرة فتهب إليها وتجذبها إلى الخارج وتضمها إليها وهي تبكي وتضحك في آن.. وانتفضت في مكانها وأحست بقلبها يرتعش ثم تبطئ دقاته، حتى لتكاد أنفاسها تختنق..

وانتهت تلاوة «القرآن»، ورأت والديها يبكيان في صمت. وخُيّل إليهما أنهم جميعًا بلهاء لا يفقهون شيئًا، فها هي ذي صغيرتهم المحبوبة لا يفصلهم عنها غير كومة صغيرة من الرمال وبضعة أحجار فقط هي التي تغيبها عنهم! إنها لا تصدق ولا تعترف نفسها بأنهم عاجزون ولا حيلة لهم ! وهل يمكن أن يعودوا ثانية إلى المنزل وهي نائمة هنا؟ مغيبة عنهم هناك؟! إنه شيء غير معقول!

وتأهبوا للعودة وهي لا تزال ذاهلة في مكانها.. وأقبل أحد الصغار يتساءل: كيف لم تخرج شقيقتهم لتعود معهم إلى البيت وهم عائدون؟ وتجلد الوالدان قليلاً، ثم ضمت الأم الصغير إليها وصدرها يهتز وهي تحاول ألا تجهش بالبكاء، وقد راحت الدموع تنهمر من عينيها في صمت رهيب.. أما هي فقد صحت من ذهولها وتنبهت إلى الواقع المرير. وفي لمحة خاطفة خطت إلى القبر وارتمت فوقه، وانفجرت بالدموع والنشيج، وهي تنبش الرمال بيدها كالمجنونة في لوعة وذهول، وبين لحظة وأخرى تنادي الصغيرة المحبوبة وتغمغم بألفاظ دامية من العتاب...

الطيف الثالث

محمد قطب

صورة نفسية:

من ذكريات الطفولة

ما أعذب أيام الطفولة!

لعلها أعذب أيام الحياة جميعًا، فلا يزال الإنسان يعود إليها بالحنين وبالذكرى كلما مضى به العمر، فيجد في العودة إليها متعة عذبة، ويحس وهو يتسمَّع لهمسات الماضي، ويتفرَّس في صوره الباهتة الغامضة أن هذا أعز ما عنده، وأغلى ما يضم جوانحه عليه.

الطفولة العذبة الطليقة من القيود: قيود الزمن وقيود التجارب. الطفولة التي تتطلع إلى المستقبل؛ لأنها في أول الطريق، وتتشوف إلى القمة لأنها لا تزال عند السفح.

الطفولة التي تفغر فاها عجبًا لكل جديد. وتظل تعيشه حتى يَقْدمَ ويُؤْلَف، وما يكاد يؤلف حتى تكون الحياة قد أعدت جديدًا آخر يستغرق كل شعور.

الحماسة لكل شيء والاندفاع إليه.

الحركة التي لا تهدأ ولا تقرّ.

القفز والوثب والعبث بكل شيء وبكل إنسان.

الفوران لكل طرقة كما يفور النبع من باطن الأرض.

الانطلاق والحرية.

ما أعذب أيام الطفولة!

***

والذاكرة لا تعي الماضي كله. ولا تسير على نظام فيما تحفظه وما تسقطه من شباكها. فبعض الذكريات واضح كأنه كان بالأمس، بل كأن

الإنسان لا يزال يعيش فيه وبعضها غامض باهت قد مُحِيَت رموزه أو تكاد، ولم يبقَ منه إلا طيف يهمس وينزوي بين ركام السنين.

فهو يذكر منزله الأول الذي نشأ فيه ولكنه لا يذكره كله.

لا يذكر تفاصيل حجراته، بل لا يخيل إليه أن فيه حجرات. وإنما يذكر الباب المطل على الشارع، وترباسه الحديد وعتبته العالية التي كان يخطوها بملء ساقيه الصغيرتين، ويذكر طرقة ممتدة داخل الباب، ومخزنًا ينفتح بابه في هذه الطرقة أو على السلم. ثم يذكر السطح بكل تفاصيله الدقيقة. ولا يذكر ما بين هذين من تفاصيل.

كان للسطح سور دائر، وكانت فيه حجرة صغيرة على يسار الصاعد من السلم لا يزال يذكرها كأنها ماثلة أمام عينيه، ويذكر أنه طلب مرة أن يصعد إلى سطحها، فقد كان الارتقاء إليه أملاً حارًا يساوره كلما صعد إلى السطح، فحملته إحدى شقيقاته على يديها، وجذبته الأخرى من أعلى فصار هناك! في ذلك المرتفع الشامخ الذي كان يحلم به. واستمتع لحظة بهذا النعيم.

كان كثير الصعود إلى السطح، ولا يذكر من حياته شيئًا حين لا يكون هناك أو عند الباب الخارجي، فقد اختفت بقية المنزل من ذاكرته بما كان فيها من ألوان الحياة، ولم يعد يذكر نفسه في هذا المنزل إلا في هذين المكانين المتباعدين، لا يصل بينهما حتى سلم البيت، فما يذكر منه إلا السلالم العلوية التي تنتهي إلى الغرفة الصغيرة المشرفة على وادي الأحلام!

فإذا كان على السطح فهو يتفرج من الناحية البحرية على نخلتين شاهقتين تهزهما الريح فيأتيان بحركة متناسقة تهز فؤاده كله..

ثم تسقطان رُطبًا جنيًا تهتز له أمعاؤه، فيسرع يلتقطه قبل أن تصل إليه يد إنسان!

ويتفرج من هناك على بئر عميقة تحت الحائط مباشرة، يشد نفسه شدًّا على السور ليرى عمقها المظلم الذي لا يبين، وينظر فيرى الرجل يطوي حبل الدلو حتى يمسك به، فيريق ماءه في الحوض ثم يتركه يكُر في البئر بحركة سريعة جميلة. ما أجمل هذه الحركة لو أتيحت له!

أجل؛ ولكن كيف لا يسقط الرجل في البئر وهو يشد الدلو الثقيل، ورجلاه على الحافة وبعض أصابعه في الفضاء؟.. إنها لبراعة عجيبة من هذا الرجل العجيب!

وقد كَبَرَ وكَبَرَ، ومازال يعجب بمثل هذا الرجل كلما مرّ به في ريف من الأرياف!

فإذا ملَّ التفرج من السطح، ولم تعبأ به النخلتان، ولم تسقطا إليه الرطب، نزل - لا يذكر أين - ولا يذكر ما يصنع بعد ذلك حتى يكون عند الباب الخارجي لا يبرح عتبته. فقد كان يرهب الشارع، ولا يأمن الخروج إليه وحده. وقد كان - فيما يقولون له - في الثانية أو الثالثة من عمره في ذلك الحين.

ويذكر أنه كان يتحدث في ذلك الوقت عن مصر (القاهرة) يتحدث عمن سيحكمها، ويتحكم فيها في المستقبل! فلا يُدخل أحدًا إلا من رَغِبَ! فمن خرج على حكمه، فالويل له!

وكان يتصور مصر صورة عجيبة لم تخطر لإنسان، فهي بيت واسع الأرجاء، متعدد الأبواب، عاليها، وتحرس هذه الأبواب أنواع شتى من الحيوانات، منها البقر والجاموس، ومنها الحمير والجمال، وهو يتحكم في ذلك كله ويأمر في الناس وينهى، ويأمر الحيوانات فتأتمر بأمره، وتفهم إشارته. فإذا منع أحدًا من دخول مصر ولم يخضع لأمره، فما عليه إلا أن يشير للجمل الحارس، أو البقرة الحارسة، فترفسه وتقصيه، وتنيله من العذاب ما تقشعر لهوله الأبدان! أما من سمح له بالدخول، فإشارة إلى الحارس فيتنحى عن الباب.

أين كانت هذه الأحاديث؟ لا يذكر إلا أنها كانت في الليل، وقد سكن الناس من عمل اليوم، واستقروا إلى الحديث، والحديث شجون.. وأحلام، ولا يذكر أنه كان ينام ويصحو، أو يأكل أو يشرب، أو يصنع شيئًا غير الصعود والهبوط والحديث عن مصر. فكأنما تلك صورة طليقة في ذهنه لا يحدها إطار المكان!

ثم يذكر أنه انتقل من منزله هذا إلى منزل آخر إلى الغرب منه.

لا يذكر كيف انتقل، ولا كيف نُقِلَت الأمتعة، ولكنه يبصر ذات يوم، فإذا هو يعيش في المنزل الجديد.

وقد بقي في هذا المنزل من سن الثالثة إلى ما بعد السادسة بشهور قليلة حين جاء إلى القاهرة، فهو يذكره جيدًا، ويذكر كل شيء فيه. وهناك بين جدران هذا المنزل كل ذكرياته اليقظة عن حياته في القرية، وهي قليلة في المدى المحسوس، ولكن لعل لها في نفسه أثرًا لا يُمحى، أثرًا غير محسوس في اليقظة، وهو عميق في اللاشعور.

أوَّل ذكرياته في هذا المنزل أنه وجد فيه عِجْلَةً صغيرة لم يكن رآها من قبل، وكانت تخرج في الصبح، وفي العصر لتشرب ثم تعود، وتقترن العجلة في ذهنه برجل طويل، بالغ الطول، كبير الأنف عظيم الشارب، لا يذكر أنه رآه من قبل، ولكنه يذكر أنه كرهه حين رآه يذهب بالعجلة ويروح، وكرهه حتى تعددت زياراته لهم بعد ذلك، ولا يزال يكرهه حتى

اليوم، فقد كان رجلاً يحقد عليهم، ولا يزال يسخر من آمالهم كلما أملوا، وبأحلامهم كلما استراحوا إلى الأحلام.

واختفت هذه العجلة بعد زمن قصير فما يدري حتى اليوم أين ذهبت، ولكنه يذكر أن هذا الرجل الطويل قد أخذها مرة ولم يعد بها، فاشتد وجده عليه.

وكان له في بعض تلك السنوات «جُوخة» يذكر أنه فرح بها فرحًا شديدًا حين لبسها، وكانت واسعة، فكان يُدخل رأسه من جيبها وهو لابسها فيرى بدنه كله قد ملأ من فراغ الجوخة حيزًا صغيرًا وبقيتها فضاء! ويذكر أنه كان يقفز ويثب حين يلبسها، وينثني ويعتدل من النشوة، والكون كله لا يسعه من السرور!

وليس في خياله أنها بليت أو تقطعت أو مسها سوء، ولكنه يصحو ذات يوم، فإذا هو لا يلبسها، ولا يعلم أين تكون.

وكان له حذاء أصفر «برقبة» كاملة. يقال له إنه حدث خطأ في شرائه، فقد كان الزوج لقدم واحدة! ولكنه لا يذكر ذلك، وكل ما يذكره أن هذا الحذاء كان عزيزًا لديه جدًا، ليس في طفولته أعز منه فيما لبس وفيما شعر بملكيته. ويذكر حين كَبر قليلاً أنه صعد على السطح مرة فوجد «فردة» منه قد عملت فيها الشمس فحملها ونفسه تتقطع عليها حسرات، وحاول أن يعيد مجدها السالف فلم يستطع أن يعيده، وتركها آسفًا لا حدَّ لأسفه، والدموع تكاد تهبط من عينيه!

ونسى هذا كله حين تغيرت الحياة، وازدحمت بما يشغله عنه، ولكنه لا يزال يرى في بعض أحلامه حتى اليوم أنه يجد شيئًا عزيزًا في هذا السطح فيفرح بما لقي على غير انتظار!

وكان سطح هذا المنزل سطحين غير متصلين إلا بجدار ضيق كأنه قنطرة صغيرة، وكان دائمًا يتحرَّق شوقًا إلى عبور هذه القنطرة إلى السطح الآخر الذي تراكمت فيه أحطاب القطن والذرة المعدة للوقود. ولكن أحدًا لم يكن يسمح له بعبورها، فقد يقع إذا اختل توازنه فيهوي

إلى الطابق التحتي أو إلى أرض الشارع بلا رفق أو هوادة.

ولكن الشوق المتأجج ظل يدفعه مرة حتى اعتلى القنطرة وسار عليها كالقط بيديه ورجليه، حتى وصل سالمًا إلى الضفة الأخرى. وقد كَبُر في عين نفسه بهذه المخاطرة عدة درجات!

وكان في أسفل المنزل «منظرة» قد سُدَّت منافذها، فما عاد يدخلها النور حتى في وَضَح النهار، وصارت مخيفة في بعض أجزائها حيث لا يستطيع الواقف أن يرى شيئًا مما حوله. ولكن الطفل العنيد دخلها مرة متحديًا، ولبث فيها بضع لحظات يغالب الخوف، ويرتعش منه بدنه فلا يصرِّح به، وخرج بعد ذلك يعلن منتصرًا أنه لا يخاف الظلام.

وكسب هذه المعركة، وشهد له الشهود! فحسن وقع ذلك في نفسه وصار يكثر من الدخول إلى هذه «المنظرة» المظلمة في الصباح والمساء، واعتاد ذلك حتى صار لا يرهب الظُّلمة، ولا يخشى البقاء فيها وحده منعزلاً عن الأحياء جميعًا، بل إنه بدأ يحب ذلك ويطمئن إليه.

ولولا هذا الاطمئنان إلى الظلام والراحة للبقاء فيه، لما استطاع أن يعيش وحده حين جاء إلى القاهرة، وكان يقضي معظم الليل وحده بغير زميل، حتى يجيء القوم، وقد نام أو أوى النعاس إلى عينيه!

ولكنه مع هذه الجرأة على الظلام كان يرهب الشارع، ولا يخرج إليه حتى في وضح النهار. ذلك أن أحدًا لم يكن يأخذه إلى الطريق إلا في النادر القليل، فإذا كان معه أحد فهو آمن مطمئن يتفرَّج على كل ما يصادفه، ويسرح الطرف فيه، فإذا كان وحده خيل إليه أن كل شيء حيوان مفترس سيثب عليه في اللحظة التالية ويمزقه شر ممزق!

يذكر أنه أبصر مرة فإذا هو وحده والطريق خالٍ من المارة ومن كل شيء فمادت به الأرض لحظة أحس بها طويلة كالدهور، ولم يتمالك نفسه حتى جرى إلى المنزل - وهو على بعد خطوات - ورمى بنفسه فيه ليشعر بالأمن والاستقرار!

وقد نسى ذلك، وكان الطريق حين جاء إلى القاهرة لا يرهبه، ولا يصيبه الاضطراب فيه، بل كان حبيبًا إليه يود لو يقضي فيه اليوم كله يُمَتِّعُ نفسه بمحتوياته..

ولكن لعله لا يزال يرهب الحياة كما كان يرهب الشارع وهو صغير، فلا يزال منطويًا على نفسه، ينظر إلى الحياة من بعيد، ولا ينزل إلى خِضَمِّها المصطخب المتلاحق الأمواج، ولا يزال يشعر بالاضطراب عند كل تجربة جديدة، لا لأن قواه لا تقوى عليها ولا تصلح لها، ولكن لأنه يرهب التجربة، ويقدم عليها بحذر حين لا يكون بد من الإقدام.

وتلك كانت بذرة الانطواء الأولى التي غُرِسَت في نفسه الصغيرة فنمت، وواتتها الظروف حين جاء إلى القاهرة يعيش طوال اليوم وحده بلا شريك من سِنِّه، وظلت تنمو حتى صارت ملء نفسه كلها، وملء حياته كلها، وصارت تسيطر على كل ما يجري في كيانه من أحاسيس.

ويذكر أنه خرج يومًا مع والده إلى الحقل فرأى عالمًا جميلاً لم يكن رآه من قبل. العالم الفسيح الممتد إلى آخر مدى النظر لا يحدُّه من هنا ومن هناك إلا الجبلان القائمان في السماء، وهما في ذاتهما منظر عجيب جميل، فأين هما؟ لقد خُيِّل إليه أول الأمر أنهما على بعد مئات من الأمتار، ثم سار وسار فإذا البعد بينه وبينهما على حاله لم يتغير. وتعلَّم بعد ذلك أنهما بعيدان بعيدان، ولكنه ظل يعجب: ما هما؟ ما هو الجبل؟ كيف ينبت في الأرض؟ وهل السماء تنتهي هناك؟ هل السماء مرتكزة على الجبل هنالك عند منتهى النظر؟ أم هي وراءه؟ وما هي السماء؟ وما هذه الزرقة الصافية التي يراها فيها أبدًا؟ سيمشي يومًا إلى هذا الجبل البعيد حتى يدركه، ويرى هناك مبدأ السماء! ويلمسها بيده ويطِّلع على سرها العجيب!

على أن أعجب ما في الرحلة لم يكن ذاك. فقد انتهى بهما المطاف إلى بناء سمع فيه من بعد أزيزًا وحركة، وصوت اصطخاب آلات، فسأل – وكان دائب السؤال – ما هذا؟ قيل له: هذا «وابور بحري الدير».

ماذا؟ وابور؟ ما أجمل وقع هذا في نفسه.. إن فرحته بهذا الوابور لا تعدلها فرحة في الوجود كله. هذه الآلة التي تدور بسرعة كأنها السحر يخطف الأبصار، فينتج من دورانها خروج الماء من باطن الأرض متدفقًا في القناة. هذه آلة عجيبة حقًا يود لو يدرك كنهها، ويود لو تُفَكُّ أمامه قطعة قطعة، ثم تُرَكَّبُ ثم تُدَار، فيعرف كيف تدور، ويعرف وظيفة كل جزء دقيق فيها ويعرف تلك الصلة السحرية العجيبة بين آلة تدور في الفضاء وماء يخرج دافقًا من الأرض.

ولقد وقف أمامها كالمذهول فاغرًا فاه، واستغرقه النظر إليها حتى لم يعد يسمع ولا يرى إلا أزيز الآلات وحركتها الدائرة المنتظمة، وود لو يبقى الدهر كله لا ينتقل من مكان هذا الساحر العجيب.

وتعددت زياراته لهذه الآلة، وهو يقف بجانبها كل مرة كالمذهول، لم يشبع منها قط، ولا ذهب عنها يومًا وهو راض عن الذهاب؛ فقد كان في كل مكان يشتاق إلى المنزل، ويستحث على الرجوع إليه، إلا في هذا المكان، هو ينسى المنزل، وينسى العالم كله بما فيه، وتستغرقه المتعة بهذا السحر، يود لو كان يذوب فيه، ويود لو يستطيع أن ينساب مع هذا «السير» الذي يلف بين «طارتين» بسرعة مجنونة، ويخبط على كل منهما حين يصطدم بها ما رُبِطَ به من مسامير.

ذلك شوق كامن في دمائه حتى اليوم، عميق في أعمق جذور نفسه، كأنما وُلِد في أحضان هذه الآلة وشبَّ بين طياتها.

وذلك شوق لم يطفئه الزمن قط؛ فقد قضى طفولته كلها يحن إلى الآلات حنينًا مجنونًا؛ يكاد يدفع به إلى لمس كل عجلة تدور وهو يعلم خطر ذلك. وقضى شبابه المبكر يتمنَّى هذه الآلات.. يحلها ويركبها ويعرف أسرارها الدقيقة. وكانت كل أمنيته في الحياة أن يصبح مهندسًا كهربائيًا حتى يغرق في هذه الآلات، ويطفئ شوقه الذي لا يرتوي، فلما امتنعت عليه هذه الرغبة تحولت طاقة التحليل الكامنة في دمائه إلى تحليل الأنفس والشعورات، وأغرق في ذلك ليعوِّض بعض ما فاته من تحليل الآلات والكهرباء، وهي الطاقة ذاتها في الحالتين.

وكان أوضح ما في الوابور الطارة الكبرى والطارة الصغرى، يصل بينهما السير الضخم، فكان يحاول تقليد ذلك ببكرتين يدقهما في الحائط، ويصل بينهما بخيط، ويدير إحداهما فتدور الأخرى من تلقاء ذاتها، فيُسرُّ بذلك سرورًا عظيمًا. وتدرج في صنع وابوره الصغير حتى صار يُرَكِّب فيه عدة بكرات يصل بينها جميعًا بخيط واحد، ويدير منها واحدة فتدور الأخريات. وكان لهذا يجمع البكر دائمًا في جيب جلبابه، ويحرص عليه أشد الحرص، حتى إنه لينام به، ولا يخشى أن ينزلق إلى ما تحت جنبه، وإنما يخشى لو أخرجه من جيبه أن يصبح فلا يجده في مكانه!

وهكذا ظلت حياته كلها تدور حول هذا الوابور، فمنه يأخذ تشبيهاته وحركاته وسكناته، يلعب ليقلده، ويتحدث ليصفه ويشيد بذكر عجائبه، ويمشي المشوار الطويل، المحفوف بخطر الكلاب الضارية ليُمَتِّعَ نفسه بالتفرج عليه حينًا من الزمان.

كان في نفسه إلى جانب هذا الشغف العنيف بالآلات وعالمها الملموس إيمان ساذج بالقوى الخفية التي تستطيع أن تغير ما تراه الحواس.

لم يكن يخشى العفاريت، ولا يؤمن بوجودها قط، ولكنه كان يؤمن بالسحر، وكانت هناك لعبة بسيطة تلعبها معه أخته «الساحرة»، فيصدقها، ويؤمن بها، وكلها خداع!

كانت تضع له في إحدى يديه ثلاثًا من نوى البلح وأربعًا في اليد الأخرى، وتُشْهِدُه على ذلك، ثم تغلق له يديه، وتضعهما متجاورتين، وتظل تتمتم وتقول: «روحي يا تلاته، تعالى يا أربعة».. وهي تمر بيدها على يديه في حركة دائبة بعضًا من الوقت، ثم تقول له: افتح يديك وانظر! يجد الثلاث قد صرن أربعًا بقدرة ساحر عجيب!

وينط على الأرض نطًا، وهو يرجوها أن تكشف له عن هذا السر الغريب الذي نقل النواة من يد إلى يد، وهو لم يفتح هذه ولا تلك!

وقالت له مرة: إن هذا لا يمكن أن يحدث أبدًا، فلم يصدق، وظن أنها تتهرب من الإجابة على إلحاحه الشديد!

ذانك تياران قويان في نفسه يفترقان حينًا ويلتقيان حينًا، ولكنهما موجودان معًا على بُعْد ما بينهما في الأصل والاتجاه: فأحدهما إيمان بالواقع المحسوس، وانكباب عليه كأنه بناء الحياة الأوحد الذي ليس وراءه شيء، والآخر إيمان بما وراء الحياة من قوى خفية، وهي أعظم أثرًا من ذلك المحسوس كله، وإن كانت لا تَبِينُ.

إيمان بالعلم وإيمان بالخيال.

ومن هنا كانت فيه عقلية عالم دقيق البحث، يؤمن بالمنطق، ويُحكّمه في كثير من أفكاره.

وكانت فيه نفس شاعر، وروح متدين، وانطلاق روحاني لا يؤمن بالحدود والقيود.

قصة:

في الامتحان

في الامتحان يذهل الطلبة جميعًا عن كل شيء إلا الكتب والدروس، ويغرقون في نوع رخيص في التفكير! رخيص لأنه يشغل الذاكرة وحدها وقليلاً ما يشغل النفوس.

ولكنهما لم يذهلا عن الحياة وعن خضمها الزاخر النشيط.

أما هو فالامتحان لديه أقل من أن يستغرق نفسه وتفكيره.

وأما هي فلا يدري لماذا شغلت عن الامتحان قد يكون لها من عبقرية جمالها ما يجعلها فوق الامتحان الرخيص! أو من يدري فلعلها «أنثى» لم تفسد الدروس أنوثتها بعد، ولم تطفئ فيض الحيوية في كيانها الجميل.

***

ولقد أمضى هو أول أيام الامتحان خالي النفس من كل شيء يبعد عن محيط الامتحان، وإن لم يكن قد أغرق فيه إغراق الناس من حوله وعاد إلى منزله يُعِدُّ ذاكرته إلى الغد بغير حماس كبير!

ولم يكن يفكر في هذا الغد، ولا يتوقع فيه جديدًا غير ما ألفه كل يوم فحياته راكدة منذ زمن، تسير على نهج واحد بليد.

ونزل من القطار ليركب الترام وبينهما مسافة غير طويلة.

وها هو ذا يسيرها بسرعته العادية، لا يحمل كتابًا يستلهمه بعض ما نسيه، أو يتلهف إليه أن ينقذه في أزمته، كما يصنع الناس صبيحة الامتحان!

ولكن ما هذا؟ ما الذي أمامه يثير عجبه؟ بل لا يترك له وقتًا للعجب، ويقتحم نفسه في غير انتظار؟

في أول منزل في طريقه تسكن فتاتان. أو فتاة وتابعة إن صح التعبير! فتاة جميلة. جميلة فقط؟ بل هو نوع شاذ من الجمال يستلفت النظر بهذا الشذوذ.

كان هو يسبقها بعام في الدراسة، ولكنها كانت تسبقه في سنوات العمر. فهي فتاة مكتملة ناضجة بديعة التكوين.

وهو يعرفها جيدًا، فقد كان أول من «اكتشفها» حين جاءت إلى الكلية في بدء العام، وأول من اتجهت نفسه إلى استطلاع جمالها العجيب. ولكن علاقته بها لم تتعد هذا الاستطلاع من بعيد.

وهي لا تعرفه ولم تنتبه إليه، وإن كانا يقطعان الطريق إلى الترام معا

ثلاثة أيام من كل أسبوع.

وقد رآها اليوم كما يراها كل يوم تسير مع تابعتها السمراء.

ولكن ما هذا؟ ما الذي أمامه ينبه جوارحه البليدة ونفسه المجدبة الشعور؟

إنها تنظر إليه! بل تختلس النظر إليه في غفلة من تابعتها، وفي غفلة من الناس حوله. وإن في نظراتها لمعنًى جاهرًا خفيًا معًا.

يراه ويدرك وجوده ولكنه لا يفهمه واضحًا محدودًا.

ربما كان هو في منشئه غير محدود.

واقتحم نفسه سيل من الخواطر على غير انتظار.

ماذا؟ هي؟ هي الجميلة الفاتنة تنظر إليه وتختلس النظرات؟!

تنظر إليه هو؟ هل تعنيه هو بتلك النظرات؟ وما بالها اليوم فقط تنظر إليه؟ ما هذا السر الهائل الذي حوّلها إليه فجأة بغير تدبير؟

وسار في الطريق يتحرك بقوى لا يحسها صادرة من نفسه، بل من وحي تلك اللحظة المفاجئة، ومن قوى تلك النظرات العجيبة.

ورأى في وجهها هالة من ضوء غريب تشعه عيناها ونظراتها الجميلة. إن عينيها تبتسمان. يا للسحر! يا للفتنة والجمال!

وإن في عينيها الباسمتين وفي وجهها الساحر حديثًا توحي به ولا تقوله. حديثًا ساحرًا جميلاً. حديثًا من أعماق ضميرها، ومن كل كيانها. إنه حديث غرام!

وطافت بنفسه في تلك اللحظة موجات من العواطف والانفعالات مضطربة متلاحقة. فهو يحس كل شيء، ولا يحس شيئًا، وهو ذاهل هائم الضمير، وفي قلبه خفقات عنيفة متتالية، لا يكاد يحسها لأنه في شغل عن نفسه وما يثور فيها من خفقان واضطراب. في شغل عن كل شيء. هائم شارد كالمسحور.

وأحس بقلبها يخفق. فيه صورة كالتي في عينيها ونفسها جميعًا.

ووجدها فاتنة في هذا الاضطراب وهذه الثورة أكثر من فتنتها كل يوم. إنها اليوم في نظره كائن جديد.

ولم يكن من قبل يحس بطول الطريق الذي يقطعه إلى الترام ولكنه اليوم يراه طويلاً هائلاً جميلاً كالجنان! وكأنه إذ يقطعه يطوف بآباد طويلة، وعوالم لا انتهاء لها في حسه المسحور!

ووصلوا إلى الترام. هي في خفوقها وفورتها، وهو في شروده واضطرابه، وكلاهما ينظر إلى صاحبه ويطل في عينيه، ويقول له كلامًا لا يفتأ يقوله كل مرة وهو في كل مرة جديد!

وازدحم على رصيف الترام خلق كثير في انتظار الركوب، فسكتت النظرات إلى حين. ولكنها لا تزال تختلس نظرة إليه من بين هذا

الجمع، وترسلها إليه من بعيد.

وهناك وجد فرصة «للتفكير» لأول مرة منذ لقيها هذا الصباح.

وتيقظ من شروده بعض الشيء على سؤال غريب: لمن هذه النظرات؟! لمن؟ أبعد هذا الذي رآه يسأل سؤاله ذلك الغريب؟

ولكنه معذور. فقد أجدبت نفسه منذ شهور طويلة ثقيلة، وأظلمت الحياة من حوله، فكيف تراه يتلقى هذا الفيض القوي الغزير؟

بل هبه لم يجدب قط. إنه لم يتعود أن تنظر إليه فتاة! فكيف بهذه الفاتنة الجميلة التي يسحره جمالها العجيب؟.

وجاء ترام مزدحم فتزاحم الناس عليه، حريصين على الوقت، ونظر فإذا الرصيف لم يبقَ فيه إلا القليل. لا أحد إلا هي وتابعتها، وهو وأحد الناس يحدق فيها ولا تجيبه. بل تنظر إلى الفتى الحائر وهو واقف إلى جانب شجرة على الرصيف، وعلى فمها ابتسامة مشرقة تفتن لبه، وتسحر فؤاده.

وجاء ترام آخر ليس هو الذي يركبانه كل يوم ولكنه يوصل إلى المكان ذاته، ولعله قد جاء للطلبة على الخصوص، ولكنه يكره الترام المفتوح، فلم يشأ أن يركب وفضل الانتظار.

صنع ذلك وهو خالي النفس من كل شيء.

فأما رابعهم الثقيل، فقد صعد إلى الترام في الحال على اعتبار أنهم لابد راكبون. وبقي الثلاثة برهة قصيرة جالت في نفوسهم في أثنائها فكر سريعة متتابعة، فوجئ بعدها بشيء لم يعمل حسابه، ولم يكن ينتظره. فقد مضى الترام وبقيت هي.. هي الجميلة الفاتنة.

وهو ليس أحد سواهما على الرصيف.

دعتها تابعتها إلى الركوب، فهمَّت وتحركت إلى الترام، ثم نظرت إليه، فإذا هو واقف لا تبدو عليه نية الركوب، فرجعت وقالت لتابعتها: «روحي أنتِ أنا حَسْتَنَّى»!

في قلبه خفوق سريع عنيف، والدم يسري في أوصاله متدفقًا سريعًا، ولا يكاد يضبط أنفاسه، على فمه ابتسامة وفي عينيه حب.. حب صارخ وصريح!

وهي تنظر إليه وعلى فمها ابتسامة ساحرة، وفي عينيها معنى تريد أن تقوله، تريد أن تقول له: إنها انتظرت من أجله، وإنها سعيدة بما في قلبها من خفوق.

نظرت إليه فإذا هو محدق فيها: فخجلت. ما أجملها! ما أجمل هذا الحياء الفاتن المثير! إنه - في غفلة منها - ليضطرب بقبلة كلها حب عنيف، وإنه ليرسل لها القبلة في الهواء!

ولكنها مطرقة لا ترفع بصرها إلا قليلاً، ووجهها الأحمر محتقن بالدماء! ومازالت في شفتيها ابتسامة خفيفة، تخفي وراءها اضطرابًا عنيفًا، وفي قلبها خفوق واضح شديد.

وجاء ترامها ومرت من أمامه لتركب، وكانت على بعد نصف خطوة منه، وشاهد اضطرابها وحياءها وخفوقها، ومنحته نظرة سريعة خاطفة، وبسمة كذلك سريعة خاطفة. وركبت وسار الترام.

ثورة! ثورة هائلة في نفسه، وحيرة هائلة في شعوره؛ ولكنه مسرور، لا يكاد يستطيع إخفاء سروره أو خفقات قلبه النشوان.

وفي عينيه بريق ملتهب، فهو لا ينظر بها إلى الناس حتى لا ينفذوا إلى ما في نفسه من أحاسيس! وهو هائم في واد جميل. واد جديد لا يعرفه إلا اللحظة، فهو تائه فيه، لا يعرف أوله ولا انتهاءه.

***

ثم اختلطوا في الامتحان بالجموع الحاشدة التي تجمعت هناك لشيء واحد «مهم».. الامتحان!

هناك غمرتهما موجات الطلبة والدروس، فتيقظ، ولعلها تيقظت مثله، وهدأت الثورة في نفسه، وضبطها بقوة غريبة، وانتبه مع الناس

إلى الكتب والدروس.

وجاء وقت الامتحان. ودق الجرس فخفق قلبه خفقتين كبيرتين: خفقة لهذا الحب الذي اشتعل في قلبه منذ لحظة، وخفقة لهذا الامتحان الذي يستقبله وهو محب ولوع!

وقرأ ورقة الأسئلة ثم أرسل لحبيبته قبلة أخرى في الهواء وانهمك يجيب بعد ذلك على الأسئلة دون هيام ولا شرود.

ولم يرها حين رجع في الظهر.

ورجع مع صديق له، فراحا يتباحثان في الامتحان. وقد أعطى لنفسه اثنتي عشرة درجة من عشرين، وراح صديقه «يساومه» في هذه الدرجة ويعطي نفسه درجة مثلها.

ثم إذا به يقول لصديقه فجأة «اسمع أنا بحب النهاردة»! واسترسل صديقه في ضحكة ساخرة، «أتراك تحب اليوم فقط؟ وبالأمس؟ ألم تكن تحب؟ ومنذ الساعة كم أنت تحب؟!

إنه يعرف صديقه ضيق أفق النفس، غير عميق التفكير، ولن يفهمه لو حدَّثه بدخيلة حبه ولكنه يحدِّثه مع ذلك ويسمع اعتراضاته.

***

وعاد إلى المنزل وأراح جسمه وجدد نشاطه، فأحس أنه كائن جديد تثب الحياة وثبًا بين جنبيه.

يا للثورة! أجل يا للثورة في نفسه هائلة جائحة، ويا للأحاسيس تتدافع بقوة وعنف، والأفكار تتسابق سباقًا عنيفًا.

قال لنفسه حين أحس بهذه الثورة: إنه كان بليدًا في الصباح جامد النفس من أثر الجدب الطويل، بل راح يتهم نفسه بالبلادة الطبيعية، وبطء الخاطرة، والبرود.

واستعاد كل ما حدث منذ أن نزل من القطار حتى وصل إلى ساحة الامتحان، فخيل إليه أنها أجيال حافلة بالحوادث والأحاسيس.

زعم لنفسه أنه لم يحبها إلا اليوم وحين بادلته تلك النظرات والبسمات، ولكنه تذكر! تذكر أنه كان دائم الإعجاب بها في أثناء العام، وأنه أحبها منذ رآها لأول مرة تحمل في صدرها عقدًا من الياسمين.

وزعم لنفسه أنه لم يتأكد بعد من حقيقة شعورها، ولم يعرف لمن كانت تلك النظرات!

ونبتت الشكوك في ضميره. وفي لحظات خاطفة نمت وترعرعت وملأت تفكيره كله، وبدأت تحز قلبه كالأشواك!

وانقسمت نفسه إلى شخصين متميزين كل شخص له وجهة نظر يدافع عنها بأثبت البراهين!

أحدهما صاحب الشك، والآخر صاحب اليقين

فأما صاحب اليقين فيضرب كفًا بكف من العجب والدهشة، ولا يكاد يتصور حجة زميله في الشك والارتياب.

لماذا نظرت إليه حين لقيته؟ ولماذا مشت إلى يسار تابعتها، فصارت إلى ناحيته؟ ولماذا لم تكتف بالنظرة الأولى؟ وماذا كان يحملها على اختلاس النظر إليه. وأخيرًا - وهو المهم - لماذا لم تركب مع تابعتها مع أنهما دائمًا تركبان معًا؟ ولماذا كانت نظرتها إليه قبل الركوب؟ ثم بقاؤها حين رأته لا يريد الركوب؟ ثم ما هذا الحياء والخفوق والابتسام، والثورة الجامحة في نفسها وجوارحها؟

لأنها تحبه.. ذلك هو الجواب الوحيد!

ولكن صاحب الشك لا يقتنع بذلك كله، فالحب في رأيه لا ينبت هكذا فجأة. وقد كانت تراه كل يوم منذ أول العام، فلماذا لم تبد عليها من قبل «أعراض» هذا الغرام المزعوم؟ لا يمكن! إنها لا تحبك، وقد يكون الأمر أي شيء، لكنه لا يكون حبًا أبدًا.. أبدًا.

***

وأخذت المناقشة تشتد بين الفريقين. وتوزعت نفسه بين الشك الذي يخز جنبيه، والأمل الذي يبسم إليه من بعيد.

وظل على حيرته لا يستقر ولا يملك الهدوء.

ثم كأنما تغلب الأمل لحظة فطلب الانتظار إلى صباح الغد!

في الغد سيلقاها في طريقها إلى الامتحان، وسيعرف سر ما استغلق عليه اليوم حين ينظر إلى عينيها ووجهها الجميل.

فليرح نفسه إذن من الشكوك، وليتمتع قلبه بما فيه من سعير!

لقد جن الغرام بقلبه! وإنه ليضم ذراعيه بقوة كأنه يضم جميلته الفاتنة، ثم يهوي على وجهها بالقبلات.

وإنه لسعيد. سعيد بالحياة الفائرة في نفسه، واللهيب المشتعل في فؤاده.. إنه عاشق فنان.

***

ونزل من القطار في طريقه إلى الترام..

أين فتاته المحبوبة؟ ألم تنزل بعد؟ أم أنها سبقته إلى هناك؟

مشى بضع خطوات وهو يبحث في كل مكان كالتائه وقلبه يجب وجوبًا عنيفًا .. ثم نظر، فإذا هي تخرج من باب المنزل. وحدها هذا اليوم!

وسارت. ونظرت إليه حين رأته ونظر إليها فماذا في عيونهما؟

عجيب أن تتماثل النظرات، فمنذ أمس اتفق جزءا نفسه المتنافران على أن يراها فيعرف حقيقة شعورها نحوه.

وهي؟ لعلها مثله قد ثارت في قلبها ثورة وردود، ولعلها سألت نفسها أسئلة عديدة جاءت تستوحي منه هو جوابها، فقد كان في نظراتها اليوم سؤال واضح، أو أسئلة في سؤال. كانت تسأله: ماذا وراءك؟

ولكنه هو كان مشغولاً بنفس السؤال! كان يريد أن يريح نفسه من الشك الثقيل الذي نغص عليه أمسه ومازال ينغص عليه أحاسيس اليوم الجديد. فلم يجبها على سؤالها إلا بسؤال مثله، لا يروي إليها، ولا يوضح لها ما كانت تبحث عنه وتستبين.

ولم يجد جديد.

ولا تزال الثورة جائحة شديدة، والمعركة باقية بغير جواب.

وسأله صديقه: أما زلت تحب؟ أم انتهى حبك؟

قال: ما زلت أحبها بشدة، ولكن هل تراها تحبني؟!

قال: ومن هي وأنا أقول لك؟

قال: لا! هذا سر. على أني لا أعرف اسمها بعد!

اليوم كله صورة من الأمس: ثورة وشك، وحب عنيف. ونشوة بهذا الحب تجاورها في النفس شكوك وآلام.

ولكنه اليوم يحس بحاجة قوية إلى التعبير عما في نفسه من أحاسيس، فما يطيق أن يحبسها في إطار صورة.

وما جاء وقت الغروب حتى كان في طريقه إلى المتنزه وبيده ورقة وقلم، وجلس إلى شجرة منعزلة يكتب شعرًا في أيام الامتحان!

***

ولم يرها في اليوم الثالث فكاد يجن! وتولته نوبة عنيفة من الأسف واللوم والتقريع!

لقد أحس حين لم يرها صبحًا أو ظهرًا أنها تهربت من أن تراه، وأدرك أنه قد أضاع هذا الجمال إلى الأبد، وأنه هو المسؤول عن هذا التضييع.

واستعاد أمسه. فإذا هو يصحو إلى شيء لم ينتبه إليه بالأمس.

فهذه أنثى تستوثق من رجل. تستوثق من حبه وهيامه بها، فإذا هو فاتر لا يجيب. فطبيعي أن تيأس وأن تغيب.. إلى الأبد.

يا للحمق! ألا يعرف شيئًا عن نفسية المرأة؟ وأين إذن ما يباهي به من ثقافة وفهم؟ وما يدعيه من علم بدخائل النفوس؟

وماذا يفترق عن أي.. ممن يروحون ويجيئون في الطريق؟

أهكذا يا أحمق تضيف الفتاة؟ أَبَلَغَ بك الغرور أن تنتظر من هذا الجمال في عزته وكبريائه أن يمنحك حبّه قبل أن يستوثق من حبك؟ أم بلغ بك الجمود أن تنظر إليك فتاة تستفسر عن حبك فتُعرض وتمضي؟

إنك مجنون. وقد ضيعت فرصة لن تجيء في الحياة أبدًا..

كم جمال من هذا الطراز؟ وكم جمال قال لك إنه يحبك، حتى تضيعه بما أنت فيه من بلادة وجمود؟

وهكذا.. في تقريع مر: والأسف والألم يملأ نفسه، ونفسه تظلم، وتغشاها كآبة ثقيلة لا يفيق منها.

وبقى اليوم كله حزينًا كئيبًا. لا يخفف عنه أمل، ولا تشرق في نفسه حياة.

***

وجاء اليوم الرابع، فإذا هي ليست في الطريق حتى الترام فتحقق من خيبته في حبه، وزاده ذلك ألمًا حتى لم يعد يطيقه، وبقي مشدوهًا بما يحس من الخسارة الفادحة التي تسبب فيها بغفلته وبروده.

ثم جاء الترام فإذا هي فيه! لقد ركبت من المحطة السابقة وقد أثار هذا عجبه وفضوله. فهي لم تكن تركب من قبل إلا من هذه المحطة فلماذا غيّرتها اليوم؟

أتراها غاضبة منه؟ أتراها تتهرب منه حتى لا تراه بعد أن أذل كبرياءها بجهله وغروره؟

أم هي تثير التفاته بهذا التدبير؟ لا لم يعد يطيق تلك الأخاديع!

ورأته هي في خامس يوم.

رأته وهي في طريقها إلى محطة الأمس لتركب وحدها من هناك،

فألقت عليه نظرة باردة لا تحمل معنى على الإطلاق.

وكأنما لم يلتقيا من قبل، ولا كان بينهما ما كان من فورة وهيام عنيف!

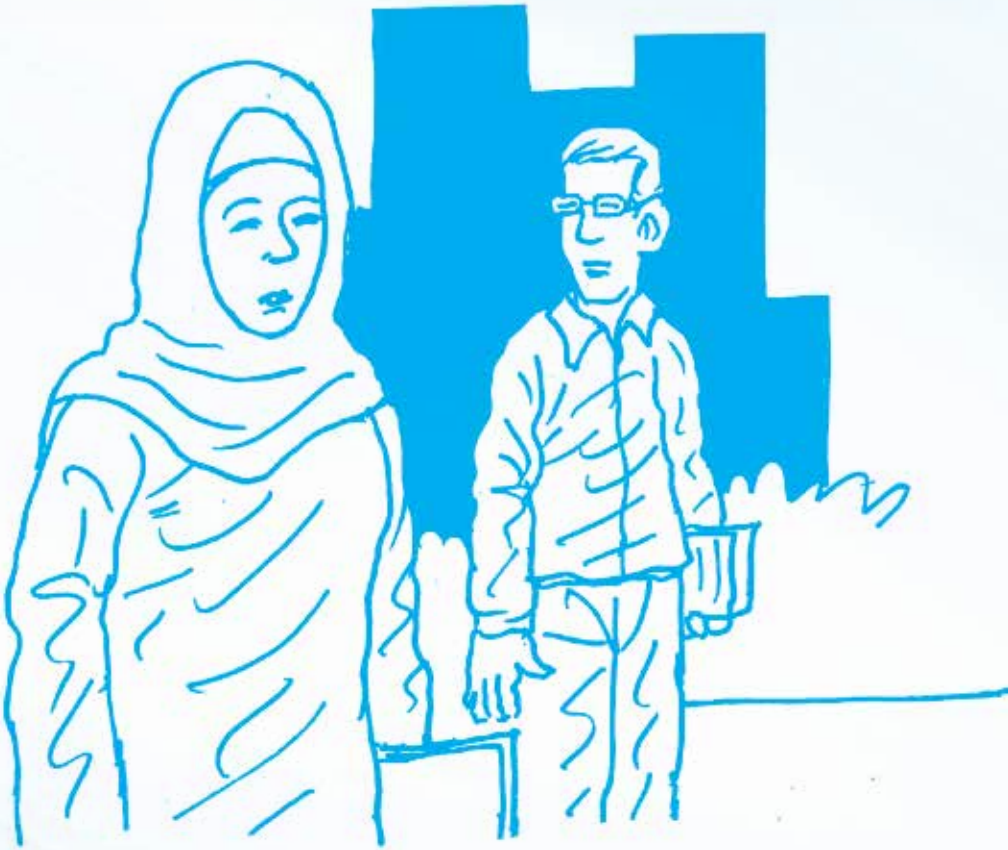

قال له صديقه ذات ليلة من ليلات الصيف الحارة الثقيلة التي تعنو لها النفوس.

أتعرف الفتاة ذات الوجه الإنجليزي الأحمر؟!

فخفق قلبه، وأنصت إلى الحديث، وقال يستعجل الصديق وهو يخفي لهفته بجهد عظيم:

- نعم أعرفها، ما بالها؟
- قال: وتعرف فلانًا كذلك؟
- أجل، ما باله؟

لقد رأيتهما يسيران معًا ويدخلان إلى السينما مصطحبين.

فدارت نفسه ولم يعد يعي ما يقول.

ثم ضبط نفسه بجهد لم يلحظه زميله في ظلام الليل وسأل:

متى كان ذلك؟

أيام الامتحان!!

وذهل! فما بقيت في نفسه ذرة واحدة متماسكة تواجه هذا الكلام العجيب! أيام الامتحان؟ أيام كان يلتقيان وتحدثه حديثها الفاتن. حديث الغرام؟ كيف؟ أهذا معقول؟

ولكنه إذ أفاق أدرك كل شيء كأنما أزيلت الغشاوة من فوق عينيه في تلك اللحظة الهائلة.

وقال لصديقه بعد فترة من الصمت الهائل الرهيب:

أيام الربيع.. لقد كنت أراها إذ ذاك. وكنت ألمح في عينيها فورة حادة. وهي أنثى ناضجة فياضة بالحيوية، فلا يبعد أن تصنع ذلك إرواء لطبيعتها الفاترة.

وابتسم الصديق وانصرف إلى سبيله، وبقي هو مشدوهًا تائهًا بين صور كثيرة كانت تختلط وتتداخل ثم تتفرق وتنتظم في فريقين متقابلين: صورتها وهي تحدثه حديثها الفاتن. حديث الغرام.

وصورتها مع الرجل الآخر يسيران معًا ويدخلان إلى السينما مصطحبين..

وقال لنفسه وهو يخبط على غير هدًى:

لقد كانت في حاجة إلى رجل، لا إلى شاعر يصوغ الأوهام ويغرق في الأحلام!

صورة نفسية:

بين الأرض والسماء

لا أستطيع.. لا أستطيع أن أحبها بعد اليوم

وعجبت نفسه من هذا القول الغريب الذي يردده في شبه ذهول المحموم. وحسبت نفسه أنه لا يمكن أن يعني ما يقول.

– لا تستطيع؟! كيف؟ هل أنت مجنون؟ هل تحبها وهي طفلة صغيرة لا تدرك ما تكنه لها في قلبك من أحاسيس. ثم تنصرف عنها وهي مقبلة إليك بكل ما في قلبها من أشواق؟

– أجل. أجل! إنه من أجل هذه الأشواق التي تلتهب في قلبها أحسست أني لن أستطيع أن أحبها بعد اليوم!

***

لقيها وهو طفل في الثالثة عشرة والحياة تتفتح في نفسه رويدًا كالزهرة المغلقة حين ينفذ إليها أول شعاع من النور.

وكانت طفلة في الحادية عشرة، لا يزيد عالمها على بضع لعب وبضع صويحبات.

ونشأت بينهما صداقة جميلة أقرب إلى الأخوة. فقد ألفها وألفته، وصارا يلعبان معًا بقدر ما تسمح ظروف الجوار. وكان اللعب والمرح يجمع بين قلبيهما الصغيرين فلا يحسان حاجزًا يمنعهما من الامتزاج الروحي الجميل.

لم يكن يعرف الجنس فورة جسم ولا أحاسيس أبدان.

ثم جاءت هذه الفورة غير بعيد

وأحس بعنف الحياة الجديدة التي تضطرم بين جنبيه وتبغي لها مخرجًا وهامت روحه في خيالات جديدة عليه لم يستشعرها من قبل، وهو يواجهها اليوم شبه مذهول.

***

وتعلقت أحاسيسه بفتاة كبيرة ناضجة الأنوثة كانت تكبره ببضع سنوات! واندفع إليها بكل ما يفيض في نفسه من عواطف وما يلتهب فيها من أحاسيس. اندفع إليها في حب جارف عنيف لا يعرف مبدأه ولا منتهاه، ولا يكاد يصحو لنفسه في هذا العالم الجديد الذي فتحت له أبوابه المسحورة على عجائب لم يسمع بها من قبل إنسان!

وسخرت منه هذه الفتاة الناضجة ومن حبه الصغير. لقد كانت في حاجة إلى رجل تبني معه عشها، وتأوي إلى كنفه فيؤويها إليه.

وتعذب من سخريتها ما لم يتعذبه فتى مثله صغير؛ وكانت تتركه

معلقًا بين الأرض والسماء لا تمنعه من حبها، ولا تصغي إليه وهو يبثها لواعج الغيرة، وعنف ما يلاقيه من الاضطراب.

ثم انتهى ما بينهما كما لم يكن بد من أن يكون!

وآوى من حبه جريحًا ينزو جرحه بالدماء! ولكن الفورة الدافقة في قلبه لم تكن تهدأ إلا ريثما تعود إلى الانطلاق، فولى وجهه شطر غرام جديد.

أو إنه عاد إلى غرامه القديم! عاد إلى طفلته الحبيبة يحبها بكل ما يسع قلبه من أحاسيس.

ولكنها طفلة في الثانية عشرة؟ فماذا تفهم من لواعج الحب ومن ضرام اللهفة ومن حرق الحنين؟

لا تفهم؟ وماذا يعنيه أن تفهم؟ إنه يحبها ويألفها ويرتاح إليها في داخل نفسه. فهي البلسم الذي يشفي ما في قلبه من جراح.

***

وأحب الفتى طفلته دون أن يخبرها بحبه، أو ينتظر منها لقاء هذا الحب. لقد كان يعرف أنه لا يستطيع أن يحدثها فيما لا تفهم من الأحاسيس، وكان يكتفي بما تظهره له من الرضا والبشاشة في صحبته، وهو آخر ما تستطيع أن تحسه فتاة لم تنضج بعد.

ورضي أن يحب على هذا الوضع العجيب! يحب ويخفق، ويتلهف ويشتاق، ويكتوي بالنار، دون أن يخبر أحدًا.. ولا حتى حبيبته التي من أجلها كل تلك الأحاسيس!

لقد كانت في نفسه منذ طفولته الأولى صوفية تحتمل الألم وترضى بالقليل! صوفية تتحكم في عواطفه جميعًا حتى الحب.. وكله أنانية واندفاع.

لقد كان حبه كالعابد المتصوف الذي يجد لذاته الكبرى في العبادة ذاتها، لا فيما يتلقاه لقاء هذه العبادة من جزاء!

ولكنه لم يدرك أنه على ما فيه من صوفية طبيعية قد تصوف في هذه المرة على غير اختيار!

أجل، فلو كانت طفلته أكبر من ذلك. لو كانت تدرك الغرام، وتستطيع أن تحسه لما أخذ هذا الحب سمْتَه الصوفي «الوقور» كان يمكن أن يكون كحبه الأول كله فورة وكله انطلاق.

ولكن الفتاة طفلة لم تنضج بعد. فليرض إذن بالصوفية على غير اختيار.

***

وعملت نفسه جاهدة لتوائم بين الفورة الدافقة التي في نفسه وعواطفه، وهذا الحب الهادئ الرزين الذي يشتعل من الداخل ولا يفضي بهذه الشعلة إلى الفضاء.

والخيال عالم واسع جميل! يستطيع أن يجد فيه عوضًا عما ينقصه في الحقيقة. فليجد في خياله فتاة جميلة ناضجة تحبه وتبادله أعنف ما يحس لها من حب، وليكتب لهذه الفتاة الشعر وليقص عليها في «مذكراته» اليومية ما فاض به قلبه طيلة اليوم من أحاسيس!

ولكن...! هذه الصورة الجميلة لا تعيش على الأرض، ولا تشبه الأناسي، ولا يناسبها من العواطف البشرية إلا تلك العواطف الصاعدة في السماء. العواطف المتسامية التي ترف كالخيال العذب، وكالنور الشفيف.

لا يناسبها «الجنس» وما فيه من «أوار».

وهنا أدركته الصوفية الأصيلة في نفسه، فصفَّت له «الجنس» تصفية دقيقة، ومنحته الخلاصة الصافية الشفافة - الخلاصة التي تطفو - لخفَّتها - وترتفع فوق الجنس وفوق الغريزة - الخلاصة التي تصنع الأَحلام، ولا تنزل إلى عالم الواقع الثقيل.

وبهذه الخلاصة المتسامية أحبّ حبيبته.. أو صورتها الجميلة التي أنشأها في قلبه الخيال.

ولا شك أنه لم يكن يدرك ذلك كله وهو في الرابعة عشرة.. طفل كبير! لم يكن يدرك تلك العملية الشاقة التي تمت في داخل نفسه، والتي انفصلت فيها تلك الخلاصة الشفافة عما تحتها من طبقات الجنس الفائر كاللهيب.

كل ما كان يحس به: هو أنه يحب حبيبته حبًا طاهرًا عفيفًا ساميًا، كما كان يكتب لها في مذكراته، وكان يحس بالزهو لأنه يستطيع أن يحب مثل هذا الحب العظيم الذي لا تدنسه الأقذار!

***

وظل يحب طفلته على ذلك النسق العجيب بضعة شهور.. يحادثها وهو يهيم بخياله في العالم الذي أبدعه فيراها هناك.. هناك.. مشرقة كالنور، لطيفة كالطيف. وتحادثه فكأنما يسري الصوت إليه من عوالم قصية لا تدرك مداها الأحاسيس.

كل حبه في الخيال ولكنه صادر من الحقيقة. فمن عينيها هاتين يشع النور، ومن خلالهما يرى عوالم الخيال.

ولكنها خاصمته بعد بضعة شهور! خاصمته كما يصنع الأطفال، فلم تعد تحادثه ولا تجلس إليه، ولم يعد يرى النور يشع من عينيها الواسعتين.

هنالك اضطربت أحاسيسه بين الأرض والسماء. بين الواقع والخيال.

ففي الأرض حبيبة مغاضبة لا أمل معها في شيء، وفي السماء صورة جميلة لا تغضب ولا تكدر صفو الحياة.

وهو يهبط إلى الأرض كلما تيقظ فيه المحب البشري الذي يفهم الأشياء على واقعها المحسوس.

ويرقى إلى السماء كلما استطاع أن ينسى نفسه في بحبوحة الخيال وينسى الألم الذي يعطل عن الصعود. فيسبح إلى العالم المسحور،

حيث أسمو بحنيني وحناني

حيثما أنتِ ونفسي توأمان

نقطع العمر جميعًا في أمان

***

وصالحته بعد خصام عشرة شهور، فأحس بالراحة إحساسًا لم يعرف مثيله من قبل. راحة من الصفو الخالص الذي لا تعكره اللهفة. راحة كالجدول الرائق لا طين فيه ولا «عكار»، ولا يزعجه هبوب الرياح. راحة كالتي في الجنة. راحة الأرواح. راحة تعلو عن فهم الأجساد.

ولكنه عجب في دخيلة نفسه. ذلك لقاء بعد عشرة شهور من المغاضبة

والخصام، أفما كان الأجدر به أن يكون حارًا صاخبًا عنيفا يناسب ما كان يحس به من اللوعة والحنين؟

ولكنه نسي - أو لم يكن قد أدرك بعد - أن هذا الحب الصاعد في السماء هو بطبيعته حب هادئ رزين لا يصخب ولا يهيج؛ لأنه قد صفى من طبقات الجنس الفائرة كاللهيب!

***

ثم سافر.. إلى «المنفى» كما كان يقول عن كل مكان يحجبه عن القاهرة إلى حين.

سافر، فلا لقاء ولا حديث، ولا أمل بعد اليوم في لقاء ولا حديث، ولكنه ظل في منفاه وفيًا للصورة الساحرة التي أنشأها خياله الفنان.

ومضت سنوات لا يراها ولا تراه بعد أن عاد إلى القاهرة، ولا يعلم أحدهما عن الآخر شيئًا، ومع ذلك فقد بقي هذا الحب العجيب حبًا نابضًا في أطواء نفسه لا ينساه، ولا يفتر ذكره له.

وظل يكتب لفتاته الشعر، ويقص لها في مذكراته ما يحسه لها من ألوان اللهفة والحنين.

***

وطالما دفعته رجلاه إلى هناك.. إلى مَواطن الذكريات المقدسة في نفسه.. ذكريات العهد الذي تفتحت فيه نفسه لأول مرة، وذاقت طعوم الحياة.

ولكنه كان كالعابد المتصوف يحس بالرهبة العنيفة في هذا الحرم القدسي، ولا تقوى رجلاه أن تطآ الأرض المقدسة، فيعود من حيث أتى خافق القلب مضطرب النفس أعظم اضطراب.

حتى كانت مرة هيأتها الظروف للقاء، فالتقيا بعد غياب طويل.

«يا أيها الكون.. إنني فرح بهذه اللقيا على غير انتظار.. إنني سعيد».

ولكنه لم يثُر كما كان يجب في دخيلة نفسه أن يثور! لقد بقي هادئًا هدوءًا صافيًا جميلاً، وأحس راحة من الصفو الخالص جلت عن اللهفة والظماء. راحة كالتي في الجنة. راحة الأرواح في النعيم.

كيف؟! كيف لا يصخب الحب في نفسه بعد هذا الظماء الطويل؟

لقد نسي - أو لم يكن قد أدرك بعد - أن هذا الحب الصاعد في السماء لا يصخب ولا يثور، لأنه صفي من الجنس الفائر كاللهيب.

***

وصار يلقاها في موعد قريب إثر موعد قريب.

وعادت الحياة سيرتها كأنما لم يغب هذه السنين الطوال؟

حقًا؟؟ ولكنها اليوم فتاة ناضجة كاملة التكوين. إنها اليوم فتاة في التاسعة عشرة. وقت التفتح العنيف للحياة، والتهامها والقبض عليها قبل أن تفوت!

وحدّثها عن حالته في المنفى، وحالته في القاهرة حين جاء خاويًا مجدبًا من الأحاسيس يعيش في صحراء نفسه، لا يصل إليه الخصب،

ولا يلمح شعاعًا من نور. وحدثها عن فرحه بلقائها وأنه بدأ يستعيد نفسه ويحس وجوده من جديد.

وحدثته عن نفسها وكيف كانت - في خيالها- تنتظره، وتقول إنه لابدَّ أن يعود يومًا ما.. فيعيشا من جديد. وينعما بالحياة وطلبت منه أن يعطيها ما كتب لها من الشعر، فأعطاها أول قصيدة كتبها لها قبل سبع سنوات، فاهتزت لها طربًا ولم تكد تسعها الحياة!

قال لها: لقد كتبت هذه وأنا في الرابعة عشرة.. طفل صغير!

قالت: إنها جميلة.. جدًا.. إنك شاعر عظيم!

***

ومع ذلك فقد أحس في نفسها شيئًا ما..

في نفسها شيء مكبوت لا تصرح به ولا تقوله، ولكن حركاتها العصبية تنبئ به، فهي تحرك حاجبيها في شبه تقطيب ليس المقصود به التقطيب، وتحرك أصابعها كمن يريد أن يقبض بها على شيء، وتحرك شفتيها في شبه كلام لا يرقى إلى صوت مسموع.

ولم يفهم في بادئ الأمر حقيقة هذا الشيء المكبوت. وحاول أن يخلصها منه فلم يستطع بكل ما أوتي من عطف وحنان. فلم يكن ينقصها العطف والحنان!

ثم جاء الربيع.

الربيع ساحر عجيب. تمر يداه الساحرتان على الصخر المقفر فتنبت فيه الحياة وتتفجر الينابيع، وتخفق له الدنيا خفقات المرح والنشاط.

الربيع انسياب وانطلاق من القيود. انطلاق منشؤه الغنى الذي تذخر به الحياة فلا تقوى على حبسه داخل الضمير.

وفي الربيع الجميل بدأت نفسها تتفتح، وانطلق الحب المكبوت الذي كان يؤذيها كبته طيلة الشتاء.

وأطل في عينيها، فإذا هناك معنى واضح مبين، لا تكبته ولا تقيده منذ اليوم. إنها تحبه!..

وبدأ القلق يتسرب إلى ضميره!!

***

لقد أحبها هذه السنين الطوال ولم يكن يعرف حقيقة مشاعرها نحوه، وإنما كان كالعابد المتصوف الذي في نفسه يهمه أنه هو محب ويلتذ العبادة ذاتها دون انتظار جزائها من النعيم.

ولكن العاشق لا يقلقه أن يرى الحب مبينًا في عيني حبيبته!

وحتى هذا العابد الصوفي لن يشعر في حياته كلها بلذة تعدل معرفته برضاء «محبوبته» ومبادلته الحب. فما سر هذا القلق العجيب؟

إنه الربيع! لقد أطلقها من جميع القيود. لقد أثارت فورته في نفسها فورة النضج؛ فتفتحت إلى الحياة منهومة تريد الري. تريد أن تحقق أحلامها، تريد أن تحقق هدف الحياة من هذا النضج المكنون.

إنها تحبه. ولكنها ما عادت تعتبره «حبيبها» الذي يقدم لها الحب والشعر والخيال بل رجلها الذي تبني معه - في خيالها - بيت المستقبل وتحقق أحلام الحياة.

ومن هنا بدأ يقلق.

لقد جاءت هذه الخطوة فيما يرى أسرع مما كان ينتظر، وهل كان ينتظر هذا؟ لقد كان من قبل يتمنى أن يعيشا معًا في الحياة.

ولكن لم يدخل في تقديره وهو يتمنى ذلك أي تفكير حقيقي في الزواج، وإنما كانت أمنية فنية كان يتخيل حياته وهي تزامله في العيش خيالاً يجل عن الزواج وعن أي رباط يدخل فيه الجسد من قريب أو بعيد. زمالة روحية جميلة. وهو وهي في دنيا من الأحلام. في واد تهمس فيه الأرواح، وتهوم سعيدة بالطلاقة التي تعيش فيها لا يقيدها شيء ولا تطيق القيود.

حيثما أنت ونفسي توأمان

نقطع العمر جميعًا في أمان

ولكن هل ترضى فتاة في الدنيا أن تحب على هذا النحو؟

إنها لن ترضى ذلك حتى تكون قد نذرت نفسها للفن والخيال!

وفتاته لا تفهمه على هذا النحو، إنها تعلم أنه شاعر وفنان، ولكنها لا تعرف أنه يحب صورةمنها خلقها خياله جميلة صافية كالأرواح.

بل لو أنها علمت ذلك فربما كانت تتألم وتثور. فلماذا لا يحبها هي.. تلك الإنسانة التي تعيش على الأرض في دنيا الواقع المحسوس؟

إنه يعرف طبيعة المرأة. إنها تستطيع أن تكبت «الجنس» مدة من الزمان، ولكنها عائدة إليه بعد حين في صورة من الصور، وليس الجنس

شيئًا ذميمًا في ذاته ولا خسيسًا. ولكن نفسه عجيبة؛ فقد نشأ وفي نفسه عقد تستقذر الجنس، ولا تعده كريمًا فهو ضرورة من ضرورات الحياة يجل عنها الفن المطلق من القيود والضرورات.

وعلى فرض أنه استطاع أن يهبط إلى هذه الضرورة، فلن يكون مع تلك الصورة الجميلة التي خلقت منذ نشأتها في السماء، وبقيت حياتها كلها في صفائها، لا يشوبها لهيب الجنس، ولا يقربها في الصحو ولا في الأحلام.

تلك الصورة الفاتنة حرم مقدس لا تصل إليه غرائز الأرض، ولا تستطيع أن تعيش في عالم الأجساد.

***

ولكن فتاته تناديه من الأرض. تناديه كلما انطلقت نسمة حائرة من نسمات الليل التي توقظ الصبوات والحرقات. تناديه كلما تفتحت زهرة ناضرة وأطلت إلى الحياة تناديه كلما نفخ الربيع في قلبها وفي كيانها كله: أن هلمّي إلى الحياة... فقد نضجت نفسك للحياة!

ماذا يفعل؟ لقد بدأت تصطرع في نفسه الأحاسيس. هل ينزل من علياء حبه ومن سماء فنه؟ هل يهبط إلى الأرض كبقية الآدميين؟

فليجرب..

ونفسه ميدان خصيب للتجارب! يجرب فيها كل شيء قبل أن يخرج به إلى واقع الحياة، أو لا يخرج به فيستفيد التجربة على أي حال.

فليجرب إذن أن يحس لفتاته حنين الجنس، وليترك الخلاصة الصافية الصاعدة في السماء، ويهبط إلى الطبقات الفائرة كاللهيب.

وبقيت التجربة أسبوعًا كاملاً أحس فيه كأنه زوج، وأن هذه زوجته تقتسم معه الحياة.

وأحس بالنفور من التجربة يكاد يخنق أحاسيسه. ولكنه تجلد حتى نهاية الأسبوع. ثم حدث ما أفسد عليه نفسه وأمرَّ طعم الإحساس بين جنبيه.

رأى حلمًا يتصل بالجنس من قريب. ورآها فيه. ومع أنها لم تكن هي المقصودة بالحلم، إلا أنه ثار وغضب من نفسه غضبًا شديدا لمجرد اقترانها بهذا الحلم، وعدَّ هذا جرمًا لا يعتذر عنه ولا يتسامح فيه.

لقد كان يفخر في نفسه بأنه لم يرها قط في حلم كهذا منذ أحبها حتى اليوم، وكان يرى هذا من معجزات هذا الحب المجيد الصاعد في السماء.

فاليوم تلوثت الصورة بهذا العبث الذي يسميه التجريب، فثار على التجربة وعلى نفسه وعلى الجنس وعلى كل شيء في الأرض ثورة عنيفة ليس للعقل عليها سلطان.

كيف جرؤ أن يهبط من سمائه ويترك جنته التي لا يعرف الحياة إلا فيها! كيف جرؤ أن يفسد الصورة الجميلة الطاهرة بعبث بني الإنسان؟ إنها لتختنق في هذا الجو المكتوم الذي تصطرع فيه غرائز الآدميين. إنها تعاف الجنس ولا تهضمه؛ لأنها لم تربَّ فيه ولا يمكن أن تطيقه اليوم ولو روضت عليه؛ لأنها ستنقلب إلى نفور شديد.

***

وقابلها بعد هذه الثورة التي قامت في نفسه فإذا هي لا تزال على الأرض، ولا تزال تدعوه إلى هناك. بل إنها لتزداد تشبثًا به لينزل إلى الأرض، ويحقق معها أحلام الحياة.

***

آهٍ.. الأرض.. الأرض

إنه نافر نافر يحاول التخلص من ثقلة الأرض، ويحاول الصعود إلى السماء، ولكنها تمسك به وتطوقه بأحاسيسها وأحلامها.

والصورة المقدسة تختنق من التطويق.

وهو معذب بين الأرض والسماء.

صورة نفسية:

الزمن[1]

الزمن عدو الفنانين.

لأنه يمثل التحول الدائم الذي يفضي إلى الفناء.

والفنان كأبناء هذه الأرض جميعًا يود لو يبقى الدهر كله، فلا يصيبه الزمن بالفناء.

بل هو أكثر حبًا للحياة؛ لأنه أشد إحساسًا بجمالها وفتنتها، ولأنه أقرب إلى ضميرها وأدخل في كيانها من الناس أجمعين.

ولذلك كان إحساسه بالزمن أقوى وأعنف، وكانت محاولته للتغلب عليه في داخل نفسه دائمة لا تستقر.

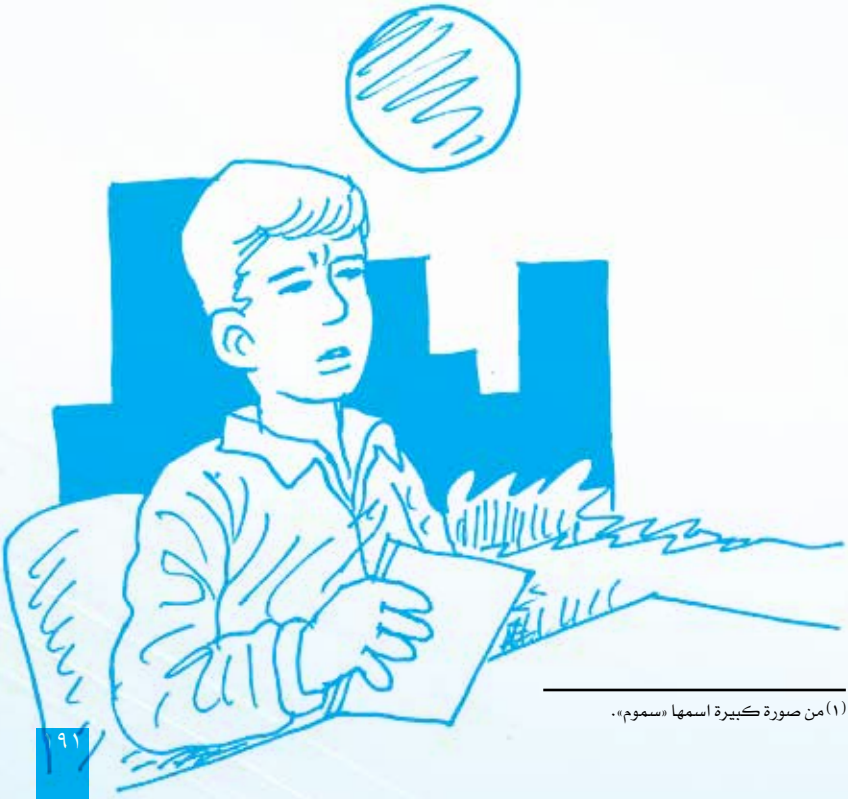

(١) من صورة كبيرة اسمها «سموم».

وإنما تنشأ الفنون من شعور الحياة بالقوة المذخورة التي تضمن الاستمرار إلى الغد القريب وإلى الغد البعيد، والتي تأمل أن تجمل نفسها في الغد حتى تبلغ الكمال.

والفنانون قوم يصارعون الزمن؛ لأن فيهم هذا الشعور الأصيل في الحياة: القوة المذخورة الدائبة في التكامل. وحين يعييهم الزمن في صراعه يتصورون لأنفسهم خلودًا لا زمن فيه، فيعيشون فيه لحظاتهم الفنية، ويكونون أقرب إلى ضمير الحياة.

تلك إحدى وسائل الصراع.

وهناك وسيلة أخرى هي مَلء اللحظات القصار بألوان شتى من الأحاسيس، فتعوض ضخامة الإحساس قصرَ الزمن، ويشعر الإنسان في تلك اللحظات القليلة إنه عاش عمرًا كاملاً طويل الآماد.

لحظة تمنح قلبي كل هاتيك الهبات!
لحظة ترفع عمري حقبًا متصلات
لحظة.. لا بل خلود لاح بين اللحظات[٢]

ولهذا كان الفراغ من الإحساس خطرًا على نفس الفنان؛ لأنه يضاعف الإحساس بالزمن.. وبالفناء.

***

الإحساس بالزمن عجيب في نفسه حتى في طفولته الأولى، والطفولة كلها حاضر قريب، وآمال واسعة تغمر الزمن المقبل، وتفيض عليه فلا يبين.

لقد ورث فيما ورثه من الشرق البعيد التيقظ للزمن والإحساس بأثره في النفس. فذلك الشرق المتعبد المتصوف الزاهد في الحياة كلها لا شك يشعر بالزمن شعورًا مضخمًا، فيصارعه بمحاولة الخلود بالروح

(٢) هدية الكروان للأستاذ العقاد.

ما دام الجسم لا يقوى على الخلود، ويصارعه بالاندماج في الفكرة العظمى أو الروح الأعظم حيث لا زمن ولا فناء. فيشعر في لحظات الاندماج أو الوصول أنه ليس من أبناء هذه الدنيا الفانية، بل جزء من الكائن الخالد الذي لا ينتهي في الزمن ولا ينتهي في المكان.

بل هَبْه لم يرث شيئًا من تلك البقاع النائية في الزمان. فهو مصري، والمصري لا يفتأ يحس بالزمن الذي يمضي ولا يعود. ولا يفتأ يحس بالحنين إلى ذلك الماضي الذي يتراكم بعضه فوق بعض، فتبهت صوره، ويصير معنًى غامضًا جميلاً في غموضه، ويندس في الزمن ويخفى حتى يصير جزءًا منه تضيؤه الذكرى، وتهتدي إليه حرارة الحنين، ولكنه ضوء خافت لا وهج فيه، وحرارة فاترة تخدِّر الأعصاب!

وما غرام المصريين بالناي والمزمار؟

إن الناي والمزمار يمثلان هذا المعنى بل خلقا لتمثيليه.. إنهما يوغلان في الماضي ويسبحان إلى أغوار الزمن البعيدة فتسري النفس على أنغامهما - دون أن تحس - إلى وادي الذكرى، فتستمع إلى همس السنين الغابرة، ورقص الأطياف الشاحبة، وتظل تسبح على جناحي الحنين والذكرى حتى تتيه في شعاب الزمن اللانهائي، وتشرد في فضائه الفسيح.

فإذا اجتمع في نفسه إحساس الشرق بالزمن، وإحساس المصريين به فلا شك يكون له في نفسه أثر بعيد.

***

كان في طفولته يرهب الزمن، ويحس إحساسًا عجيبًا بكل أثر يستطيع أن «يبقى» فلا يمحوه الزمن ولا يؤثر فيه.

كان دائم العبث بأدوات المنزل لا يفتر عن استعمالها، ولو كان في ذلك خطر عليه فقد شقت الموسى جرحًا عظيمًا في يده ظل يدمي ساعة أو بعض ساعة، وهو وحده في المنزل لا يجد وسيلة لوقف تدفقه، ومع ذلك لم يترك الموسى بقية ذلك النهار.

كانت الموسى من أدواته المفضلة يقطع بها كل شيء، ويخط بها على الجدران. وكان يظل يقشر بها لحاء الخشب أينما وجده قشرًا خفيفًا لا يكاد يبين. وفي ذات يوم، وهو منهمك في قشر شيء من الكرسي الخيزران أوغلت الموسى في الخشب فقطعت قطعة كبيرة ظاهرة لا تخفى ولا تزول. فوجم لحظة ورمى الموسى من يده وفغر فاه كالمذهول، وسرت في نفسه رهبة عجيبة إزاء هذا الذي عمله.

فقد أحدث أثرًا سيبقى على مرور «الزمن» لن يزول. لن يخفى كالقشرة الخفيفة التي أحدثها من قبل. لن يستطيع مرور الزمن أن يغير معالمه أو يعيده إلى ما كان عليه.

الزمن؟! من علم هذا الطفل في الثامنة أو التاسعة أن يحس بالزمن؟ ومن علمه هذه الرهبة أمام هذا الكائن المهول؟

وصعد مرة إلى السطح وهو في العاشرة ومعه قطعة من الطباشير فعن له أن يكتب اسمه بها على الجدار. وما فعل ذلك حتى أصابته تلك الرهبة القديمة، وانتفضت يده، وسرت القشعريرة في بدنه كله.

سيبقى هذا الأثر على الجدار. ولن يزول! لن يستطيع مرور الزمن أن يمحوه من حيث أثبته هو هناك.

كذلك كان إحساس الطفل بالزمن - يتكرر كلما تكررت بواعثه ويزداد توثقًا في أعماق شعوره.

ذلك إحساس عجيب. ولكنه لم يكن بعد قد تحول إلى سم يُمِرُّ طعم الحياة، ويفسد الاستمتاع بما فيها من جمال.

ومضت أعوام الطفولة، وتدفقت فورة الشباب، فبقي الإحساس بالزمن في نفسه إحساس الفن والحنين إلى الماضي والإغراق في الذكريات.

كانت نفسه غنية بما فيها من شعور. فلم يكن يحس بوطأة الزمن لأنه يصارعه بوفرة الإحساس، ويزحم اللحظات القصار بعوالم زاخرة لا يدب إليها الفناء.

وأمان كأنما تسع الكو ن وتطويه في اختلاجة صدر!

ومع ذلك فقد كتب في نهاية السادسة عشرة «مضت ستة عشر عامًا منذ خرجت إلى هذا العالم.. مضت سراعًا كأنها شهور».

مضت سراعًا كأنها شهور. ذلك بدء الإحساس المر بالزمن.

الإحساس بأن الزمن ينهب العمر نهبًا قبل أن يستمتع الإنسان به وقبل أن يهنأ بمروره.

ليس هذا شعور الشباب ولكنه بعد سم خفيف لا يعطل عن الحياة، وإن هي إلا لحظات، ثم يشعر أنه سعيد بالحياة مستمتع بها قابض

على الزمن بين يديه.

ذاك أنه غني بالشعور.

ولكن السموم المتعددة أخذت تفعل فعلها في نفسه حين عاد إلى القاهرة في السابعة عشرة يقظان خاوي الوفاض من الحياة ساكن النفس من الشعور.

هنالك نبت السم الجديد في بيئة خصبة تصلح لترعرعه وإثماره؛ إذ كان الفراغ من الإحساس خطرًا على نفس الفنان؛ لأنه يضاعف الإحساس بالزمن.. وبالفناء.

تجسم الزمن في نفسه، وبدأ يحس بكل لحظة تمر كأنما تنتزع من نفسه انتزاعًا؛ لأنها لن تعود، وبدأ يحس أن الزمن يسرق نفسه رويدًا رويدًا دون أن يملك وقفة ولا استبقاء نفسه منه وهو ماضٍ في سلبه لا يقنع ولا يفتُر ولا يعود.

والنفس التي يتيقظ فيها هذا الإحساس لا تهنأ بالعيش، بل لا تستطيع أن تعيش.

متى يعيش؟ إذا كانت كل لحظة تمر به يحاول أن يمسكها فلا يستطيع، ويقف يرقبها وهي تنسرب في الزمن ولا تعود.. فمتى يعيشها؟

لا يعيشها وهو موجود فيها لأنه مشغول بإحساسه أنها ستذهب إلى غير عودة. ولا يعيشها بعد أن تنتهي من الوجود. وهكذا يفسد طعم الحياة ولا يهنأ فيها شيء.. وتصير مرة ولو ملأتها حلاوة الأكوان.

تمر به لحظة سعيدة فيأسى - وهو فيها - لأنها ليست دائمة ولن تعود، فيفسد هذا الأسى ما فيها من سعادة، ويصيبه الحرمان، أعنف الحرمان لأنه يحرم ما يملكه بين يديه!

وصار الزمن شبحًا مزعجًا، بل جنونًا يصيبه كل لحظة حتى في ساعات الفن.

صعد مرة إلى الجبل الغربي في أسيوط، وهو «مرتفع القمة نحو

الضياء» فراعه أشد ما راعه هناك أن الزمن الذي يقيدنا في الأرض وتعنو له نفوسنا رهبة وهولاً لا يستطيع أن يصنع شيئًا في ذلك الجبل الشامخ الذي بقي كذلك مدى الزمن كله. وكل ما يستطيعه الزمن هو أن يفتت قشرة رقيقة تسفيها الرياح في الوادي وفي الفضاء.

الزمن.. الزمن هو كل ما يثيره في نفسه هذا الجبل الراسخ الأشم.

وهو دائب النظر في ساعته لا يمل. ويظل يرقب عقاربها وهي تنتقل بحركتها الوئيدة الثابتة من لحظة لأخرى. ثم يرقبها من جديد كأنه لم يرقبها اللحظة الفائتة، بل هذه اللحظة.

كل ذلك وليس وراءه شيء.

بل وراءه الزمن الأعظم فاغرًا فاه يلتهم كل لحظة تفوت، ويبتلعها كأن لم تكن قط. ويلتهم معها قطعة حية من نفسه، ومن كل نفس في هذا الوجود!.

الطيف الرابع

سيد قطب

نفثات:

-١-

أماه

من نحن اليوم يا أماه؟ بل ما نحن اليوم عند الناس وعند أنفسنا؟
ما عنواننا الذي نحمله في الحياة ونعرف به؟

إننا لم نعد بعد أسرة، ولم يعد الناس حين يتحدثون عنا يقولون: هذه أسرة فلان. بل أصبحوا يقولون: هذا فلان، وهذا أخوه، وهاتان أختاه!

اليوم فقط مات أبي، واليوم فقط أصبحنا شتيتًا منثورًا، وإني لأضم اليوم إلى صدري ابنكما وابنتيكما. أضمهم بشدة لاستوثق من الوحدة، وأشعرهم بالرعاية. ولكن هيهات هيهات. فأنا وهم بعدك أيتام يا أماه!

لقد شعرت اليوم فقط بثقل العبء، وعلمت أنني لم أكن أنهض به وحدي، وأنني كنت أرعاهم وأرعاك معهم؛ لأنني قوي بك. أما اليوم فالعبء فادح، والحمل ثقيل، وأنا وحدي ضعيف هزيل!

إن الشوط لطويل، وإني لوحدي في الطريق. وأخي وحده كذلك وأختاي وحدهما أيضًا. وإن كنا نقطعه جميعًا!

والعش الذي خلفته ستظل فراخه زغبًا مهما امتد بها الزمن، لأن يدك الرفيقة لا تمسح ريشها وتباركه، وكفك الناعمة لا تدرب أجنحتها على التحليق، وروحك الحنون لا تكلؤها في أجواز الفضاء..

نحن اليوم غرباء يا أماه

لقد كنا - وأنت معنا - نستشعر في القاهرة معنى الغربة في بعض اللحظات، وكنا نشبه أنفسنا بالشجرة التي نقلت من تربتها، والتي ينبغي لها أن تكثر من فروعها؛ لتتقي الاندثار في غربتها.

أما نحن اليوم فغرباء في الحياة كلها. نحن الأفرع القليلة ذوى أصلها بعد اغترابها من تربتها. وهيهات أن تثبت أغصان في التربة الغريبة.. بلا أم؟..

***

أماه..

لقد امتلأ حسي إرهاصًا بالكارثة قبيل وقوعها، يوم لم يكن في الأفق نذير بها؛ ولقد حدثت بهذا الإحساس بعض الإخوان فعجبوا من أمري، وحسبوها وسوسة الشعراء؛ وقد ناديتها مرارًا:

«أقبلي أقبلي لطال انتظاري!» ولكنني لم أكن أتخيل الكارثة فجيعة فيك. لقد دعوتها لتقبل وأنا قوي بك. فكم من كوارث صَمَدْت لها وأنا معتصم بركنك الركين!

لقد تَمَتَمْتُ قبل الكارثة بليلتين أقول: كم أنا في حاجة لمن يربت على كتفي، ويضمني إلى أحضانه! ولقد دعوتني مرة - في دعابة من دعاباتك الحلوة - أن آوي إلى حضنك كما كنت طفلاً. وكم كنت مشوقًا لتلبية دعوتك، لولا الكبرياء، الكبرياء التي أودعتها نفسي منذ الطفولة، فجعلتني أهرب من كل مظاهر الطفولة. ولو علمت ساعتها يا أماه أنك راحلة لنسيت كل تعاليمك لأرتمي لحظة واحدة في حضنك الرفيق.. كما كنت طفلاً.

***

أماه..

من ذا الذي يقص عليَّ أقاصيص طفولتي كأنها حادث الأمس القريب، ويصور لي أيامي الأولى فيعيد إليها الحياة، ويبعثها كرة أخرى في الوجود؟

لقد كنت تصورينني لنفسي كأنما أنا نسيج فريد منذ ما كنت في المهد صبيًا. وكنتِ تحدثينني عن آمالك التي شهد مولدها مولدي. فمن ذا يوسوس إليَّ بعد اليوم بهذه الخيالات الساحرة؟ ومن ذا يوحي إلى بعد اليوم بتلك الحوافز القاهرة؟

من ذا الذي يصوغ لي الأحلام الذهبية في الآمال، ويبني لي قصور المجد في الخيال فتصح الأحلام بعد لحظة، ويتجسم الخيال بعد برهة.. لأنك تنفخين فيها من حرارة القلب، وتوسوسين لها برقي الإيمان، وتسكبين عليها إكسير الوجدان؟

لمن أصعد درج الحياة بعدك يا أماه؟ ومن ذا الذي يفرح بي ويفرح لي وأنا أصعد الدرج، ويمتلئ زهوًا وإعجابًا وأنا في الطريق إلى القمة؟

قد يفرح لي الكثيرون، وقد يحبني الكثيرون.. ولكن فرحك أنت فريد لأنه فرح الزارع الماهر يرى ثمرة غرسه وجهده؛ وحبك أنت عجيب؛ لأنه حب مزدوج: حبك لي وحب نفسك في نفسي.

أماه..

عندي لك أنباء كثيرة، كثيرة جدًا ومتزاحمة، تواكبت جميعها في خاطري على قصر العهد بغيبتك. وإنه ليخيل إلي في لحظات ذاهلة أنني أترقب عودتك لأُسمِعَك هذه الأنباء، وأحدثك بما جدَّ في غيبتك من أحداث، وأنك ستسرّين ببعضها وتهتمين ببعضها. وهي مدخرة لك في نفسي يا أماه، ولن تدب فيها الحياة إلا حين أقصها على سمعك.. ولكن هيهات فسيدركها الفناء الأبدي، وستغدو إلى العدم المطلق؛ لأنك لن تنصتي إليها مرة أخرى..؟

أماه.. أماه.. أماه

١٢/ ١٠/ ١٩٤٠م

ـ ٢ ـ

أماه

كلما انفرجت خطى الزمن، تكشف لي من ورائها مدى الفراغ الهائل الذي تركتِه في حياتنا. الفراغ الذي لن يملأه أحد، ولن تسويه عجلة الزمن الطاحنة حين تسوي كل شيء! وعرفت أن الصرخات الأولى التي انبعثت مني عقب المصاب، لم تكن آلم الصرخات ولا أعمقها؛ لأنني لم أكن بعد قد تبينت عمق الكارثة ولا مداها، وأن الوخزات المكتومة البطيئة أشد إيلامًا وألأم وإيذاءً.

عدت أمس متأخرًا يا أماه إلى المنزل، ولكني لم أجد من يسألني: لمَ تأخرت؟ فيشعرني بتلك القيود الحبيبة إلى النفس، يصوغها الحنان الخالص، وتزجيها اللهفة الحنون. ولم أجد من تدمع عيناه فرحًا ولهفة وهو يأخذ بيدي بين يديه، ليزيد باللمس تأكدًا من وجودي، واطمئنانًا

إلى عودتي.

ولقد فتحت حجرتكِ، وتطلعت إلى سريرك، مترقبًا أن أسمع صوتك، أو أرى وجهك. إنني لم أوقن بعد أن حجرتك خاوية، وستمضي الشهور والسنون قبل أن تلهمني هذا اليقين.

وكيف وكل ذرة في حياتنا ممتلئة بوجودك. وكل ذكرى تطل من الماضي أو أمنية يجنيها المستقبل، عليها منك ميسم، وفيها منك معلَم؟ وهل تطيق يد الموت العاتية أو عجلة الزمن الطاحنة، أن تطمس الماضي والحاضر والمستقبل كله في آن؟

وحين دوّى النذير بالغارة توجهت قلوبنا - أنا وابنتاك - إلى ابنك الغائب عنا. وفي لحظة خاطفة تمثَّلتُك، فتجسمت لي اللهفة الحية التي كان يطير بها قلبك عليه، وطاقة الحنان التي يشعها جنانك إليه؛ وأدركت عندئذ جانبًا واحدًا من جوانب خسارتنا فيك.

أماه..

إني لأخطئ كل الخطأ حين أقول: كنت.. وكنت.. فأنت ما تزالين معنا، تصرفين حياتنا، وتوجهين خطواتنا.. وإننا لنأخذ ما نأخذ من الأمور، وندع ما ندع من الشؤون، لأن هذا وذلك يرضيانك؛ فلك حساب ملحوظ في هواجسنا وأفكارنا، وفي حركاتنا وتصرفاتنا. وربما كان في هذا بعض العزاء، لولا أن شخصك الذي فقدناه هو كذلك عزيز علينا بذاته، لا تعوضه الذكريات، ولا تعدله المعنويات.

ومع هذا يا أماه، يشير علينا بعض المشفقين أن نهرب من هذه الدار التي نسكنها. وتبتعد عن الذكريات التي تعمرها، والتي تهيج لنا الألم كلما سكن، وتلفنا بالخيالات والأطياف.. ولكن من قال يا أماه: إننا نطيق أو نريد الهروب من هذه الآلام؟ إنها كل ما بقي في أيدينا منك. وهي عزيزة علينا، وثيقة الصلة بنا، ذات أوشاج بعروقنا ودمائنا، فلن نهرب منها أبدًا يا أماه، ولن نختار عليها راحة السلوة الرخيصة، فهذه آلم من الذكرى لأنها حقيقة الفقدان.

إنه ليخيل إليّ لو نزحنا عن هذه الدار، أننا سنخلفك هناك. ومن ذا يطيق منا يا أماه أن ينزح ويخلفك هناك؟

٢٦/ ١٠/ ١٩٤٠م

- ٣ -

أماه

هناك ألوان من الحديث ماتت في شفاهنا، فلن تنطق بها أبدًا، وألوان من الذكريات خمدت في قلوبنا فلن تثور بها أبدًا، وألوان من الأمنيات

طمست في أرواحنا فلن تضيء لها أبدًا. وهناك ألوان من اللحظات والسهرات والليلات طواها الزمن فلن يبعثها أبدًا. وهذه وتلك يا أماه تؤلف أعز جانب في حياتنا. وقد سدل عليه الستار وسيبقى مسدولاً إلى الأبد يكتنفه ظلام بارد، لا يتسرب إليه دفء الحياة ولا ضياؤها.

أماه

إن أشد ما نعانيه أننا لا نجد أنفسنا، ولا نحس ماضينا إننا نواجه الحياة وكأننا نلقاها أول مرة، ونرى المناظر والأشياء، وكأن لا عهد لنا بها.. وإن الواحد منا يا أماه ليجلس إلى أخيه فإذا هو جديد عليه، وإذا إحساسه بالعلاقة التي تربطه به ليس إحساس الأمس القريب.. كل شيء غريب في هذه الدنيا، ونحن نلقاه مجردين من عدة التجارب ومن سلاح الماضي، ومن المعرفة التي أنفقنا فيها ما مضى من سنين، هذه هي المشقة. وهذا هو الخسران.

أماه..

إننا لنجتمع – نحن أولاد الأربعة – فإذا هنالك ركن مظلم في مجتمعنا لا يجسر أحد منا على الدنو منه، وكشف الستار عنه، بينما هو مخبوء في جوانحه. إننا لنفترق فإذا هنالك ركن مظلم كذلك، نتخيل فيه المحور المفقود، الذي كان يشدنا إليه ويجمعنا مهما تباعدنا.. وهكذا نحن مجتمعين ومتفرقين يلاحقنا طيف الماضي العزيز فنتمثل:

وجد الجحيم بكل أرض من رأى

في حيث سار نعيمه المفقودا

– ٤ –

أماه

أماه.. أماه.. أماه

إنني لمذعور، فقد كشفت فجأة أن عجلة الزمن الرهيبة استأنفت

دورتها الساحقة، بعد ما وقفت خاشعة أمام ذكراك... كشفت ذلك حينما رأيتك في حركة غير ملحوظة تزوين وجهك شيئًا فشيئًا عن حياتنا اليومية، وتطوين ظلك قليلاً قليلاً عن مواقع خطواتنا.. حينما أحسست أنك أخذت في رفق وبطء تتخلفين عنا، وتدعين خطونا يسبق خطوك، وظلنا يفترق عن ظلك..

وقد لمحت طيفك يهم بالتواري عن هواجسنا ومخيلاتنا، ولكن في حذر وبطء رفيقين، فهممت أن أصيح لا..لا..لا..أيها الطيف الحبيب.

أماه..أماه..أماه.

قفي..قفي نصمد لعجلة الزمن العاتية كي لا تدور فتسحق كل عزيز، وتدفن الماضي الذي نعيش على هداه.

ظللي يا أماه حياتنا بجناحيك الرفيقين، ولا تحسري هذا الظل عن مواقعه التي تفيئناها. عيشي معنا يا أماه في هواجسنا وأفكارنا، ولا تبالي أن يلذعنا ألم الذكرى كل لحظة، فهو ألم رفيع عزيز، يغذي من نفوسنا ما كان يغذيه عطفك، ويملأ من وجداننا ما كانت تملؤه رعايتك..جنبينا الفراغ القاتل، والسلوى الرخيصة..

يا أماه...

١٢/ ١١/ ١٩٤١م

لفتات:

الزمن الساحر

أيها الزمن !

أيها الساحر القادر!

إنني أراك اللحظة – أو يخيل إلي أنني أراك – هنالك قابعًا منزويًا وراء منسجك الأبدي، تطل بعينيك النافذتين من خلف المنسج القائم منذ الأزل، تنسل خيوط الكون وتنسجها في دأب لا يمل ولا يفتر، ونظام لا يتقدم ولا يتأخر.

***

إنك هناك في كل ذرة سابحة في الفضاء، أو غائصة في الأعماق، وفي كل خطرة نابضة في الفكر أو كامنة في الضمير؛ وفي كل ومضة مشعة وفي الأفق أو مستكنة في الذريرات....

وأنت هناك في البرعم النامي، والجرح المندمل، وفي الأمنية السانحة والذكرى المتوارية؛ وفي الأمس والغد، وفي الليل والنهار، وفي الغدو والأسحار، وفي الأرض والسماء؛ وفي كل مكان.. ولكن أحدًا - أيها الساحر القادر - لا يحس أنك هناك!

***

إنك لتلأم الجرح في اللحظة التي فيها تثغره؛ وأنت هناك في أعماقه تفتل الأنسجة وتنشئ الخلايا؛ وترتفع بغوره شيئًا فشيئًا؛ وإذا الطعنة الغائرة قشرة عالقة؛ ربما خيل إلى الرائي أن وراءها ثغرة. وإذا القشرة نفسها تسقط بعد لحظات. وكأن لم يكن جرح، ولا ثغرة، ولا قشرة!

وكذلك تصنع بالجروح الغائرة في حنايا القلب، وشعاب الضمير..!

***

وإنك لكامن هناك وراء البرعم المستكن في البذرة الساكنة، تدفعه في رفق، وتمده في هدوء، ثم تنبثق به إلى الضياء نبتة ناحلة كابتسامة الوليد، ثم إذا هو فنن صغير، ففرع كبير، فدوحة باسقة، ذات أوراق وأزهار وأثمار.. ثم ماذا - أيها الساحر القادر- ثم إذا هي خشبة خشنة اللحاء، يابسة اللباب، ثم إذا هي وقود النار، ثم إذا هي شعاع ذاهب وهباب راسب.. وأنت هناك من خلفها دائب في الإبلاء والإنشاء!

وكذلك تصنع بالأمل البازغ والحب الوليد ... !

***

إنك لا تضيع لحظة واحدة! ويحي! وما اللحظات لديك؟

ليخيل إلي أنك تسخر منا، ونحن نقسم الوقت لحظات! ونحن

نعرف حدودها، فتقول: ومن هنا تنتهي الساعة الغابرة، وتبدأ الساعة الحاضرة.. إن الوقت لخيط طويل يلفّه لولب الزمن فيمر بنا أو نمر به بلا توقف، ولا فواصل ولا حدود... ما اللحظات، ما الثواني، ما الدقائق، ما الساعات، ما الأيام، ما الأسابيع، ما الشهور، ما السنون، ما القرون؟ ما أولها، وما آخرها.. ما من أول لها ولا آخر إلا في أوهامنا نحن، نحن المساكين أبناء الفناء!

***

إنك أبدًا هناك وراء منسجك الأبدي تبلى وتجدد في آن، بعيدًا عن الحس والوعي، بعيدًا عن التأمل والملاحظة، بعيدًا عن الشك والريبة، وربما خيل لبعض السذّج أن يرقبوك في عملك الدائب؛ فإذا أنت تبدو لهم ساكنًا صامتًا كلما أمعنوا في الوعي والرقابة، بينما أنت تعمل عملك. تنسِل وتنسج في كل شيء حتى في وعيهم ورقابتهم وهم لا يشعرون!

***

أيها الساحر القادر.. إنك لتحتفظ دائمًا بسر اللحظة الحاضرة، فلا تدع عينًا ترقبها، ولا حسًا يدركها، ولا فكرًا يفهمها، ولا نفسًا تلهمها.. إنها لك وحدك. تنسل خيوطها، وتنسج سواها. ويدك التي تنسل الخيط القديم هي التي تنسج الخيط الجديد، موصولاً هذا بذاك فلا مبدأ ولا نهاية، ولا فاصل بين الخيطين تبصره العين أو يدركه الضمير.. فإذا خرجت من منسجك أبحتها ومضة عابرة للأبصار والأفكار، ريثما تنسل وتنسج نفس هذه الأبصار والأفكار!

وقد يحاول بعض السذج أن يقفوا دورتك، استبقاء للحظة يحبونها، أو تفاديًا للحظة يرهبونها، وقد يتشبثون بالأوهام ويثبتون أقدامهم بالوقت والمكان. وإذا أنت في غفلة منهم، تمر بهم، وتنقل أقدامهم وأوهامهم، وأنت تنسل وتنسج خيوط الأقدام والأوهام!

***

وكم مرة خُيِّل إليهم أن هناك مفاجأة وطفرة. وما كان من ذلك شيء إنما كنت أنت هناك، وراء المنسج، في صومعتك الأزلية. تبلي وتجدد، وتفني وتخلق، وتنسل وتنسج، وهم عنك في غفلة، ثم استيقظوا أو خيل إليهم أنهم استيقظوا!! فهالهم ما أبليت وما جددت، وصاحوا مشدوهين كالأطفال: كيف كان هذا، ومتى كان؟ وقذفوا في وجهك بعلامات التعجب والاستفهام، بينما أنت دائب على منسجك: تبلى وتجدد، حتى في ذلك التعجب وهذا الاستفهام!

***

أيها الزمن!

أيها الرحيم القاسي!

إنك لتلأم الجرح، وتفتح البرعم. ولكنك تبلي الكيان وتذوي الحياة. وإنك لتمسح على الألم، وتزوي الوجه الرعيب.. ولكنك تطوي اللذة وتحجب الوجه الحبيب!

إنك لتمنحنا الجديد، وتهبنا الطريف ولكنك تسلبنا القديم، وتحرمنا التليد، لا بل أنت تسرق منا هياكلنا ونفوسنا، وتخطف ذراتنا وخواطرنا وأيًا كان ما تعوضنا فإن تعويضك محدود بالعمر صائر إلى نفاد، وفقداننا إلى غير رجعة ولن يستعاد!

***

من ذا الذي يستطيع أن يقول في لحظة ما: «أنا أنا» أنا الذي كنت منذ لحظة؟ إن كل شيء قد تغير منذ اللحظة الفائتة فليس هو من كان هناك. إنك - أيها الساحر - في هذه اللحظة الخاطفة نسلت منه خيوطًا، ونسجت فيه خيوطًا!

***

أين الشموس الغاربة وراء الآباد؟ أين الليالي السارية في مجاهل الأبد؟ أين النجوم منجمدة من السديم؟ أين مولد الأرض بجانب

منابع الزمن؟ أين أول فجر؟ وأين أول حي على هذه الكرة السابحة في الفضاء؟ أين إنسان الغاب في الكهوف والآجام؟ أين الزلازل والأعاصير؟ أين النسائم والنفحات؟ أين الوسوسة والخرير؟ أين الرفرفة والصدحات؟ أين البسمات التي رفت على الشفاه؟ أين العبسات التي غضنت الجباه؟ أين الهواجس والأفكار؟ أين الرغائب والأوطار؟ أين الحب والبغض؟ أين الهيام والسلوان؟..

أين.. أين.. ؟ بل أين كلمة «أين» هذه التي لفظتها اللحظة؟ بل أين المقطع الأخير من كلمة «أين» الأخيرة؟.. لقد نسلت خيوطها ونسجت سواها.. وهاأنت ذا دائب على المنسج الأبدي الجبار!

***

هاأنذا أعيد تلاوة هذه السطور التي خطتها يميني.. ولكنها ليست هي كما خططتها ولست أنا كما كنت لحظة تسطيرها ..

إنك نسلت ونسجت في خيوط يدي ونفسي، وفي خواطري وحركاتي، وفي خيوط الصحيفة التي حوتها، وفي خيوط المداد الذي أثبتها .. وها أنت ذا لا تزال تنسل وتنسج في هؤلاء جميعًا ولن يكون شيء منها كما كان. مرة أخرى!

***

أيها الزمن!

أيها الساحر القاهر. أيها الرحيم القاسي. إنني أبغضك. إنني أخشاك.

هتفات:

الفاكهة المحرمة

من هذه التي أتشهاها وهي مني قريبة؛ وأتمناها وهي على قيد خطوة؛ وأحلم بها وهي على مرأى ومسمع؛ وأدنو منها فلا أقترب وأملأ منها يدي، فإذا يداي منها فارغتان؟

إنها الفاكهة المحرمة!

***

من هذه التي تلوح كالسراب: تظمئ الحس وتروي الخيال، وتطمع النفس، ونيلها مُحَال، وتتراءى قريبة مني أبدًا، بعيدة عني أبدًا، كأنها خارجة من قيود الزمان والمكان؟

إنها الفاكهة المحرمة!

***

من هذه الأسطورة الخرافية، لا تتجسم في حياتي فتريحني، ولا تنأى عن طريقي فتريحني، ولكنها تتخايل لي حيثما، توجهت تسد الطريق على سواها ومكانها خلاء، وتدعني هكذا في الحياة معلقًا بين الأرض والسماء؟

إنها الفاكهة المحرمة!

***

ومن هذه التي تبعد عني فأشتاقها وتقرب مني فأشتاقها، وأهرب منها لأعوذ بها، وأبلغ نهاية السخط لأبلغ نهاية الرضا، وتختلط فيها أحاسيسي فتفقد أسماءها التي تعرفها اللغة، ويتعارفها الناس؟

إنها الفاكهة المحرمة!

***

من هذه التي تزدحم نفسي بالخواطر حولها، فإذا تحدثت إليها تحدثت في تفاهات لا صلة لها بهذه الخواطر، فإذا هذه التفاهات مليئة ثمينة، وإذا هذه التفاهات ري وشفاء، كأنما انسابت فيها تلك الخواطر فأفعمتها نبضًا وحياة!

إنها الفاكهة المحرمة!

***

من هذه التي أسمعها تضحك أو تقفز من بعيد، فيشع ذهني بالسنا، وتفيض نفسي بالحياة، وتطيف بي رؤى من السعادة، وأراها ذابلة أو هامدة، فأتهالك وأنهد، وأحس بوقر السنين على عاتقي، وأعجز عن

مواجهة الحياة!

إنها الفاكهة المحرمة!

***

من هذه التي لها حساب معلوم في كل ما أفكر، وكل ما أقدر، وكل ما أرسم من خطة، أو أتخيل من رجاء. فما أستطيع أن أتصور الحياة إلا وهي معي، وما أستطيع أن ألمح خطوي إلا وخطوها معي، فإذا حاولت أن أتخيل لها طريقًا غير طريقي، تشتت الذهن، واضطرب الخيال؟

إنها الفاكهة المحرمة!

***

من هذه التي أحس في أعماقي أنها خلقت لي، فإذا حاولت تجسيم هذا الإحساس، قامت في وجهي العراقيل، واعترضت سبيلي الأشواك وهتف بي من كل اتجاه: مكانك!

إنها الفاكهة المحرمة!

***

من هذه النابتة في ضميري كما تنبت الزهرة في الغصن الشائعة في كياني كما يشيع الدم في الجسم، المتغلغلة في حياتي تغلغل الحياة في الأحياء، المنتشرة في عالمي كما تنتشر الظلال والأضواء؟

إنها الفاكهة المحرمة!

***

من هذه التي يؤذيني أن أراها تألم لأجلي، ويلذ لي أن أراها تألم لأجلي، وتتوالى على حسي ضروب المشاعر التي تتوالى على حسها كالترمومتر الحساس، وتنعكس على نفسي ظلال خطراتها الخفية في شتى الأحوال؟

إنها الفاكهة المحرمة!

***

من هذه التي ينطلق في كياني تيار من الكهرباء، حين أمسها في لمسة أو ألتقي بها في نظرة، أو أحلم بها في خيالي، فإذا كياني كله يهتز وتمتزج فيه الأحاسيس المتضادة، وتتوفز فيه المشاعر والجوارح، ويشتعل فيه الحس والوجدان؟

إنها الفاكهة المحرمة!

***

من هذه التي أكره الحياة من أجلها وأحب الحياة من أجلها/ وأندفع في كل اتجاه، ثم أعود في النهاية إليها، أستمد منها القوة، وأستلهم منها الحياة؟

إنها الفاكهة المحرمة!

***

من هذه الصبية العجوز التي ترنو كطفلة، وتتحدث كقهرمانة، وتشهق بالدمع فتخالها تطلب الحلوى، وتتعمق الحياة فتحسبها فيلسوفة، وتفرح بالجديد كالطفل الوليد، وتزهد في العيش كالراهب الشريد!

إنها الفاكهة المحرمة!

***

من هذه التي يخيل إليّ في بعض اللحظات أن أناغيها لتنام، وفي بعض اللحظات ألتمس عندها العطف والحنان؟ إنها لصادقة في الأولى صادقة في الأخيرة، وفية للحياة في جميع الأحوال؟

إنها الفاكهة المحرمة!

***

من هذه التي أضمها مرة فتخنس كالطفلة، وأضمها مرة فتنساب كالأفعى، وأضمها مرة فتنفلت كالغزال، وهي في كل حالة تفعمني بالحب والحنان، وتغمرني بالفيض والحياة؟

إنها الفاكهة المحرمة!

***

من هذه القديسة المغرية في آن الطاهرة الساحرة في آن، العبقرية القلب والجسد، المثيرة الحس والوجدان، التي يلتقي فيها الغي بالرشد، والحيوان بالإنسان؟

إنها الفاكهة المحرمة!

***

من هذه المشوقة كتمثال فتان، المنسقة كأنها فكرة فنان، الساكنة كأنها في خشوع، المتدفقة كأنها ينبوع، الهادئة السمات، الحارة الخلجات، التي تلتقي فيها الأضداد في انسجام؟

إنها الفاكهة المحرمة!

***

من هذه الأنثى بالحس، الفنانة بالروح، الراهبة بالفكر، القديسة بالوجدان، المخلصة لحواء في آن، حتى وهي تثور على حواء، وتسخط

على بني الإنسان؟

إنها الفاكهة المحرمة!

***

ومن هذه التي لا أرتوي إلا بها، ولا أحيا إلا بإشعاعها، ثم يقتلني الظمأ وهي مني قريبة، وتخذلني الحياة ويداها إلي ممدودتان. فإذا أنا ثرت على هذا الحرمان، وتمردت على هذه الحواجز قهقه القدر الساخر ودوت بضحكه الأرجاء؟

إنها الفاكهة المحرمة!

***

أيها القدر لماذا وضعتها في طريقي، ولماذا جعلتها فاكهة محرمة؟ إنني أسمع أيها القدر حكمك الصارم الساخر: مكانك؛ إنها الفاكهة المحرمة.. وكفى!

شيطان الحقيقة

لا تقرب. لا تقرب.. إنها هكذا جميلة!

ماذا تريد؟ أتبغي أن تحقق فيها، وأن تمتحن صدق النظرة البعيدة؟

كلا! كلا! إني لأشفق أن تبديها النظرة القريبة شوهاء، أو أن تظهر بها بعض الندوب والخدوش!

هي جميلة هكذا ونحن من بعيد، فماذا نبغي غير أن نراها جميلة؟

الحقيقة؟! ويحك! ومن أدراك أنها تبدو دائمًا مقربة؟

ولمَ لا تكون الحقيقة التي نراها على هذا البعد البعيد؟ وهبها ليست كذلك فماذا يضرنا؟ لماذا نصر على رؤيتها عن كثب، إن كانت من بعيد تبدو لنا جميلة!

إن قصارى ما تستطيع الحياة أن تهبنا إياه أن تبدي لنا الأشياء جميلة، فلماذا نصر نحن على نبذ هذه النعمة بحجة البحث عن الحقيقة؟

ألا ويح هؤلاء الفنانين في العالم الأرضي المحدود! إن الشيطان قد نفس عليهم نعمة الوهم التي منحتها إياها السماء، فجعل يوسوس لهم باسم الحقيقة، ليخرجهم من هذا النعيم الجميل، وهم يحسبون أنفسهم الرابحين!

جناية المعرفة

مهما أوتينا اليوم من قوة في الخيال، فإننا عاجزون لا محالة عن استعادة الإحساس بالروعة التي أحسها الإنسان الأول لدى رؤيته أو فجر بعد ليلة كلها ظلام!

إن مطلع الشمس أول مرة حادث لا ينسى.. ومطلع القمر بعد الظلام. وإن الليل في أول ليلة لمنظر لم تكن الألفاظ إذ ذاك قد وضعت لتحد من روعة الشعور به!

وإن الشمس لتشرق اليوم، وإن القمر ليطلع، وإن الليل ليرخي سدوله، والملايين بعد الملايين لا يرتاع منهم أحد إلا الأفذاذ القليلين.

تلك جناية المعرفة، وثمرة التجربة!

لقد ظل الإنسان ينفعل وينفعل كلما طالعته الحياة بوجه جديد حتى جرب وجرب وجرب، وحتى عرف وعرف.. وهنا فقط أعظم ما يناله الحي من الحياة: التأثر والانفعال!

ومع ذلك تسمع من يقول: انتفعوا بالتجربة: ازدادوا من المعرفة!

ما معنى الانتفاع بالتجربة؟ معناه عدم الانفعال بالحوادث.

معناه موت جزء من الحساسية، معناه تجمد منطقة الشعور.

وما غاية المعرفة؟ غايتها أن نقف أمام الأشياء وقفة العليم بأسبابها ومصائرها. معناه ألا نرتاع لها، ولا نعجب لمنشئها. معناه أن نفقد ما نعرف على مر الأيام!

فأية كارثة تلك التي تسلبنا نعمة الارتياع أمام الأشياء؟

ولكن الذي يؤلم ويؤسف أن الناس لابدَّ أن يعرفوا شاؤوا أم رفضوا؛ ولابدَّ أن يجربوا - سخطوا أم رضوا - ولابدَّ أن يفقدوا مرونة الحس

بتوالي الأيام.

إن الفنانين وحدهم هم الذين يظلون يرون الأشياء جديدة أبدًا. إن الفجر في نفس الفنان هو الفجر الأول دائمًا. أولئك هم أبناء الحياة الناجون من لعنة التجربة: لعنة الفناء.

جمال الظلال

هذا المخلوق الشائه القبيح.. هاأنذا أرى ظله جد جميل!

إنه يقفز في رشاقة ويتراءى في رواء. إنه يتثنى ذات اليمين وذات الشمال، كتمثال حي من تماثيل الجمال، إن هذا الظل ليبدو طليقًا من قيود التقاسيم والألوان.

ألهذه الطلاقة يا ترى هو جميل؟

وهذه الشجرة الباسقة النامية. إنها جميلة ولا شك، ولكن ظلها أجمل! إن حركاته أرشق، وخطراته أرفق، إنه يتمايل هكذا في شبه حرية لا تتمتع بها الشجرة الأصلية.

ألهذه الحرية يا ترى هو جميل؟

ألهذا يبدو الخلود جميلاً لأنه غير محدود. لأنه الظل الطليق لهذه الحياة المقيدة؟

ألهذا خلق الناسُ الآلهةَ؟ قبل الأديان - وجنحوا - من قبل الرسل إلى الإيمان؟

من يدري.. فربما كان خلق الناس للآلهة، وركونهم إلى الإيمان هما نفسهما الصلة الحقيقية بين الإنسان الفاني المحدود والإله الباقي غير المحدود!

الإله الطليق

أيها النور؛ أأنت طليق؟ أأنت تفيض حيثما تشاء؟ وتنطلق كيفما تريد؟ أأنت تغمر الكون في سعة وفيض لا يخشى عليهما النفاد ولا تحد من طاقتهما الحدود؟

لقد كنت أحسبك أيها النور كذلك، وكنت سعيدًا بأن أحسبك كذلك إلى أن قرأت وعرفت! عرفت أنك خاضع ككل مظاهر الطبيعة للقانون، عرفت أنك مقيد في حركاتك بالناموس.

وا أسفاه! إنك أيها النور كائن محدود!

وا أسفاه! لقد تقصيت مظاهر هذا الكون، وحصرت أملي فيك –

أيها النور- لأنك أنت الوحيد من بينها الذي كنت تخيل لي أنك طليق!

ثم ماذا؟ ثم ها أنت ذا غير طليق.

وا لهفتاه! أليس هنالك غير المحدود؟ ما أحوج القلب البشري إلى هذا اللانهائي.. إنه يفقد أعز عقائده وأجمل أمانيه حين يفقده.

ماذا؟ أليس هنالك عزاء؟

بلى هنالك عزاء وحيد. هناك الإله الذي لا أول لوجوده ولا آخر لامتداده.. الإله الطليق من جميع القيود.

أيَّها الإله العظيم.. إنني أحبك! أحبك لأنك «غير المحدود» الوحيد في هذا الوجود. أحبك لأنك الأمل الإنساني الوحيد حين يضيق بالحدود!

قيود الملك

متى تستطيع الكائنات أن تكون شيئًا آخر، غير «المالك» و «المملوك»؟

إن «المِلك» قيد من قيود الفناء تنزه عنه الخلود. إن المالك ليس أقل تقيدًا بما يملك من المملوك المقيد بمن يملك.. وإن نسبة الترابط بينهما لهي واحدة أو تكاد.

إن الطبيعة حين ولدت أبناءها جميعًا تسربت فيهم جميعًا فهم أجزاء متكاملة كل جزء يحمل جزءًا من الفكرة التي خلقوا ليعبروا عنها، ويطمح كذلك إلى إدراك الفكرة الكبرى، إنهم متكاملون متداخلون، ولكنهم ليسوا مالكين ومملوكين!

كم بتُّ أكره الملك المتحيز حتى في الحب. لا أريد أن تكون هذه «لي» أو تلك. أريد أن أكون عابدًا، أن أنظر من بعيد إلى الهالات الإلهية المرتسمة حولها، دون أن أمد يدي إلى شيء منها. أريد أن تغمرني غبطة شاملة، أريد أن أحس بالكمال الذي لا يحتاج، وبالرضا الذي لا يطلب، وبالإشراق الذي لا شعائر فيه!

الانسياب

يا صديقي:

أتدري فيمَ أكتب إليك؟ إنه أمر غريب حقًا! إنني في حاجة إلى من يرد عليَّ إيماني بشعر «الحالات النفسية».. إنني لفي شك مؤلم في هذا النوع من الشعر، الذي أصبحت أراه محدود الآفاق.

إنني لا ألجأ إلى هذا الشك راضيًا ولا مختارًا. لقد أحببت شعر الحالات النفسية وآمنت به فترة طويلة، ولقد كان عندي لونًا من ألوان المثل الأعلى للشعر الجديد.

فماذا عساي يا صاحبي أريد؟

أريد الانطلاق، أريد الانسياب في الطبيعة كأنني ذرة منها لا تحس لها كيانًا مستقلاً، أريد ألا أحس بالقصد والغاية ولا بالحالات الواقعية المحدودة.. إنني أكره الوعي؛ لأنه نوع من الحدود؟

أريد الهالات التي لا حدَّ فيها بين الأضواء والظلال. أنكر شعري وشعر الكثيرين؛ لأنني لا أجد فيه ما أريد، وأخشى ألا يكون بين شعراء العالم من يلبي هذه الرغبة العميقة: من ينساب في إحساسه وتعبيره بلا حدود.

أخشى أن تكون الموجة التي تغمرني ليست سوى شعور غامض غير قابل للتعبير عنه في لغة البشر المحدود. وإنها إذن تكون كارثة: ألا يوهب البشر لُغة التعبير عن هذا الشعور.

صلوات:

عبادة الأصنام

تطهير الصنم

قال لي صاحبي - وقد رآني أدافع عنها بحرارة ضد نفسي، وأدفع عنها كل ما رميتها به من قبل:

- ويحك، أهي نكسة إليها بعد كل ما كان؟ وهل نويت الرجوع للشقاء والآلام؟

قلت:

كلا، لم أنو شيئًا والرجوع - بعد - مستحيل إنما أريد تطهير الصنم كيما أتوجه إليه بالعبادة! فما أنا بمستطيع عبادته - وهو ملوث - وما أنا بقادر على البقاء بلا عبادة!

إنها يا صاحبي لم تخسر شيئًا بهذه الشكوك التي أحطتها بها، والتي حسرت عنها هالاتها في نفسي، إنما أنا الذي خسرت.

خسرت الإيمان، وخسرت المعبود، وخسرت القبلة التي أتوجه إليها..

أو تحسب يا صاحبي أن الآلهة يفيدون شيئًا من عبادة المؤمنين أو يخسرون شيئًا من تولي الكافرين؟ كلا يا صاحبي إنما يكسب ويخسر أولئك الفانون الذين فطروا وفي قرارة نفوسهم بذرة الإيمان، يتخذون منها زاد أرواحهم الجائعة، ومستقر قلوبهم الحائرة.

والرسل والأنبياء يا صاحبي: أتحسب أنهم ينشئون الإيمان في هذه القلوب إنشاء؟ كلا: إنما يحاولون فقط أن يردوا إليها الثقة والحرارة، حين تخبو حرارتها ويتطرق الشك إليها.

آه يا صاحبي لو أستطيع أن أغمض عيني مرة أخرى فلا ترى.

ولكنها جناية المعرفة، جناية الوعي المتيقظ، جناية هذا العقل الإنساني الذي يسلبنا سعادة الإيمان ثم لا يعوضنا إلا شقاوة الشكوك.

لست أبغي الرجوع - أيها الصديق - إنما أبغي قداسة الصنم المعبود. فهل فهمتني؟ أستغفر الإيمان! أعني هل أحسست ما يختلج في نفسي من أحاسيس؟

الحلم الضائع

حينما كنت أحلم مغمض العينين، كنت أتسخط على أشواك تؤذيني في هذه الأحلام.

فلما استيقظت وتفتحت عيناي، رحت أتحسر على تلك الرؤى بكل ما فيها من آلام.

عندئذ حاولت أن أغمض أجفاني مرة أخرى، وأن أستعيد الحلم الذاهب مع الكرى.

هنالك سمعت هاتفًا من الأعماق:

هيهات أيها الواهم هيهات

إنه حلم واحد في هذه الحياة!

الفتى المفقود

لست أنت التي أريد يا فتاة ولا عليك آسى في هذه الحياة.

إنما أريد ذلك الفتى الحالم، الذي كان يحيل حقيقتك المجسمة، رؤيا مجنّحة.

ذلك الفتى الذي كان يلقاك في عالم الأجسام، كأنما يلقي بأسطورة في عالم الأوهام.

ذلك الفتى الذي كانت تضرب أنفاسه وتتلاحق، لأن كفه لامست كفك، أو لأن نظرته التقت بنظراتك

ذلك الفتى الذي كان الدم يطفر في شرايينه، والبهجة ترقص في خاطره، لأن شفتيك أو عينيك تهمسان إليه بابتسامة سريعة!

نعم أريد ذلك الفتى المغمض العينين الذي كان يراك بخياله حورية ساحرة، فإذا فتحهما مرّ فرآك إنسانة عابرة، عاد فأغمض عينيه،

فاستطاع أن يلقاك في الفردوس المسحور!
أريد الفتى الذي أفتقده في نفسي فلا ألقاه
وعليه آسى كل الأسى لا عليك أنت يا فتاة!

أكذوبة السلوان

عبثًا أحاول النسيان وحياتي جميعها تستحيل إلى ذكرى.
وحيثما أقدمت أو أحجمت كان لها حساب في إقدامي وإحجامي.
وحيثما ارتقيت أو تخلفت تمنيت أو أشفقت أن تراني!

عبثًا أحاول النسيان وأنا أترقب المعجزة التي تردها إليّ.
وكلما بدا أن المعجزة بعيدة الوقوع زاد تعلقي وارتقائي
وكلما مضيت في الحياة تضخم الماضي واستحال المستقبل كله مجالاً لاستعراض الماضي!
عبثًا أحاول النسيان وأنا أستمد زادي كله من الذكرى.
وأنا أكرر نفسي في كل إحساس يعرض وكل خاطرة تهفو.
وأنا أهم بالتعبير عن خوالجي الجديدة فإذا هو التعبير السابق الذي ألهمتني إياه!

***

عبثًا أحاول النسيان وأنا أحلم فأراها وأراها فأحلم.
وأنا لا أدري أيهما كان الحلم وأيهما كانت الحقيقة.
سواء فتحت عيني أو أغمضتهما، فهو حلم واحد مديد يستغرق الصحو والمنام!

خطرات:

مع نفسي

كتاب الحياة

هذه الحياة الدنيا عجيبة: صفحة منها تعرض كأنما هي وجه الجحيم فإذا الدنيا كلها آلام وإذا الطريق كله أشواك وإذا النفس الإنسانية في يأس لا رجاء لها فيه، وضيق لا مخرج لها منه.

وصفحة منها تعرض كأنما هي طلعة الفردوس. فإذا النفس الإنسانية تتطلع إلى هذه الحياة، وكأنما ترتادها أول مرة، وفي رحابها الفسيحة آفاق للأمل، لا تأخذها الأبصار.

وليس بين هذه الصفحة وتلك إلا مقدار ما يتحول النظر من صفحة إلى صفحة في كتاب!

فأين هو الحق والباطل في هذا الكتاب العجيب؟!

لحظة سعيدة

كم في هذه الدنيا من أشياء جميلة، نفقدها كل يوم، لأننا لا نلقي إليها انتباهنا في اللحظة المناسبة. بالأمس كنت في حجرتي منفردًا كانت أبوابها مغلقة علي؛ لأنني في أعقاب توعك زال، وفجأة نظرت إلى النافذة المغلقة فرأيت الشمس من ورائها توصوص لي بأشعتها. لقد أحسست إحساسًا - غير متوهم - أنها تستأذن عليّ في لهفة، أنها تود لو أسمح لها بالدخول. كانت كالصبية الغريرة في مطلع الربيع!

وما كدت أفتح لها النافذة حتى أشرق محياها الوضيء بابتسامة عريضة؛ وراحت تلقي بنفسها في فرح وشوق على أرضية الحجرة المتواضعة. كانت كأنها ملكة تتخفف من التقاليد!

وما لبثت أن أخذت تتجاذب مع كل «شيء» في الحجرة أطراف حديث شهي، كنت أصغي له بكل جوارحي، ولقد وعيت في لحظات قصار أشياء كثيرة لا أملك أن أبوح بها، لقد ذابت في دمي وأحاسيسي واندست هناك بعيدة عن متناول الألفاظ.

ورويدًا رويدًا جعلت أشعر أن كل ما في الحجرة يؤلف «جوقة» راقصة، توقع «سيمفونية» عذبة ورأيتني أشترك مع هذه الجوقة في الرقص والتوقيع. وقد غاب عن حسي كل ما في العالم الخارجي من أحداث وشخوص، وكل ما في عالم النفس من مشاغل ومنغصات.

لقد كانت لحظة جميلة حقيقية لم تدم. ولكنها كسب لا شك فيه، يضاف إلى رصيدي المتواضع من السعادة العميقة في هذه الحياة.

من إصدارات

مركز الإعلام العربي

صدر من سلسلة كتاب القدس

١ - الخطر يتهدد بيت المقدس	أحمد صدقي الدجاني
٢ - القدس قضية أمة	الشيخ د. جاسم بن مهلهل الياسين
٣ - أدبيات الأقصى والدم الفلسطيني	د. جابر قميحة
٤ - أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي	د. محمد جلاء إدريس
٥ - حرب تكنولوجية لقمع الانتفاضة	د. وجدي عبد الفتاح سواحل
٦ - مدن فلسطينية.. آثار تتحدى الأساطير	أ. فيصل الخيري
٧ - القدس بين الانتفاض والتفاوض	د. محمد خالد الأزعر
٨ - انتفاضة الإنترنت من الجهاد المسلح إلى الجهاد الإليكتروني	د. وجدي عبد الفتاح سواحل
٩ - القدس قضية كل مسلم	د. يوسف القرضاوي
١٠-القضية الفلسطينية.. خلفياتها وتطوراتها حتى سنة ٢٠٠١م	د. محسن محمد صالح
١١ - ملحمة جنين	تحرير: عبد القادر ياسين
١٢ - من الانتفاضة إلى حرب التحرير الفلسطينية	د. عبد الوهاب المسيري
١٣ - القدس وانتفاضة الأقصى وحرب العولمة	د. أحمد صدقي الدجاني
١٤ - الأقصى في مواجهة أفيال أبرهة	د. حلمي محمد القاعود
١٥ - نقض شريعة الهيكل وكيف تعود القدس؟	أ. عبد التواب مصطفى
١٦ - انتفاضة الأقصى نموذج حضاري إسلامي للمقاومة	د. سليمان صالح
١٧ - الفكر اليهودي بين تأجيج الصراعات وتدمير الحضارات	د. عبد الحليم عويس
١٨ - القنابل الاستشهادية: توازن ردع وبشائر نصر	د. وجدي سواحل

١٩ - تحرير فلسطين: الثوابت، المتغيرات، الواجبات	د. السيد عبد الستار المليجي
٢٠ - القدس: مقدسات لا تُمحى وآثار تتحدى	د. أحمد الصاوي
٢١ - انتفاضة الأقصى والاستقلال.. تحديات وآفاق	د. عبد العليم محمد
٢٢ - الطريق إلى القدس	د. محسن محمد صالح
٢٣ - العمليات الاستشهادية في الميزان الفقهي	تواف هايل تكروري
٢٤ - مدن الرباط	م. فتحي شهاب
٢٥ - ديوان المقاومة	فريد عبد الخالق
٢٦ - المنسيون في غياهب الاعتقال الصهيوني	إبراهيم أبو الهيجاء
٢٧ - أطفال تحت الاحتلال	إبراهيم أبو الهيجاء
٢٨ - أرض الإسراء.. دروس في العزة والفداء	ناصر الفضالة
٢٩ - المقاطعة.. فريضة وضرورة	الشيخ محمد السيد الشناوي
٣٠ - العمليات الاستشهادية في منظور السياسة الشرعية	د. سامي الصلاحات
٣١ - إسرائيل وغزو العراق	لواء. أ. ح/ حسام سويلم
٣٢ - الانتفاضة المباركة.. انتصارات وبشائر	حسن محمد أحمد
٣٣ - المسجد الأقصى أربعون عامًا من الاحتلال	مركز الإعلام العربي
٣٤ - فلسطين.	العلامة محمد البشير الإبراهيمي
٣٥ - دليل الفصائل الفلسطينية	عبد القادر ياسين
٣٦- انتصار الدم على السيف	د. حلمي القاعود
٣٧- الأسرار الثلاثة لإسرائيل	الشيخ كمال الخطيب

صدر من سلسلة كراسات القدس

١ - الطريق إلى حطين والقدس	د. أحمد صدقي الدجاني
٢ - جدار بني صهيون.. الأضرار والمخاطر	أ. حسن محمد أحمد
٣ - حصاد الانتفاضة	د. سامي الصالحي

٤ - حماس.. المنطلقات والأهداف	أ. عـــلاء الـــنـــادي
٥ - الشيخ أحمد ياسين.. وفقه الجهاد لتحرير فلسطين	د. مـــحـــمـــد عـــمـــارة
٦ - الشيخ رائد صلاح مجاهد من أجل الأقصى	أ. إحـــســـان ســـيـــد
٧ - الأقصى في خطر	د. مـــحـــمـــد الـــعـــامـــر
٨ - المقاطعة في مواجهة التطبيع	د. مـــجـــدي قـــرقـــر
٩ - رسالة من المسجد الأقصى إلى كل غيور	الـــشـــيـــخ رائـــد صـــلاح
١٠ - أمة المقاومة	د. عـــلاء الـــديـــن مـــحـــرم
١١- بيت المقد س ميراث الأمة	د.جمال عبد الهادي، د.وفاء محمد رفعت
١٢ - مؤرخون يزورون تاريخ بيت المقدس	د.جمال عبد الهادي، د. وفاء محمد رفعت
١٣ - الجهاد الاقتصادي فريضة شرعية	د. حـــســـين حـــســـين شـــحـــاتـــة
١٤ - نحو نصرة حقيقية لفلسطين	د. مـــجـــدي الـــهـــلالـــي
١٥ - غزة.. من دروس المجزرة	د. جـــاســـم المـــهـــلـــهـــل
١٦ – الأقصى في خطر .. افعل شيئًا	ســـعـــود أبـــو مـــحـــفـــوظ
١٧ – مقامات السائرين لنصرة الأقصى وفلسطين	د. أســـامـــة جـــمـــعـــة الأشـــقـــر

صدر من سلسلة دراسات فلسطينية

١ - فلسطين.. دراسات منهجية في القضية الفلسطينية	د. مـــحـــســـن صـــالـــح
٢ - جدار الخوف	إبـــراهـــيـــم أبـــو الـــهـــيـــجـــاء
٣ - شهيد فلسطين أحمد ياسين	مـجـمـوعـة مـن الـعـلـمـاء والمـفـكـريـن
٤ - زاد الخطيب إلى الأقصى الحبيب	مـجـمـوعـة مـن الـعـلـمـاء والمـفـكـريـن
٥ - أعلام الهدى في بلاد المسجد الأقصى (مجلدان)	ياسين طاهر الأغا - نبيلة فخري الأغا
٦ - قضية القدس ١٩٤٧م - ١٩٦٧م	حـــســـين إمـــام ســـيـــد مـــحـــمـــد
٧ - خنساء في فلسطين (١)، (٢)	غـــســـان دوعـــر

٨ - مصنفون علماء في أرض الإسراء	ياسين طاهر الأغا - نبيلة فخري الأغا
٩ - حماس من المعارضة إلى السلطة	تحرير: صلاح عبدالمقصود - محمد جمعة
١٠ - الغرب والإسلام وفلسطين	محمود طلب خليل النمورة
١١ - بين المعبر والنفق.. ماذا حدث في غزة؟	تحرير عبد القادر ياسين

صدر من سلسلة أدب القدس

١ - فلسطين مأساة ونضالاً	د. جابر قميحة
٢ - ديوان المقاومة	أ. فريد عبد الخالق
٣ - أدبيات الأقصى والدم الفلسطيني	د. جابر قميحة
٤ - قصائد تركية من وحي الانتفاضة	تحقيق: د. عبد العزيز محمد عوض الله
٥ - ملحمة القدس	د. عبد الغني التميمي
٦ - القدس تتكلم	للشاعر محمود حسن إسماعيل
٧ - فلسطين على قائمة الانتظار	للشاعر محمد أبو ديّة
٨ - يا فتية القدس	للشاعر وليد الأعظمي
٩ - القدس الشريف بين شعراء الدول الإسلامية	د. حسين مجيب المصري
١٠ - زيتونة بيت المقدس	عبد الرحمن فرحانة
١١ - انتفاضة الأقصى في الشعر النسائي	أنس حسام النعيمي
١٢ - زغاريد السجون	الشيخ رائد صلاح
١٣ - يوم في المخابرات العامة صرخة فلسطيني عائد إلى وطنه	د. محمد الشيخ محمود صيام
١٤ - لفلسطين ننزف شعرًا	د. جابر قميحة
١٥ - صباح المجد يا غزة	رأفت عبيد

المحتويات

مقدمة الناشر	٣
إهداء	٧
تقديم المستشار عبد الله العقيل	٩
تعريف	٤٣
الطيف الأول	٤٥
– غربة	٤٧
– عبادة الحياة	٦٣
– أيها القبر	٦٦
– غرور	٦٨
– قلب متمرد	٧١
– الحلم واليقظة	٧٤
– إلى المجهول	٧٧
– الزمن الساحر	٧٩
– في الليل	٨٢
– في ضوء القمر	٨٤
– اليد الخفية	٨٦
– عظمة الليل	٨٩
– أرنب يستغيث	٩١

الطيف الثاني	٩٣
– المنوال المسحور	٩٥
– رحلة إلى الماضي	١٠٣
– خريف وربيع	١١٣
– رسول الفناء	١٢٢
– ثياب العيد	١٣٢
– أختان	١٣٩
الطيف الثالث	١٤٩
– من ذكريات الطفولة	١٥١
– في الامتحان	١٦٣
– بين الأرض والسماء	١٧٧
– الزمن	١٩١
الطيف الرابع	١٩٩
– أماه	٢٠١
– الزمن الساحر	٢٠٩
– الفاكهة المحرمة	٢١٥
– في التيه	٢٢١
– شيطان الحقيقة	٢٢١
– جناية المعرفة	٢٢٣
– جمال الظلال	٢٢٤

– الإله الطليق	٢٢٥
– قيود الملك	٢٢٦
– الانسياب	٢٢٧
– عبادة الأصنام	٢٢٨
– تطهير الصنم	٢٢٨
– الحلم الضائع	٢٣٠
– الفتى المفقود	٢٣٠
– أكذوبة السلوان	٢٣١
– مع نفسي	٢٣٢
– كتاب الحياة	٢٣٢
– لحظة سعيدة	٢٣٣
– المحتويات	٢٣٨